

التبليغ الفنى

فى القسرين الرابع

تأليف

دكتور

دكتور فى الآداب من الجامعة المصرية ومن جامعة باريس
وحائز دبلوم الدراسات العليا فى الآداب من مدرسة اللغات الشرقية فى باريس

[قدم هذا الكتاب بالفرنسية الى جامعة باريس ونوقش أمام الجمهور فى ٢٥ أبريل سنة ١٩٣١]
ونال به المؤلف إجازة الدكتوراه بدرجة مشرف جداً]

الجزء الثانى

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر لصاحبها : مصطفى محمد

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٢ هـ = ١٩٣٤ م

تحت الطبع :

- ١ - سرائر الروح الحزين .
 - ٢ - أكواب الشهد والعلقم .
 - ٣ - أسرار وأحاديث .
-

الباب السادس

كتاب الرسائل والعهود

صفحة	
١٩٣	أبو الفضل بن العميد
٢٠٢	نثر ابن العميد
٢١١	أبو حفص بن برد
٢١٨	أبو المغيرة بن حزم
٢٢٦	أبو الفرج الببغا
٢٣٣	نثر أبي الفرج الببغا
٢٤٣	الصاحب بن عباد
٢٥٩	أبو بكر الخوارزمي
٢٧٧	قابوس بن وشمكير
٢٩٠	أبو إسحاق الصبائي
٢٩٦	رسائل الصبائي
٣٠٢	أبو عامر بن شهيد
٣١٠	نثر ابن شهيد
٣١٩	أبو الفضل الميكالي
٣٢٥	بديع الزمان
٣٥١	نثر بديع الزمان
٣٥٧	عبد العزيز بن يوسف
٣٦٣	الفهرس المفصل
٣٧٣	فهرس الأعلام
٣٩١	المراجع

الباب الرابع

كتاب النقد الأدبي

صفحة	
٧	أبو الحسن الجرجاني
١٧	نقد كتاب الوساطة
٢٧	ابن فارس
٣٧	نقد آراء ابن فارس في فقه اللغة العربية
٤٨	النقد الأدبي عند ابن شهيد
٥٩	أبو بكر الباقلاني ونقد آرائه في إعجاز القرآن
٨٢	أبو القاسم الآمدي
٨٩	بين صاحب أبي تمام وصاحب البحتري
٩٤	أبو أحمد العسكري
٩٦	أبو هلال العسكري
١٠٣	نقد كتاب الصناعتين
١١١	أبو علي الحاتمي
١٢٠	أبو عبد الله المرزباني

الباب الخامس

كتاب الآراء والمذاهب

١٣٣	أبو حيان التوحيدى
١٤٥	أبو علي بن مسكويه
١٥٢	الأخلاق عند ابن مسكويه
١٥٩	ابن نباتة الخطيب
١٦٦	أبو محمد بن حزم وآرائه في الحب
١٧٩	أبو منصور الثعالبي

الباب الرابع

كتاب السبق والادب

١ - أبو الحسن الجرجاني

١ - إن للرجل الذي نتحدث عنه في هذا الفصل فضلا على علوم اللغة العربية يجب أن يعرفه طلاب الأدب والبيان .

ويكفي في تقدير فضله أن نشير إلى أنه أستاذ عبد القاهر الجرجاني صاحب "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" . وسيرى القارئ في درس هذه الشخصية ما لم يكن ينتظره من درس شخصيات الفقهاء .

فأبو الحسن هذا قاض من كبار القضاة عند الشافعية ، ولكنه بالرغم مما يحيط بوظيفة القضاء من قيود الرزانة وأغلال الوقار : رجلٌ طليق العقل ، حيّ الإحساس ، حر الوجدان يلقى إلى فطرته القياد فيما يعمل وما يقول . وأى خسارة كانت تُرزء بها الآداب العربية لو توقر هذا الرجل وترهب وألقى بنفسه في تيار الجمود ! وأى خطر كان يحقد بالقضاء لو أصمّ هذا القاضي مشاعره ، وأمات ذوقه ، ودفن إحساسه ، وأغمض عينيه عما في هذا العالم من فنون السحر ، وضروب الفتون !

أفتحسب القضاء بنجوة عما تعرض له النفس الانسانية من ظلمات الفتن وعواصف الأهواء ؟ إن أول صفات القاضي فيما أعتقد أن يكون "إنسانا" له في حياته ما يخضع له من مطامع العقل ، وأمانى النفس ، وحاجات الفؤاد . وإلا فكيف يحكم بين الناس وهو لا يحس بما تدين له النفس الانسانية من نزوات المشاعر ، وهفوات العقول ؟

٢ - ولد أبو الحسن علي بن عبد العزيز في مدينة جرجان سنة ٢٩٠ للهجرة . وجرجان هذه مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان ، كما ذكر ياقوت . وقد خرج منها عدد من الأدباء

(١) هكذا يقول ياقوت في معجم الأدباء ص ٢٤٩ ج ٥ ، ولكنه يقول في ص ٣ ج ٧ : إن عبد القاهر ليس له أستاذ سوى محمد بن الحسين ابن أخت أبي علي الفارسي ، وكذلك قال السيوطي في بنية الوعاة ص ٣١٠

والعلماء والتقياء والمحدثين . وكانت لعهد من عُرِفَت بهم من كبار الباحثين مشهورةً بالصناعة المتينة ، والفواكه الكثيرة : فكان فيها الإبريسم الجيد الذي لا يستحيل صبغه ، والذي كان يحمل الى جميع الآفاق ، وكان بها كثير من النخل والزيتون ، والجوز والرمان ، وكان بها ما شاء القناص من الأجادل والزرارير : والطباء واليعافير . وكانت فوق هذا كله مشهورة بالخمر ، وفيها يقول ابن نحریم ، أو الأفيشر اليربوعي — تردّد في ذلك صاحب معجم البلدان — :

وصهباء جرجانية لم يطف بها	حنيف ولم ينغر بها ساعةٍ قِدرُ
ولم يشهد القس المنيهم نارها	طروفا ولم يحضر على طبخها حبر
أثنى بها يحيى وقد نمت نومة	وقد لاحت الشعري وقد جَنَحَ النسر
فقلت أصطبchia أو لغيري فأسقيا	ثما أنا بعد الشيب ويحك والخمر
تعففت عنها في العصور التي مضت	فكيف التصابي بعد ما كلاً ^(١) العمر
إذا المرء وفق الأربعين ولم يكن	له دون ما يأتي حياءً ولا ستر
فدعه ولا تنفس عليه الذي أتى	وإن جرّ أسباب الحياة له الدهر

قال ياقوت : وكان أهل الكوفة يقولون : من لم يرو هذه الأبيات فانه ناقص المروءة^(٢) .

ونرى أن لفظة ما كان يجرجان من النواكه ولشهرتها بالخمر تأثيراً فيما كان لأهلها من رقة الحس ، ودقة الذوق . وفي ظلال هذه المدينة المقتنة في تنسيق المزارع والمصانع نشأ أبو الحسن الذي برع من تقدّمه من الكتيين في أساليب البيان .

٣ — ولقد ظلت جرجان أثرة لديه طول حياته وكان الصاحب بن عباد فيما قال يقسم له بها من إقباله وإكرامه أكثر مما يتلقاه به في سائر البلاد .

قال : وقد استعفيته يوماً من فرط تحقّيه بي وتواضعه لي فأنشدني :

أكرم أخاك بأرض مولده وأمدد من فعلك الحسين

(١) كلاً العمر : انتهى الى آخره وانقضاء . (٢) ورد حديث هذه الأبيات قبل ياقوت في الأمالي .

فالعز مطلوب وماتَمَسُّ وأعزّه ما نيل في الوطن

ثم قال : قد فرغت من هذا المعنى في العينة . يريد قوله :

وشيدت مجدى بين قومي فلم أقل ألا ليت قومي يعلمون صنيعى

قال : والأصل فيه قوله تعالى : ﴿ يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربى وجعلني من المكرمين ﴾^(١) . ورغبة الرجل في أن يكرم في وطنه وبين أهله من الأمانى الانسانية التى تحدث بها الشعراء في مختلف الاجيال .

قال الثعالبي : "وكان في صباه خلف الخضر في قطع عرض الأرض وتدوين بلاد العراق والشام وغيرها وأقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به في العلوم عالماً ، وفي الكمال عالماً . ثم عرج على حضرة الصاحب وألقى بها عصا المسافر فاشتد اختصاصه به ، وحل منه محلاً بعيداً في رفعتة ... وتقلد قضاء جرجان من يده . ثم تصرفت به أحوال في حياة الصاحب وبعد وفاته بين الولاية والعطلة . وأفضى محله الى قضاء القضاة بالرى فلم يعزله عنه إلا موته رحمه الله^(٢) . وكانت وفاته بالرى يوم الثلاثاء لست بقين من ذى الحجة سنة ٣٩٢ — وحمل تابوته الى جرجان فدفن بها . وحضر جنازته الوزير القاسم بن على وأبو الفضل العارض راجلين . فيما ذكر ياقوت^(٣) .

٤ — ألف أبو الحسن الجرجاني في الفقه والأدب والتاريخ . أما تأليفه في الفقه فلم يصلنا منه شيء . وقد جاء في طبقات الشافعية أنه صنف كتاباً في الوكالة فيه أربعة آلاف مسألة . ولو وصل إلينا هذا الكتاب لعرفنا كيف أستطاع هذا القاضى الأديب أن يخدم التشريع . وأما تأليفه في التاريخ فلم يُعرف منه إلا كتاب تهذيب التاريخ وهو كتاب وصفه الثعالبي بأنه (تاريخ في بلاغة الألفاظ وصحة الروايات وحسن التصرف في الانتقادات)^(٤) وقد ضاع هذا الكتاب ولكن الثعالبي حفظ لنا منه فصلين اثنين يمكن أن نعرف منهما منجى هذا الرجل في دراسة التاريخ :

(١) ص ٢٥٢ ج ٥ معجم الأدباء . (٢) ص ٢٣٨ ج ٣ يتيمة (٣) ص ٢٤٩ ج ٥

(٤) ص ٢٤٢ ج ٣ يتيمة .

فهو يبين في الفصل الأول أن من غرضه أن يكشف عن مغازي رسول الله وحروبه ، وعن سراياه وبعوثه ، ومتى قارب ولان ، وفي أي وقت جاهر وكاشف - ويبين في الفصل الثاني أنه يرى بكتابيه إلى غرض ديني وغرض دنيوي : فيبين من الوجهة الدينية كيف طمس الله معالم الشرك ، وأوضح معارف الحق . ويترك من الوجهة الدنيوية أثرا يذكر به عند الصاحب ابن عباد ... وهذا الاتجاه يدل على أن هذا الرجل كان يستخدم التاريخ في نشر الدعوة الإسلامية . واستخدام التاريخ في الأغراض الدينية والسياسية يحمل المؤرخ على مكاره كثيرة ينجو منها من يحاول أن يجعل التاريخ صورة صادقة للأمم والشعوب . وقد يكون للصاحب بن عباد مثالا ميلٌ خاص إلى بعض الأحزاب الإسلامية . ولهذا أثره المحتوم في كتاب يوضع بنيته وإرشاده . وتلك خطة قد تكون نبيلة باعتبار ما ترمى إليه : فطالما آعزت الأمم بما قد يصور به ماضيها من شتى التهاويل . ولكنها خطة خطيرة على التاريخ .

أما تاليفه في الأدب فقد بقي لنا منه "كتاب الوساطة بين المتنبئ وخصومه" وسنعود إليه . وأما آثاره الأدبية فلم يبق منها إلا طائفة من الشعر المختار هي عدتنا في تصوير نفس ذلك القاضي الأديب .

٥ - كانت نفس القاضي على بن عبد العزيز الجرجاني نفسا غالية : فلقد ترك لنا في شعره صورة لنفسه الأبية العزيزة ، التي حرمت عليه طيبات الحياة : إثارا للعزة والأنفة والكرامة ، وصونا للعرض من الدنس ، وإبعادا للروءة عن مواطن الابتذال . وسيرى القارئ حين تقدم له صورة تلك النفس الغالية ، الغالية . ولو شئت لكررتها ثلاثا . سيرى فيها عزاءً له إن كان من الذين وقفت نفوسهم الأبية في سبيل ما يستهون من بسطة الرزق ، وصولة الجاه . ومن ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فينتقل ما نكتب عن هذه النفس إلى من خلعوا نفوسهم عند أبواب المطامع ، وأقبلوا على مصارع الفضل مهطعين ؟ لقد عزت نفس قاضي القضاة وأسرفت في التصون ، إن كان في التصون إسراف ، وما زالت به تصده عن مواطن الشبهات ومظان الريب والظنون حتى زينت له العزلة والآنفراد . وشعره في هذا المعنى مثال من

الأمثلة العليا التي يعتز بها كاتبا كبار النفوس . فليسمع أهل العلم كيف يصف نفسه ذلك العزيز الأنوف :

يقولون لي فيك انقباض وانما
أرى الناس من دانا هو هان عندهم
وما زلت منحازا بعرضي جانبا
إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى
وما كل برق لاح لي يستفزني
ولم أقض حق العلم ان كان كلما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي
أشقى به غرسا وأجنيه ذلة
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا
وفي هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :
على مهجتي تبجى الحوادث والدهر
كأنى ألقى كل يوم ينوبني
فان لم يكن عند الزمان سوى الذي
وقالوا توصل بالخضوع الى الغنى
وبيني وبين المال بابان حرما
إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه
إذا قدموا بالخير قدمت دونهم

رأوا رجلا عن موقف الذل أجمعا
ومن أكرمه عزة النفس أكرما
من الظم أعتد الصيانة مغنا
ولكن نفس الحر تحتمل الظما
ولا كل أهل الأرض أرضاء منعا
بدا طمع صيرته لي سلما
لأخدم من لا قيت لكن لأخدما
إذن فأتباع الجهل قد كان أحزما
ولو عظموه في النفوس لعظما
محياه بالأطاع حتى تبهما

فأما أصطباري فهو ممتنع وعر
بذنب وما ذنبي سوى أني حر
أضيق به ذرعا فعندى له الصبر
وما علموا أن الخضوع هو الفقر
على الغنى : نفسى الأبية والدهر
مواقف خير من وقوفى بها العسر
بنفس فقير كل أخلاقه وفر

في هاتين الكلمتين صورة لتلك النفس المعذبة التي قضى عليها الفضل بالشقوة والحرمان .
وأشرف ما وصف به ذلك القاضى حظه من العزة تصويره للطيبات تعرض عليه عرضا
فيأبأها إيثاره للصون وحرصه على الجلال . يتمثل هذا في قوله :

إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى ولكن نفس الحتر تحتمل الظما
وقوله :

إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه مواقف خير من وقوفى بها العسر
وقوله :

وبنى وبين المال بابان حرماً على الغنى : نفسى الأبية والدهر
ويرحم الله من يعانى ثورة النفس ، وقسوة الزمان !

٦ -- وما أحب أن أترك هذه الناحية من أبى الحسن الجرجاني قبل أن أقف القارئ على لون آخر من ألوان تلك النفس ، فقد رأى كيف يشور على زينة الحياة الدنيا سخطاً على ما يصحبها من مواقف الهوان . فلينظر كيف يعتذر من أنقباضه عن أخويه ، وكيف يلمح برفق ولطف الى ما طوى عنه إباؤه من أسباب النعيم ، وكيف أنس بالوحدة والوحشة هرباً من مواقع الظنون ، وكيف جعل نفوره من العالم سجية فطر عليها منذ قضى الله أن يلقى به فى ظلمات هذا الوجود ، وذلك حيث يقول :

أيا معهد الأحاب ذكّرهم عهدى	ودم لى وإن دام البعاد على الود
ولى خلق لا أستطيع فراقه	يفوتنى حظى ويمتنع رشدى
نفور عن الإخوان من غير ريبة	يعد جفاءً والوفاء لهم وكدى
غذيت به طفلاً فان رمت هجره	تأبى وأغرتنى به ألفة المهدي
كما ألفت كفا كما البذل والندى	فأعيا كما أن تمنعا كف مستجدي
على أننى أقضى الحقوق بنيتى	وأبلغ أقصى غاية القرب فى بعدى
وينخدمهم قلبى وودى ومنطقى	وأبلغ فى رعى الذمام لهم جهدى
فإن أنتم لم تقبلوا لى عذرة	والزمتانى فيه أكثر من وجدى
فقلوا لطبعى أن يزول فانه	يرى لكما حق الموالى على العبد

٧ - كان القاضي أبو الحسن الجرجاني من المغرّمين بالتغريد على أفنان الجمال .
وشعره في وصف الملاحاة ذو أفانين وشجون . فقد نراه يترنم بمظاهر الحسن ، ويتغنى بما
فضح الشباب من أسرار الصباحة . كقوله - في الخلد الموزد والطرف الكحيل - :

أُتر على خدّي من وردك أودع في يقطقه من خدك
أرحم قضيب البان وأرق به قد خفت أن ينقد من قدك
وقل لعينيك بنفسى هما يخففان السقم عن عبدك

وقوله - في مغازلة النديم - :

أفدى الذى قال وفي كفه مثل الذى أشرب من فيه
الورد قد أينع في وجنتي قلت في باللثم ينجيه

وقوله - في فتنة الألفاظ - :

من ذا الغزال الفائن الطرف الكامل البهجة والظرف
ما بال عينيه وألفاظه دأبة تعمل في حنفي
وأما لذلك الورد في خده لو لم يكن ممتنع القطف
أشكو الى قلبك يا سيدي ما يشتكى قلبي من طرفي

وقوله - في اختلاس التقييل - :

وغنّج عينيك وما أودعت أجفانها قلب شيج وامق
ما خلق الرحمن تفاحتي خديك إلا لقم العاشق
لكنني أمتنع منها فما حظي إلا خلصة السارق

وقوله - في القسم بجنود الجمال - :

لا وجفون يغضها العذل عن وجنات تذيبها القبل
ومهجة للهوى معرضة تعبت فيها القدود والمقل
ما غاب من غاب عن ذراك وان أخرج ميقات يومه الأجل

وهذه التطلع التي آخترناها من شعره في الأوصاف الحسية تمثله شره الحواس . وله في هذه المعاني أشعار طريفة يقضى العرف الاجتماعي بأن لا تنشر في مثل هذا الكتاب فلنطوها عن القارئ طاعة للتقاليد . وإحساس هذا القاضى بالجمال جعله يختلق الأسباب ليفصح عما يعنى نفسه من أغلال الوجد الدفين . ولننظر كيف يتحدث عن سحر العيون وهو يشكو الزمان إذ يقول :

مَنْ عاذرى من زمن ظالم ليس بمستحي ولا راحم
تفعل بالأحرار أحداثه فعل الهوى بالذنف المائم
كأنما أصبح يرميهمو عن جفن مولاى أبى القاسم

وفى تصيد أسباب الغزل وموجبات التشبيب يقول فى تفدية حبيب نال من دمه مبضع الطبيب :

يا ليت عيني تحملت ألمك بل ليت نفسى تقسمت سقمك
وليت كف الطبيب إذ فصدت عرقك أجرت من ناظرى دمك
أعرتة صبيغ وجنتيك كما تعيره إن لثمت من لثمك
طرفك أمضى من حد مبضعه فآلحظ به العرق وآرتجز ألمك

٨ — وقد يلهو هذا القاضى الأديب عما فى الجمال من نعيم الحواس ، ويعود الى بكاء ما ذهب من أنسه فى أيامه السوالف ، ولياليه الخوالى . فيذكرنا بلوعة الشريف الرضى الذى كاد ينفرد برقة الحنين . ولننظر كيف يذوب روحه وهو ينجى النسيم :

يا نسيم الجنوب بالله بلِّغ ما يقول المتيم المستهام
قل لأحبابه فداكم فؤاد ليس يسألو ومقلة لا تنام

وكيف يقول فى خطاب الديار، ديار الأنس المفقود :

يا ديار السرور لا زال يبكى بك فى مَضحك الرياض غمأم
ربّ عيش صحبته فيك غض وجفون الخطوب عنا نيام

في ليال كأنهن أمان من زمان كأنه أحلام
وكان الأوقات فيها كؤوس دائرات وأنسهن مدام
زمن مسعدٌ وإلفٌ ووصولٌ ومنى تستلذها الأوهام
كل أنس ولذة وسرور قبل لقياكمو على حرام

وقد أطلق الشاعر خياله في هذه الأبيات فأضحت معانيه كأنها خيال في خيال . أليس
يذكر أن عيشه الغض كان :

في ليال كأنهن أمان من زمان كأنه أحلام

ولكن من ذا الذي ينكر جمال هذا الخيال؟ أو من ذا الذي لا يروقه نوم جفون
الخطوب ؟

ومن جيد الشعر قوله في الحنين الى ليالى بغداد :

أراجعته تلك الليالى كمهددا الى الوصل أم لا يُرتجى لى رجوعها
وصحبة أقوام لبست لفقدهم ثياب حداد يستجد خلعها
إذا لاح لى من نحو بغداد بارق تجافت جنوبى وآسطير هجومها
وإن أخلفتها الغاديات رعوها تكلف تصديق الغمام دموعها
سقى جانبي بغداد كل غمامة يحاكى دموع المستهام هموعها
معاهد من غزلان إنس تحالفت لواظها أن لا يُداوى صريعها
بها تسكن النفس النفور ويغتدى بآنس من قلب المقيم نزعها
يحن إليها كل قلب كأنما تشاد بجبات القلوب ربوعها
فكل ليالى عيشها زمن الصبا وكل فصول الدهر فيها ربيعها
وما زلت طوع الحادثات تقودنى على حبكمها مستكرها فأطيعها

راجع هذا الشعر أيها القارئ وقلب النظر في ثنايا ذلك الروح الحزين . فسترى تلك
اللوعة الدفينة وذلك الوجد الدخيل يرجعان الى الكلف بمظاهر الحسن ، والظما الى معاهد

تلك الظباء التي تحافت لحاظها أن لا يداوى لها صريع، أو يبرأ منها جريح، أو يُبكي في ظلالها
قتيل . وما أضيع الدمع المسفوح فوق أمان الجمال ! .

وما أحب أن يغفل القارئ عن رقة الشوق في هذين البيتين يصف بهما الشاعر معاهد
تلك الظباء :

بها تسكن النفس النفور ويفتدى بأنس من قلب المقيم نزعها
يحن إليها كل قلب كأنما تشاد بجيات القلوب ربوعها^(١)

والعجيب في هذا الشعر أن تصوّر نفس المحب في غربته ونواه وهي تأنس بديار
الأحباب فوق ما يأنس المقيم ! أهذا حق ؟ أهذا مما يشهد به الوجدان ؟ قد يكون ذلك .
وغيرى عنده الخبر اليقين ! .

ولكن أين أس الطاعن من نعيم المقيم ؟ وأين روح الذكري من نشوة الأصطباح
بوجوده الملاح ؟ ومن يدرى لعل من أنس بهم هذا الغريب أعانتهم غربة النوى على نسيان
العهود !

رويدكم لا تسبقوا بقطيعتي صروف الليالي إن في الدهر كافيا
أفي الحق أنى قد قضيت ديونكم وأن ديوني باقيات كما هيا
فوالأسنى حتام أرعى مضيعا وآمن خوّانا وأذكر ناسيا
وما زال أحبابي يسيئون عشرتي ويخفونني حتى عذرت الأعاديا

(١) ما نقلناه من شعر الجرجاني يجرده القارىء في أخباره باليتيمة — ج ٣ — ومعجم الأدباء — ج ٥ —

٢ - كتاب الوساطة

١ - «الوساطة بين المتنبي وخصومه» كما سماه صاحب وفيات الأعيان، أو «الوساطة بين المتنبي وخصومه ونقد الشعر» كما سماه صاحب كشف الظنون : هو كتاب في النقد لأبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني . يقع في ٣٦١ صفحة بالقطع الكبير طبعه وصححه وشرح بعض ألفاظه حضرة أحمد عارف الزين من أدباء صيدا في سنة ١٣٣١ هجرية . نقلا عن نسختين مخطوطتين إحداهما بمصر وأخرهما بالعراق . ولم تسلم هذه الطبعة مع ما بذل فيها من الجهد من مظاهر التقص والتحرير . أحسن الله لناشرها الجزاء .

٢ - ذكر الثعالبي أنه لما عمل الصاحب بن عباد رسالته المعروفة في إظهار مساوي المتنبي عمل القاضي أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه .^(١)

أما المؤلف فيذكر أنه رأى أهل الأدب في المتنبي فئتين : فئة تطنب في تقريره وتتناول من ينقصه بالاحتقار والتجهيل ، وفئة تجتهد في إخفاء فضائله وإظهار معاييه . وكلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه ، وأنه رأى من البر بالآداب - وهي أرحام لأبنائها - أن يقول كلمة الحق في الفصل بين المتنبي وخصومه المسرفين . ويقول في الحرص على الأواصر الأدبية : « وما من حفظ دمه أن يسفك بأولى ممن رعى حريمه أن يهتك . ولا حرمة أولى بالعناية وأجق بالحماية وأجدر أن يبذل الكريم دونها عرضة ويمتن في إعزازها ماله ونفسه من حرمة العلم الذي هورونق وجهه ، ووقاية قدره ، ومنار اسمه ، ومطية ذكره . وبحسب عظم مزيتة ، وعلو مرتبته ، يعظم حق التشارك فيه . وكما تجب حياطته تجب حياطة المتصل به وبسببه . وما عقوق الوالد البر ، وقطيعة الأخ المشفق ، بأشنع ذكرا ، ولا أقبح سمّا من عقوق من ناسبك إلى أكرم آبائك ، وشاركك في أنخر أنسابك ، وقاسمك في أزين أوصافك ، ومثّ اليك بما هو حظك من الشرف وذريعتك إلى الفخر » .^(٢)

وهذا الحرص على بنوة العلم وأخوة الأدب لا يحمل القاضى الجرجانى على التعصب المطلق . وإنما يزين له أن يحوطه بالعدل والانصاف فيقول في ذلك :

”وكما ليس من شرط صلة رحمك أن تحيف لما على الحق أو تميل فى نصرها عن القصد فكذلك ليس من حكم مراعاة الأدب أن تعدل لأجله عن الإنصاف، أو تخرج فى بابها الى الإسراف . بل تتصرف على حكم العدل كيف صرفك، وتقف على رسمه كيف وقفك . فتتصف تارة وتعذر أخرى، وتجعل الإقرار بالحق عليك شاهدا لك اذا أنكرت . وتقيم الاستسلام للحجة اذا قامت محتجا عنك اذا خالفت . فانه لا حال أشد استعطافا للقلوب المنحرفة، وأكثر استمالة للنفوس المشمثة، من توقفك عند الشبهة اذا عرضت، واسترسالك للحجة اذا قهرت“^(١) .

وأخوة الأدب هذه عُرِفَتْ قبل هذا القاضى الأديب فى شعر أبى تمام وديك الجن وعلى ابن الجهم والبحترى وعلى بن محمد الكوفى . وللقارئ أن يرجع الى ما قيل فيها من جيد الشعر فى الجزء الثالث من زهر الآداب ليرى كيف تأثر هذا الكاتب المبدع بما أطال النظر فيه من دقائق الشعر البليغ .

٣ - وضع القاضى الجرجانى لكتاب الوساطة مقدمة طويلة تكلم فيها عن أغلاط الشعراء فى الجاهلية وعن تأثير الطباع والأمكنة فى رقة الشعر وجفائه . وانتقل الى الكلام عن أبى تمام والبحترى وجريروأبى نواس فذكر ما لطم من المحاسن والعيوب .

وساقه هذا الى بحث الاستعارة والجناس والتصحييف والتقسيم . ثم أخذ فى الحديث عن المتنبي فذكر السخيف والمعقد من شعره وتكلم عن تخلصه ومطالعه واعتذاره وفلسفته وسرقاته الشعرية وما أنكر العلماء عليه وما قيل فى الاعتذار عنه . وقد جرت هذه الأبحاث الى الكلام عن التشبيه واختلاف الناس فى التشبيهات ، وتفاوت الشعراء فى صوغ اللفظ والمعنى واختلافهم فى أخذ الألفاظ والمعانى الى غير ذلك مما كان يوجب الأتس بالاستطراد عند المتقدمين .

وزيد في هذا الفصل أن ندرس مع القارئ بعض النظريات الأساسية لصاحب الوساطة وأن نتبين معه ما فيها من القوة أو الضعف وأن نكشف عنها ما قد يلبسها أحيانا من الغموض . راجين أن يكون في هذه المراجعة فائدة لمن تعينهم دراسة الآداب .

٤ — انفرد الجرجاني، أو كاد، بالشك في سلامة الشعر الجاهلي من الضعف واللحن . فقد كانت جمهرة الباحثين ترى أن شعراء الجاهلية أعز من أن تؤخذ عليهم هفوة أو تحسب عليهم سقط . وكان من النحاة من يعنى نفسه بتصويب الجاهليين والمخضرمين والأمويين حين يجد الناقد في شعرهم ما يذهب بقيمته من شنيع الأخطاء، وقبيح الأغلاط . ولكن الجرجاني يرى أن الدواوين الجاهلية لاتسلم فيها قصيدة من بيت أو أكثر يمكن القدح فيه : إما في لفظه ونظمه ، أو ترتيبه وتقسيمه ، أو معناه وإعرابه ويقول .

« ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة لوجدت كثيرا من أشعارهم معيبة ومستزلة ومردودة منفية . لكن هذا الظن الجميل والاعتقاد الحسن ستر عليهم ونفى الظنة عنهم . فذهبت الخواطر في الذب عنهم كل مذهب وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام » .

وهو يستنكر تسكين الفعل من غير موجب في قول امرئ القيس :

فاليوم أشرب غير مستحب (٢) إنما من الله ولا واغل (٣)

وإسقاط النون لغير إضافة ظاهرة في قوله :

لها متتان خطاتا (٤) أكب على ساعديه النمر

وتسكين الفعل بغير عامل في قول لبيد :

تذاك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

(١) الوساطة ص ١٢ - ١٥ (٢) يقال احتتب الإثم إذا اكتسبه كأنه شيء محسوس حمله (مصباح) .

(٣) الواغل المستتر — وغل في الشجر وغولا تواری فيه ، ودخل على القوم واغلا ، وقصده هنا غير مستتر .

(٤) الخطاة : المكتنزة من كل شيء .

وقول الأسدي :

كما نزعها وقد مزقت واتسع الخرق على الراقع

وقول الآخر :

تأبى قضاة أن تعرف لكم نسبا وابننا نزار فأنتم بيضة البلاء
وحذف النون في قول طرفة : قد رفع الفخ فماذا تحذرى

ورفع ما يجب نصبه في قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع وخفض ما يجب رفعه في قول امرئ القيس :

كأن نبيرا من عرائن^(١) وبله كبير أناس في بجاد^(٢) مزمل^(٣)

وقد أطل الجرجاني في سرد الأمثلة وفيما ذكرناه كفاية . ثم أشار الى أنه تصفح ما تكلفه النحويون لشعراء الجاهلية من الاحتجاج اذا أمكن تارة بطلب التخفيف عند توالى الحركات ومرة بالإتباع والمجاورة وتغيير الرواية اذا ضاقت الحجة ، وتثبيت ما راموه في ذلك من المرامي البعيدة وارتكبوا لأجله من المراكب الصعبة التي يشهد القلب بان الباعث عليها شدة إعظام المتقدم والكلف بنصرة ما سبق اليه الاعتقاد وألفقه النفس .

هـ — ونحن لانبأ أن نكتفى بما أشار اليه الجرجاني من تعسف المناخين عن شعراء الجاهلية ومن قاربهم من المخضرمين والأمويين فقد لا تغني هذه الإشارة . وانما نذكر ما قالوه في توجيه قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحنا أو مجلف

فانهم يذكرون أنه رفع ”مجلف“ بعد نصب ”مسحنا“ تبعاً للمعنى لأن المراد أنه لم يبق من المال إلا مسحت أو مجلف — ومثله قول الهذلي — وهو من شواهد المفصل — :

(١) جمع عرائن وهو الأنف . وعرائن الويل : أول المطر . (٢) البجاد : كساء مخطط تلبسه العرب .

(٣) مزمل : أى ملثف في ثوبه . وكان يحب رفعه .

على أطرقا باليات الخيام إلا التمام وإلا العصي
 نصب التمام لأنه استثناء من موجب ورفع العصي حملا على المعنى^(١)، وكذلك قول الآخر:
 غداة أحلت لابن أصرم طعنة حصين عبيطات السدائف والخمر
 رفع الخمر على توهم رفع العبيطات لأنه إذا أحلتها الطعنة فقد حلت هي، إلى آخر ما يتأول
 النحاة !!

تأمل هذا أيها القارئ وسل نفسك : أكان هؤلاء الشعراء يفكرون حقا في أنهم نصبوا
 الاسم الأول على الاستثناء ورفعوا الثاني وفقا للمعنى؟ أكان الهذلي والفرزدق يحسبان حساب
 النحاة في مثل ذلك التأويل؟ لا شيء من ذلك وإنما أتعب النحاة أنفسهم كلفا بنصرة ماسبق
 إليه الاعتقاد وألفته النفس، كما يقول أبو الحسن الجرجاني . أو هو لحن صريح: فالتنا نرتاب
 في سلامة الأعراب من اللحن والغلط ونرى أنهم قد يلحنون كما يلحن المولدون وأن من الخطأ
 إهمال القياس اتباعا لما يؤثر عنهم من الشذوذ^(٢) ... وهذا المذهب في استقراء أغلاط القدماء
 خير من التورط في النفع عنهم بما لا يغني ولا يفيد . فقد كان الفراء يذكر أن من العرب
 من يقول في " أنظر " أنظور — وينشد لبعض الأعراب :

الله يعلم أنا في تلفتنا يوم الفراق إلى جيراننا صور
 وأنى حيث ما يثنى الهوى بصرى من حيث ما سلكوا أرنو فانظور^(٣)

وهذا لحن لا ينبغي أن يتحمل له الصواب . فان ديباجة هذا الشعر تبعد أن يكون قائله
 من قبيلة مهجورة تسبخ هذا التعبير .

٦ — وقد تكلم الجرجاني عن تأثير المكان والطبع في رقة الشعر وجفافه وهو يرى أن
 للبادية أثرا في خشونة الشعر وقوة أسره وصلابة معجمه . وأن للحاضرة فضلا على رقة الشعر

(١) راجع الفصل ص ٨ (٢) ويجب أن نذكر أن الشعر الجاهلي والأموي كان يجري على قواعد من
 النحو لم تأخذ صبغة نهائية في التحديد والترتيب، كما اتفق ذلك في العصر العباسي، فأغلاط الجاهليين والأمويين ليست
 أغلاطا بالقياس إلى لغتهم هم، وإنما هي أغلاط بالاضافة إلى اللغة التي حددت قواعد النحو يون .
 (٣) أنظر الصاحي ص ١٢

وعذوبته وسلامته من الوعورة والجفاء! ومن هنا كان شعر عدى وهو جاهل أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما آهلان : لملازمة عدى الحاضرة وبعده عن جلافة البسود وخشونة الأعراب^(١). وقد يكون من البر بالأدب أن نذكر في تأييد هذه النظرية قطعة من رائية المنخل الإشكري وهو جاهل صقلته الحضارة ودمته الترف في قصور الملوك، ولنتظر كيف يقول في أخذ الفتى بأعطاف الفتاة، وقد خلتها هدأة الخدر وغفوة الرقيب :

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في اليوم المطير

الكعب الحسناء تر فل في الدمقس وفي الحرير

فدفعتها فتدافعت مشى القطة الى الغدير

ولثمتها فتتنفس كتتنفس الطيبي الفيرير

فدنت وقالت مامد يخل ما يجسمك من حرور

ماشف جسمي غير حبك فاهدني عنى وسيرى

وأحبها وتحبني ويحب ناقتها بعيرى

٧ - وأظرف ما تنبه اليه الجرجاني إشارته إلى أن الطبع وللخلقة أثرا في رقة الشعر

فان وجفائه سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع ودمائة الكلام بقدر دماثة الخلقة . ويقول :

”وأنت تجد ذلك في أهل عصرك ، وأبناء زمانك ، وترى الجاني الجلف منهم

كز الألفاظ معقد الكلام وعمر الخطاب حتى أنك ربما وجدت ألفاظه في صورته ونغمته

وفي جرسه ولحيته ، ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك“^(٢).

ولك أيها القارئ أن تبحث عن ذلك أيضا في أهل عصرك وأبناء زمانك : فقد تجد

تعقيد بعض المعاني أثرا لالتواء بعض الوجوه والنفوس !!

أما أنا فأشهد بصحة هذه النظرية حين أوازن بين مقامات الحريري ومقامات بديع الزمان

أو شعر أبي تمام وشعر أبي نواس . وقد يكون الفرق بين شعر الشباب وشعر الكهول

راجعا الى هذه الناحية الخلقية : فطالما يأتى الشاعر وهو قفى بما لم يستطعه وهو كهمل .
وما أقوى سلطان الجسم والروح فى حياة العقول ! وهنا وجه آخر لدائمة الشعر ورقته :
هو نفس الشاعر حين يتيمه الحب ويأسره العشق . ولم يذكر الجرجاني أمثلة لذلك اكتفاء
بوضوح الفكرة ، ولو شاء لتمثل بقول بعض الأعراب :

وفى الجيرة الغادين من بطن وبرة غزال تحيل المقتلين ريب
فلا تمسبى أن الغريب الذى نأى ولكن من تأين عنه غريب
وقول الآخر :

فيأرب إن أهلك ولم ترو هامتى بليلى أمت لا قبر أعطش من قبرى
وإن أك عن ليلى سلوت فأنما تسليت عن يأس ولم أسل عن صبر
وان يك عن ليلى غنى وتجلىد فرب غنى نفس قريب من الفقر

٨ — وقد نص الجرجاني على أنه لا يريد بالسهل الضعيف ولا يقصد من الرشيق المؤنث
وهو يتكلم عن سهولة الشعر ورشاقته ، وإنما يريد النمط الأوسط الذى ارتفع عن الساقط السوقى
وانحط عن البدوى الوحشى . وهو لا يوصى بأجزاء الشعر كله مجرى واحدا وإنما يرى أن تقسم
الألفاظ على رتب المعانى فلا يكون الغزل كالفخر ، ولا المديح كالوعيد ، ولا الهجاء كالاستبطاء ،
ولا الهزل كالجد ، ولا التعريض كال تصريح . فان المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح
باللباقة والظرف . ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام : فلكل واحد من
الأمرين نهج هو أملك به ، وطريق لا يشاركه الآخر فيه . ثم يقول « وليس ما رسمته لك
فى هذا الباب بمقصود على الشعر دون الكتابة ولا يختص بالنظم دون النثر ، بل يجب أن يكون
كتابك فى الفتح والوعيد خلاف كتابك فى التشوق والتمنية واقتضاء المواصلات ، وخطابك إذا
حذرت وزجرت أنخم منه إذا وعدت ومنيت . فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل
والتهافت ، وما أعترض به التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه وسهل حفظه وأسرع
علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس » (١)

فأما القذف والإفحاش فهو سبب محض . وليس للشاعر إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم . ويقول بعد كلام « ومالك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض العمل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه والعنف به . ولست أعنى بهذا كل طبع . بل المذهب الذى قد صقله الأدب ، وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الردى والجيد ، وتصور أمثلة الحسن والقيح » .^(١)

٩ — والذى يتعقب النقد عند العرب يرى الجرجاني مسبوقا في هذه الآراء . فليس له إلا فضل الترتيب والتنسيق . وهو فضل ليس باليسير . على أنك تشعر وأنت تراه يتصرف في هذه الافكار تصرف المالكيين أن عقله أشرب مذاهب النقد والمفاضلة بين طبقات النثر الجيد والشعر البليغ ، بحيث يتعذر عليه هو نفسه أن يميز بين ما استفاده بالدرس والمراجعة وما أمدته به قريحته المتوقدة وذوقه السليم... وللقارئ أن يرجع الى صحيفة بشر بن المعتمر ووصية أبي تمام للبحترى^(٢) فسيرى عناصر هذه النظريات التى يسوقها الجرجاني في سياسة النفس وتقويم البيان .^(٣) ولكنه سيبرى كذلك أن الجرجاني أنهض بحجته ، وأملك رأيه ، وأقرب الى نفس قارئه من الذين سبقوه في هذا الباب . وتلك دلالة على استقلاله بما أودع كتابه من الآراء .

١٠ — وقد رأى أبو الحسن الجرجاني أن يفرق بين الشعر والدين وأن يميز بين غاية الأدب وغاية الأخلاق . وهو يعجب ممن ينتقص المتنبي ويفض من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الديانة ، كقوله :

يترشفن من فى رشقات هن فيه أحلى من التوحيد
وقوله :

وأبهر آيات التهامى أنه أبوكم وإحدى ما لكم من مناقب

مع أنهم احتملوا إسراف أبي نواس في مثل قوله في انتهاب اللذات والشك في عذاب
الآخرة :

(١) ص ٢٦ و ٢٨ وساطة . (٢) ص ٥٨ من البيان والتبيين .

(٣) زهر الآداب ج ١ ص ١٠١ ط أول .

فدع الملام فقد أطعت غوايتي ونبذت موعظتي وراء جداري
ورأيت إشار اللذازة والهموى وتمتعا من طيب هذى الدار
أحرى وأحزم من تنظر آجل ظننى به رجم من الأخبار
إنى بعاجل ما ترين موكل وسواه إرجاف من الآثار
ما جاءنا أحد يخبر أنه فى جنة مذمات أو فى نار

ويقول فى تأييد هذه النظرية "فلو كانت الديانة عارا على الشعر وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر لوجب أن يعنى اسم أبى نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الآية عليه بالكفر ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزبيرى واضراهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاب من أصحابه بكما خرسا وبكاء مفحمين . ولكن الأمرين متباينان . والدين بمعزل عن الشعر" (١) .

ويجب أن نذكر أن صاحب هذه الفكرة هو "قاضى القضاة" وسيد الفقهاء فى الرى "وجرجان : لنعرف الى أى حد كانت النزعة الفنية سيطرة على مشاعر هذا القاضى الأديب . غير أننا نلاحظ أن الشعر الذى تمثل به لأبى نواس لا يشفع فى تأييد هذا الرأى الخطير . فليست الشاعرية أن يعلن الرجل كفره أو إيمانه فى تعابير لا رونق لها ولا ماء ، كما أعلن كفره أبو نواس ، وكما يعلن الأشياخ والأخبار والرهبان حرصهم على الدين والأخلاق ، وإنما الشاعرية روح يتمرد به الشاعر فيهنز نفس القارئ أو السامع حزنا عنيقا يحمله على أن يؤمن وهو طائع ذلول بما يدعو اليه الشاعر من تزيين الاثم والبنى أو تقييح النجى والفسوق .

ومن ذا الذى لا تروقه روعة الفتك فى قول ديك الجحش :

لما نظرت إلى عن حدق المها وبسمت عن متفتح النوار
وعقدت بين قضيب بان أهيف وكثيب رمل عقدة الزنار
عفرت خدى فى الثرى لك طائعا وعزمت فيك على دخول النار

أومن ذا الذى لا ينجش لعظمة الفضل والوقار فى قول معن بن أوس :
 اعمرك ما أهويت كفى لريبة^(١) ولا حملتى نحو فاحشة رجل
 ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها ولا دلنى رأى عليها ولا عقلى
 وأعلم أنى لم تصبنى مصيدة من الدهر إلا قد أصابت فتى قبل
 ولست بمأش ما حيت لمنكر من الأمر لا يمشى الى مثله مثلى
 ولا مؤثر نفسى على ذى قرابة وأوثر ضيغى ما أقام على أهلى

والشاعر الواحد قد يرضيك جده وهزله ، ويروك شكه ويقينه ، حين يصدر عن ألوان
 نفسه ، ويتحدث صادقا عن أسرار قلبه . ولا عيب على الشاعر فى أن تختلف آرائه باختلاف
 ذوقه وإحساسه : فان الشعر كالمرآة . والنفس دنيا ثانية تتراءى صورها المختلفة فى لوحة الشعر
 الجميل . وما ذا تريدون من الشعر والأدب أيها الناس ! أتريدون أن تعلنوا الأحكام العرفية
 على الكتاب والشعراء والفنانين لئلا ينظروا بعيونهم ، ويفقهوا بقلوبهم : فيكون من آثارهم
 ما ينقض ما تواضعتم عليه منذ أجيال ؟ إن الله الذى يلون العالم كل يوم بلون جديد
 وتفتن يده الصنّاع فى تزيين الأرض والسموات ، وينفخ من روحه فيمن اصطفاهم للشعر
 والبيان ، هو وحده جل شأنه القادر على أن يقول : هذا ما أريد أن يكون ، وذلك ما أنكر
 أن يكون !! وسيظل الأدب الحق أداة يعرب بها الشعراء عما تريد القدرة أن تصوّره
 محاسن هذا الوجود .

فهنيئاً لمن أراد الله أن يشربهم صفوة الحياة ليكون للعالم من أدبهم فرقان وأنجيل .



تلك نواح كشفنا عنها وبيناها من كتاب الوساطة راجين أن يعود اليه القارئ طالبا للزبد .
 فليس النقد إلا وسيلة الى إثارة الرغبة فى المراجعة والشوق الى الاطلاع .

(١) الريبة ، بكسر الراء ، التهمة .

٣ - ابنه فارس

١ - لم تعين كتب التراجم السنة التي ولد فيها أحمد بن فارس، ولم يتفق مترجموه على المكان الذي ولد فيه . وقد نسب ابن الأنباري إلى المكان الذي مات فيه وهو الرى : فسماه أبا الحسين الرازي . والرازي نسبة شاذة إلى الرى ^(١) . ويقول ياقوت في معجم الأدباء ^(٢) : « واختلفوا في وطنه ف قيل : كان من رستاق الزهراء من القرية المعروفة كرسف وجياناباذ، وقد حضرت القريتين مرارا ولا خلاف أنه قروى . حدثني والدي محمد بن أحمد وكان من جملة حاضري مجالسه أنه أتاه آت فسأله عن وطنه فقال : كرسف . قال فتمثل الشيخ :
بلاد بها شئت على تئمي وأول أرض مس جلدي تراها »

أما وفاته رحمه الله فكانت بالرّى في صفر سنة ٣٩٥ هجرية وقد دفن بجوار قاضي القضاة على بن عبد العزيز الجرجاني .

٢ - ذكر السيوطي في بغية الوعاة ^(٣) أن ابن فارس كان نحويا على طريقة الكوفيين وأنه سمع أباه وعلى بن إبراهيم بن سلمة القطان . وذكر ابن الأنباري أنه أخذ عن أبي بكر أحمد بن الحسن الخطيب راوية ثعلب . وعن أبي عبد الله أحمد بن طاهر المتجيم، وكان يقول عن أبي عبد الله هذا : " ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه " ^(٤) وكان ابن فارس حريصا على تدوين ما يأخذه عن أبيه . وقد أثبت ابن الأنباري شاهدا على ذلك الحرص نكتفي بالإشارة إليه . وذكر ياقوت أن ابن فارس حدث عن أبيه أنه قال : حججت فلقيت بمكة ناسا من هذيل بفاريتهم ذكر شعرائهم فما عرفوا أحدا منهم . ولكنني رأيت أمثل الجماعة رجلا فصيحاً وأنشدني :

إذا لم تحظ في أرض فدعها وحث العملات على وجاها ^(٥)

ولا يغرك حظ أخيك فيها إذا صفرت يمينك من جادا

(١) طبقات النحاة ص ٣٩٢ (٢) ج ٢ ص ١٢ (٣) ص ١٥٣ (٤) طبقات النحاة ص ٣٩٢

(٥) العملات : الجمل .

ونفسك فز بها إن خفت ضيا وخل الدار تحزن من بكاهي
فإنك واجد أرضا بأرض ولست بواجد نفسا سواها

٣ — كان لابن فارس عدد كثير من التلامذة أشهرهم صاحب بن عباد وبديع الزمان الحمذاني . أما حاله مع صاحب فقد ابتدأت بوفاق ، وانتهت بشقاق — نسجع على ذكرى صاحب بن عباد! — تمت بينهما الألفة في بداية الأمر حتى وضع ابن فارس كتابه « الصاحبي » نسبة إلى صاحب . وحتى مدح صاحب ابن فارس بقوله « شيخنا أبو الحسين محمد رُزق حسن التصنيف ، وأمن فيه من التصحيف ^(١) » ثم انخرق صاحب عن ابن فارس لانتسابه إلى خدمة آل العميد وتعصبه لهم فانفذ إليه من همدان كتاب الحجر من تأليفه فقال صاحب « رد الحجر من حيث جاءك » ثم لم تطب نفسه بتركه فنظر فيه وأمر له بصلة ^(٢) . وكان صاحب كما ذكر ياقوت في معجم الأدباء يعرض أحيانا لابن فارس فيذكر أنه رأى « بعض الجهال يصحف ويقول » . وأما حاله مع بديع الزمان الحمذاني فكانت فيما يظهر غاية في صفاء الوداد . نعرف ذلك من كتاب بديع الزمان إلى أستاذه جوابا على كتاب ورد إليه منه في ذم الزمان . ومن البر بالأدب والتاريخ أن نذكر هنا نص ذلك الكتاب لنرى كيف كان بديع الزمان يرتاب فيما تقدمه من نظام الحكومات الإسلامية ، وكيف كان يحذر تغلب النفس الانسانية التي تُجَلِّ غدرها في قصائد الشعراء ، وصحائف الأنبياء . ولنتنظر كيف يقول « نعم أطل الله بقاء الشيخ الإمام إنه الحما المسنون ^(٣) ، وإن ظنت الظنون ، والناس ينسبون لآدم ، وإن كان العهد قد تقادم . وارتبكت الأضداد ، واختلط الميلاذ . والشيخ الإمام يقول « فسد الزمان » أفلا يقول متى كان صالحا ؟ أفي الدولة العباسية وقد رأينا آخرها وسمعنا أولها ؟ أم المدة المروانية وفي أخبارها لا تكسع الشول بأخبارها ^(٤) ؟ أم السنين الحربية ^(٥) .

(١) طبقات الأدباء ص ٣٩٤ (٢) ياقوت ج ٢ ص ٩ (٣) ج ٢ ص ٣٠٢

(٤) الحما المسنون : الطين المتغير . (٥) الشول جمع شائلة على غير قياس . والأخبار جمع خبر وهو بقية المين . والكسع هو ترك بقية من المين في أخلاف الافة . المعنى : لا تغزر لبن إبنك واحلبها لأضيافك فإنك (لا تدري من الناتج) كما في بقية البيت . (٦) نسبة إلى حرب بن أمية ، والمراد خلافة معاوية وابنه يزيد .

(١) والريح يركز في الكلى
ومبيت حجر في الفلا
(٢) والسيف يغمد في الطل
والحارثان وكربلا

أم البيعة الهاشمية وعلى يقول : ليت العشرة منكم براس من بنى فراس ؟ أم الأيام الأموية والتغير إلى الحجاز ، والعيون إلى الأعجاز ؟ أم الامارات العدوية وصاحبها يقول : وهل بعد النزول إلا النزول ؟ أم الخلافة التيممية وصاحبها يقول : طوبى لمن مات في نأنة الاسلام ؟ أم على عهد الرسالة ويوم الفتح قيل : اسكتي يا فلانة ، فقد ذهب الأمانة ؟ أم في الجاهلية وليد يقول :

ذهب الذين يعاش في أكافهم
أم قبل ذلك وأخو عاد يقول :

ببلاد بها كنا وكما نحبها
إذ الناس ناس والزمان زمان

أم قبل ذلك وقد روى عن آدم عليه السلام :

تغيرت البلاد ومن عليها
فوجه الأرض مغسبر قبيح

أم قبل ذلك وقد قالت الملائكة : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ وما فسد الناس ، وإنما اطرده القياس . وما أظلمت الأيام ، وإنما امتد الظلام . وهل يفسد الشيء إلا عن صلاح ، ويمسى المرء إلا عن صباح ؟

ثم انتقل بذيغ الزمان إلى الرفق بأستاذة والعطف عليه فقال :

« ولعمري لئن كان كرم العهد كتابا يرد ، وجوابا يصدر ، إنه لقريب المثال ، وإنى على توبيخه لى لفقير إلى لقائه ، شفيق على بقاءه ، منتست إلى ولائه ، شاكر لآلائه . لا أحل حريدا عن أمره ، ولا أقف بعيدا عن قلبه . مانسيته ولا أنساه . إن له أيده الله على كل نعمة خولنيها الله نارا ، وعلى كل كلمة علمنيها منارا . ولو عرفت لكتابي موقعا من قلبه لا غنمت خدمته به ولرددت إليه سؤر كاسه ، وفضل أنفاسه . ولكني خشيت أن يقول (هذه بضاعتنا ردت

الينا) وله أيده الله العتي ، والمودة في القربي ، والمرباع ، وما ناله الباع . وما ضمه الجلد ،
وضمنه المشط . وليست رضاي ولكمها جل ما أملك » .

إلى آخر ما قال :

ولو وجدنا نص الكتاب الذي بدأ به ابن فارس لعرفنا شيئا من صور نفسه ، وألوان قلبه :
فان لأزمات القلب ، وبفحات النفس ، دلالة كبيرة على المناحي التي يحنح اليها الكتاب والشعراء
والباحثون^(٢) .

٥ — كان ابن فارس وسطا في شعره ونثره : فلم يكن يُسَف حتى يصل الى وصمة
الإعياء . ولم يكن يعلو حتى يصل إلى جودة البيان . ونثره في جملة بين واضح مقبول . يعجبني
منه قوله — في تقرير رجال الفقه والحديث على اللحن وترك الإعراب — : « وقد كان الناس
قديما يمتنبون اللحن فيما يكتبونه أو يقرءونه اجتنابهم بعض الذنوب . فأما الآن فقد تجوزوا
حتى إن المحدث يحدث فيلحن والفقيه يؤلف فيلحن . فاذا نهاها قالوا (ما ندرى ما الإعراب
وإنما نحن محدثون وفقهاء) فهما يُسران بما يساء به اللبيب ! ولقد كلمت بعض من يذهب
بنفسه ويراه من فقه الشافعي بالرتبة العليا في القياس . فقلت له : ما حقيقة القياس وما معناه ؟
من أى شيء هو ؟ فقال (ليس على هذا وإنما على إقامة الدليل على صحته) .

« فقل الآن في رجل يروم إقامة الدليل على صحة شيء لا يعرف معناه ولا يدرى ما هو
ونعوذ بالله من سوء الاختيار ! » .

وللقارئ أن يتأمل هذه الجملة فسيراهما جيدة المعنى نقية الأسلوب ، وسيرى كيف وصل
الكاتب الى ما يرمى اليه من التهمك اللادع بالفقهاء والمحدثين من غير أن يلجأ الى غرابة المعاني

(١) راجع ص ٤١٤ و ٤١٩ — من رسائل البديع . (٢) الذي في رسائل بديع الزمان أن هذه
الرسالة جاءت جوابا عن كتاب ورد اليه من ابن فارس في ذم الزمان . وفي نهاية الأرب ج ٧ ص ٢٦٢ أن بديع
الزمان ذكر في مجلس ابن فارس فقال ما معناه : إن البديع قد نسي حتى تعليمنا إياه وعقنا وشنع بأنّه عنا فالحمد لله على
فساد الزمان وتغير نوع الانسان ! فبلغ ذلك البديع فكتب الى ابن فارس ذلك الكتاب .

وجلجلة الألفاظ . وفي هذه الجملة أيضا دلالة على أن غفلة الفقهاء عن اللغة العربية قديمة العهد وليست من سيئات العصر الحديث .

٦ — أما شعرا بن فارس فهو على قلته يكاد يقف عند شكوى الزمان . من ذلك قوله — وقد قل ماله ، وكثر دينه ، ولم يغنه علمه — :

سقى همدان الغيث لست بقائل سوى ذا وفي الأحشاء نار تضرم
وما لي لا أصفني الدعاء لبلادة أفدت بها نسيان ما كنت أعلم^(١)
نسيت الذي أحسنه غير أني مدين وما في جوف بيتي درهم

وقوله في كثرة همومه وتعزیه بالهرة والكتاب والمصباح اذا أوى الى بيته المقفر الجديب :

وقالوا كيف حالك ؟ قلت خير تقضى حاجة وتفوت حاج^(٢)
نديمى هرتى وأنيس نفسى دفاتر لى ومعشوقى السراج

وقد يستظرف دفاعه عن البخل والحرص إذ يذكر أن المال المضمون به يستخر الحمقى

لخدمة صاحبه : فقد يكرم الرجل لغناه قبل أن يكرم لفضله . وفي هذا المعنى يقول :

يا ليت لى ألف دينار موجهة وأن حظى منها فلس إفلاس^(٣)
قالوا فما لك منها قلت تخدمنى لها ومن أجلها الحمقى من الناس

وقد يستجاد قوله فى التغاضى عن هفوات الصديق :

عتبت عليه حين ساء صنيعه وآليت لا أمسيت طوع يديه^(٤)
فلما خبرت الناس خبر مجرب ولم أر خيرا منه عدت اليه

ومن ظريف الاشارة الى ضعف حجج النحاة قوله فى فتور الجفون :

مرت بنا هيفاء مقدودة تركية تمنى لتركى^(٥)
ترزو بطرف فاتر فاتن أضعف من حجة نحوى

(١) ص ٢١٨ ج ٣ من القيمة . (٢) ص ٢١٩ ج ٢ (٣) ص ٢١٩ ج ٢

(٤) ص ٢٢٠ (٥) ص ٢٦٩

٧ — لابن فارس مؤلفات كثيرة لم يبق منها إلا القليل . والذي يعيننا هو (الصاحبي) الذي قدمه الى الصاحب بن عباد، وهو كتاب متوسط الحجم يقع في ٢٣٢ ص بالقطع الكبير طبعته المطبعة السلفية في سنة ١٩١٠ طبعاً جيداً نقلاً عن نسخة صحيحة بخط المرحوم الشيخ الشنيطي من مكتبته بدار الكتب المصرية وقد نقلها رحمه الله عن نسخة في إحدى مكاتب القسطنطينية قرئت على المؤلف في سنة ٣٨٢ هـ ، وعلى ظهرها بخطه ما يفيد إجازة القراءة والنسخ . قال المرحوم الشنيطي ” وكانت مقابلتي إياه صفحة صفحة : لا أبتدئ الصفحة إلا بعد مقابلة الصفحة التي كتبها قبلها فتمت كتابته ومقابلته في آن واحد والله الحمد“ .

أما قيمة الكتاب من الوجهة العلمية فستظهر حين نناقش ما فيه من مختلف الأبحاث .

٨ — يحار الباحث في تحديد حياة ابن فارس العقلية : ومرجع هذه الحيرة هو ظهور هذا الرجل بلونين مختلفين كل الاختلاف . أما سبب هذه الحيرة فهو إغفال المتقدمين تاريخ آثار هذا اللغوي الأديب فقد نعرف أنه راجع كتاب الصاحبي في سنة ٣٨٢ ولكننا لا نعرف في أي سنة من سنى حياته العلمية وضع رسالته في الرد على محمد بن سعيد الكاتب . والفرق بعيد جداً بين رسالته هذه وكتابه ذاك : فهو في ”الصاحبي“ رجل حذر حيوب يحسب مسaire العقل جريمة ، ويعتد التفكير من جملة الذنوب . ولكنه في رسالته الى ابن سعيد باحث مملوء بالغيرة والحمية لكل حق ولكل جديد .

نظرات ابن فارس في كتاب ”الصاحبي“ كلها جهود وكلها ذهول . وقد يصحوا أحياناً فيرمى بالقول السديد . وحسب القارئ في الدلالة على إغراق كتاب الصاحبي في «الرجعية» أن يعرف أن ابن فارس يفضل العروض على الفلسفة . ويقول في وصفه ”علم العروض الذي يربى بحسنه ودقته واستقامته على كل ما يتبجح به الناسون أنفسهم الى التي يقال لها الفلسفة“^(٢) .

ومن هذه العبارة أخذ الشيخ بخيت فيما نظن قوله في رينان ”ذلك الرجل الذي يدعى أنه فيلسوف“ .

وحقا إن الفلسفة لا تزيد عن أنها « التي يقال لها الفلسفة » وريانا لا يزيد عن أنه " الرجل الذي يدعى أنه فيلسوف " وسبحان من أغنانا عما ترك المبدعون في العلوم والفنون !!

وأغرب من هذا أن يستنكر ابن فارس أن يكون للفلاسفة مؤلفات في النحو والإعراب وأن يستبعد أن يكون لهم شعر جميل . ويقول في ذلك " وزعم ناس يتوقف عن قبول أخبارهم أن الذين يسمون الفلاسفة قد كان لهم إعراب ومؤلفات نحو " (١) ثم يقول " وهذا كلام لا يعرج على مثله . وإنما تشبه القوم آتفا بأهل الاسلام فأخذوا من كتب علمائنا وغيروا بعض ألفاظها ونسبوا ذلك الى قوم ذوى أسماء منكرة بتراجم بشعة لا يكاد لسان ذى دين ينطق بها . وآدعوا مع ذلك أن للقوم شعرا . وقد قرأناه فوجدناه قليل الماء نزر الحلاوة غير مستقيم الوزن " ثم يقول في وصف العروض " ومن عرف دقائقه وأسراره وخفياه علم أنه يربى على جميع ما يتبجح به هؤلاء الذين ينتحلون معرفة حقائق الأشياء من الأعداد والخطوط والنقط التي لا أعرف لها فائدة . غير أنها مع قلة فائدتها ترق الدين وتنتج كل ما نعوذ بالله منه " (٢)

وكذلك كان يرتاب أكثر المتقدمين في العلوم العقلية . ويرونها خطرا على العقائد : كما يفعل المتأخرون اليوم . وهذا كله هرب من البحث وإخلاق إلى الخمول . وإلا فكيف يبعد الناس عن دينهم كلما توغلوا في درس حقائق الأشياء ؟

٩ — ترك هذه الناحية من عقلية ابن فارس التي تمثل لنا رأيه ورأى أمثاله في فهم ما توحى به العقول . وانتقل الى الجانب المشرق من حياته العقلية فنراه يمثل لنا انقسام أهل ذلك العصر الى طائفتين تقتتلان . تدعو إحداهما الى الاكتفاء بما ترك المتقدمون من الآثار الأدبية . وتدعو أخراهما الى الابداع والتجديد في عالم الآداب . ويكفى أن يعرف الباحث أن من رجال ذلك العصر من أنكر اختيار الشعرا اكتفاء بديوان الحماسة ليرى أن (الرجعية)

كانت تفتك بأحلام أولئك الناس وأن الصراع بين القديم والجديد يكاد يتصل بالحياة الفكرية في جميع الأجيال .

وفي رسالة ابن فارس الى محمد بن سعيد صورة لهذه الخصومة العقلية التي شهدتها رجال القرن الرابع . فلنتركه يتكلم ولننظر كيف يدافع عن شعراء عصره المبدعين إذ يقول في خطابه الى ابن سعيد ” ألهمك الله الرشاد؛ وأصبحك السداد، وجنبك الخلاف، وحجب اليك الانصاف ! وسبب دعائي هذا لك إنكارك على أبي الحسن محمد بن علي العجلي تأليفه كتابا في الحماسة وإعظامك ذلك وإعله لو فعل حتى يصيب الغرض الذي يريد ، ويرد المنهل الذي يؤمه لاستدرك من جيد الشعر ونقيه، ومختاره ورقيه ، كثيرا مما فات الأول . فما ذا الانكار ولم الاعتراض؟ ومن ذا حظر على المتأخر مضادة المتقدم؟ ولم تأخذ بقول من قال ” ما ترك الأول للآخر شيئا “ وتدع قول الآخر ” كم ترك الأول للآخر “ وهل الدنيا إلا أزمان ولكل زمن منها رجال ؟ وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة إلا خطرات الأفهام ونتائج العقول ؟ ومن قصر الآداب على زمان معلوم ووقفها على وقت محدود؟ ولم لا ينظر الآخر مثل ما نظر الأول حتى يؤلف مثل تأليفه، ويجمع مثل جمعه، ويرى في كل ذلك مثل رأيه ؟

وما تقول لفقهاء زماننا اذا نزلت بهم من نوازل الأحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ؟

أو ما علمت أن لكل قلب خاطرا ولكل خاطر نتيجة ؟ ولم جاز أن يقال بعد أبي تمام مثل شعره ولم يحز أن يؤلف مثل تأليفه؟ ولم حجرت واسعا وحظرت مباحا وحرمت حلالا وسددت طريقا مسلوكا ؟ وهل (حبيب) الا واحد من المسلمين له ما لم وعليه ما عليهم ؟ ولم جاز أن يمارض الفقهاء في مؤلفاتهم ، وأهل النحر في مصنفاتهم ، وأرباب الصناعات في جميع صناعاتهم ، ولم يحز معارضة أبي تمام في كتاب شد عنه في الأبواب التي شرعها فيه ؟ أمر لا يدرك ولا يدري قدره !!

ولو أقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير، ولذهب أدب غزير، ولضلت أفهام
 ناقبة، ولكأت ألسن لسنة، ولما توشى أحد لخطابة ولا سلك شعبا من شعاب البلاغة
 ولجأت الأسماع كل مردّد مكر، وللفظت القلوب كل مرجع ممضغ . وحتام لا يسأم
 (لو كنت من مازن لم تستبح إيلي) والى متى "صفحنّا عن بني ذهل" — الى أن قال "وهلا
 حثثت على إثارة ما غيبته الدهور وتجديد ما أخلقته الأيام وتدوين ما نتجت خواطر هذا
 الدهر وأفكار هذا العصر؟ على أن ذلك لو رامه رائم لأتعبه ولو فعله لقرأت ما لم يحط عن
 درجة من قبله من جد يروعك، وهزل يروك، واستنباط يعجبك، ومزاح يلهيك" .^(١)

١٠ — تلك هي الناحية المشرقة من حياة ابن فارس العقلية وهي كما يرى القارئ تختلف
 عن سابقتها أشد الاختلاف . وقد ذكر صاحب اليتيمة جزءا كبيرا من هذه الرسالة فليرجع إليها من
 يطلب المزيد . ولكننا نرى من البر بالأدب أن نذكر نماذج من الشعر المحدث لعهد ابن فارس
 وكانت تضيق به نفوس الرجعيين اذا ذاك . وهو يستجيد قول يوسف بن حمويه المعروف
 بالمنادى وكان من أهل قروين :

جج مثلى زيارة الخمار	واقثنائى العّار شرب العّار
ووقارى اذا توقّر ذو الشيد	بجة وسط الندى ترك الوقار
ما أبالى اذا المدامة دامت	عذل ناه ولا شناعة جار
رب ليل كأنه فرع ليلى	ما به كوكب يلوّح لسارى
قد طويناه فوق خشف كحيل	أحور الطرف فأتى سحر ^(٢)

(١) ص ٢١٥ و ٢١٦ ج ٣ يتيمة .

(٢) وردت هذه الأبيات في ديوان أبي نواس مع اختلاف قليل ، وربما كانت مما أضيف الى شعر أبي نواس
 لاتصالها بفنه المعروف فى النزل والشراب ، وهى فى الديوان طويلة تصل الى خمسة عشر بيتا آخرها هذا البيت
 الحكيم :

فتى يفلح الفتى وهو إن را ح بسكر وان غدا فى نمار

ويستجيد قول أحمد بن بندار :

زارني في الدجى فتم عليه طيب أردانه لدى الرقباء
والثريا كأنها كف خود أبرزت من غلالة زرقاء

ويستجيد قول بعض رجال الموصل :

فديتك ما شبت عن كبرة وهذى سنى وهذا الحساب
ولكن هجرت فخل المشيب ولو قد وصلت لعاد الشباب

الى هنا وقف القارئ على شيء من حياة ابن فارس يقربه اليه بعض التقريب ان لم يمثله كل التمثيل . فلنأخذ في نقد آرائه في فقه اللغة العربية والكشف عما فيها من مظان الخطأ ومواقع الصواب .

٤ - نقد آراء ابنه فارس في فقه اللغة العربية

١ - الفقه العلم بالشيء والفهم له والفطنة . وغلب على علم الدين لشرفه . كما في القاموس المحيط . وفي أساس البلاغة (قال أعرابي لعيسى بن عمر شهدت عليك بالفقه : أى بالفهم والفطنة . وفي الحديث (من أراد الله به خيرا فليتعلم في الدين) وفقحت فلانا: كذا وأفقحته أياه فهمته ففقهه وتفقهه . وقال عمر بن الخطاب بن عبد الله كنت سيدا في الجاهلية وفقيا في الاسلام . قال الزمخشري وتقول فلان بين الفراة : في أبواب الفقه . وفحل فقيه عالم بذوات الضبع وذوات الحمل^(١) .

فالفقه كما ترى دقة الفهم ونفاذ البصيرة في التفريق بين حقائق الأشياء . وعبرة " فقه اللغة " لم يكده يتفق القدماء على إفرادها بمذلول خاص . وإنما نجد في تعابير الكتاب والمؤلفين على سبيل الاختيار لا على وجه التعيين . والتعالي يحدنا بأن كتابه (فقه اللغة) إنما سمي بهذا الاسم وفقا لاختيار الأمير الذي أهداه إليه فدل ذلك على أن المنحى الذى سلكه فى تأليفه لم يكن جريا على خطة آتفق عليها الباحثون فى ذلك الحين . فما هو المقصود من عبارة (فقه اللغة) فى العصر الحديث ؟ ذكر السنيور جويدي فى محاضراته الأولى بالجامعة المصرية (٧) أكتوبر سنة ١٩٢٦ أن كلمة (Philologie) تصعب ترجمتها بالعربية وأن لها فى اللغات الغربية معنى خاصا لا يتفق عليه أصحاب العلم والأدب . فمنهم من يرى هذا العلم مجرد درس قواعد الصرف والنحو وقد نصوص الآثار الأدبية . ومنهم من يذهب الى أنه ليس درس اللغة فقط ولكنه بحث عن الحياة العقلية من جميع وجوها . وإذا صح هذا فمن الممكن أن يدخل فى دائرة " الفيلولوجى " علم اللغة وفنونها المختلفة كتاريخ اللغة ومقابلة اللغات والنحو والصرف والعروض وعلوم البلاغة وعلم الأدب فى معناه الأوسع فيدخل تاريخ الآداب وتاريخ العلوم

(١) الضبع — بفتحين — شهوة الناقة الى الفعل .

من حيث تصنيف الكتب العلمية ، وتاريخ الفقه من حيث تدوينه في المجموعات والمجلات وتاريخ الأديان من حيث درس الكتب المقدسة وتأليف الكتب الدينية واللاهوتية ، وتاريخ الفلسفة من حيث تأليف كتب الحكمة وكتب الكلام . ولا سبيل الى معرفة كنه هذه الحياة العقلية إلا بدرس أحوال المركز الذي نشأت فيه تلك الآثار الأدبية “ .

ويترتب على هذا التعريف كما ذكر السنيور جويدى أن يصبح هذا العلم من أوسع العلوم دائرة وأن يصبح «الفيلولوج» مضطرا الى البحث عن أوائل الأدب حين يدرس درجة التمدن عند شعب من الشعوب ، والى تأمل العلاقات التي كانت بينه وبين غيره وما أثر فيه من الحوادث السياسية والتاريخية . ثم لا يكفى لمن يريد درس كتب المجوس الدينية مثلا أن يقف عند معرفة اللغات الايرانية بل عليه أن يطيل النظر في كل وجوه الحياة عند الفرس وما تأثر به هذا الدين مما اتصل به من العقائد والديانات .

هذا هو اتجاه السنيور جويدى الذى كان أستاذ فقه اللغة العربية بكلية الآداب . وهو كما يرى القارئ يجعل مهمة الباحث في هذا العلم شاقة عسيرة ويرد ما تميز واستقل من علوم اللغة الى علم واحد تنوء به عزائم الآحاد . وقد شعر الأستاذ نفسه بهذا فقرّر أنه لا يمكن للباحث أن يجيد إلا جزءا واحدا من ذلك العلم الكثير الأجزاء !

٢ — على أن من الحق أن نقرر أن كلمة “فقه اللغة” التي اختيرت لترجمة كتاب النعالي لم يرم بها قائلها من غير أن يكون لها في نفسه مدلول خاص : فقد وردت هذه الكلمة في فاتحة كتاب ابن فارس إذ قال “هذا الكتاب الصاحب في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها” وهو بالطبع كان يعرف ما ترمى اليه هذه التعابير . فلم يبق إلا أن يكون الباحثون في علوم اللغة العربية لذلك العهد قد فكروا في فن جديد غير ما عُرف من علوم البلاغة وما اصطُح عليه من مسائل النحو والصرف والاشتقاق . وهذا الفن الجديد الذى كاد ينفرد به رجال القرن الرابع والخامس لم يجد من يُعنى بتدوين أصوله ، وتحقيق فروعه ، حتى يستقل عن غيره بعض الاستقلال . وإنما ظل كما ابتدأ مسائل متفرقة ينقصها الترتيب والتفصيل

ويعوزها النقد والتمييز، وما الى ذلك من أنواع العناية بمختلف الفنون . وعندى ان أهم ما يؤخذ على المؤلفين فى فقه اللغة هو إهمال المصادر وإهمال التاريخ ولنضرب لذلك الأمثال :

جاء فى الفصل الثالث من الباب التاسع عشر من كتاب الثعالبي أن "الارتكاض" حركة الجنين "والنوس" حركة الغصن بالريح "والتدلّدل" حركة الشيء المتدلى - و"الترجرج": حركة الكفل السمين والقالونج الرقيق . و"النسيم" : حركة الريح فى لين وضعف . و"الذّماء": حركة القتيل . و"النودان" حركة اليهود فى مدارسهم . وكان يجب أن يذكر بجانب هذا التنوع ما يؤيده من الشعر الموثوق بصحته وأن يدلنا على العصر الذى استعملت فيه كلمة "النودان" مثلاً وأن يبين أعربية هى أم عبرية .

وجاء فى الفصل السابع عشر من الباب الرابع والعشرين أن الانسان إذا شرب فهو نشوان وإن دب فيه الشراب فهو ثمل . فإذا بلغ الحد الذى يوجب الحد فهو سكران . فاذا زاد امتلاء فهو سكران طافح . فاذا كان لا يتماسك ولا يتمالك فهو ملتخ . فاذا كان لا يعقل شيئاً من أمره ولا ينطق لسانه قيل سكران باتّ وسكران ما يبت . وكان من الواجب أن يذكر لنا الثعالبي شيئاً عن أصول هذه التعابير وأن يرينا متى وقعت كلمة (سكران طافح) وكيف وقعت : فى شعر أوفى نثر . وإذا كان مصدرها الشعر فن يدرينا لعل للوزن والقافية دخلاً فى صبغها بصبغة التأكيد . وكل ما عمله الثعالبي أن دلنا على أن كلمة (ملتخ) منقولة عن الأصمعى وأن (سكران باتّ وسكران ما يبت) كلاهما عن الكسائى ولم يتعنّض لأيهما الراجح وأيهما المرجوح .

وهذا المأخذ يجرى على جميع الأبواب التى روى فيها حصر الأوصاف والنعوت . فإن أكثر ما جرى عليه الثعالبي فى "فقه اللغة" وآبن سيده فى "المختص" وآبن الأجدابى فى "كفاية المتحفظ" لم يلحظ فيه اختلاف اللغات . وإنما كان الغرض منه جمع الأشباه والنظائر فى الصفات والأسماء .

٣ — قلت لك إن المتقدمين لم يفرّدوا هذا العلم بموضوع خاص ، والآن أشير إلى أن منهم من غلبت عليه صنعة الكتابة فكان من همه أن يزيد في مادة الإنشاء بجمع ما تبدّد من الألفاظ والتعابير، وكان منهم من غلب عليه النحو والتصريف فكان من همه أن يقيد ما أطلقه من حرموا صناعة الإعراب إذ وجدهم (لا يبينون ما أنقلبت فيه الألف عن الياء مما انقلبت الواو فيه عن الياء ولا يحذّون الموضع الذي انقلب الألف فيه عن الياء أكثر من انقلابها عن الواو مع عكس ذلك ولا يميزون مما يخرج على هيئة المقلوب ما هو منه مقلوب وما هو من ذلك لغتان . وذلك بكذب وجبذ . ويئس وأيس . ورأى وراء ... وكذلك لا ينبهون على ما يسمعون غير مهموز مما أصله الهمز على ما ينبغي أن يعتقد منه تخفيفا قياسيا وما يعتقد منه بدلا سماعيا ولا يفرقون بين القلب والإبدال ولا بين ما هو جمع يكسر عليه الواحد وبين ما هو اسم للجمع ^(١) .

وهذا الاتجاه يسير إلى ما رمى إليه ابن جنى في "الخصائص" وإن كان دونه .

فإن ابن جنى أراد أن يسمو على ما شغل به الكوفيون والبصريون وأن يعمل في أصول النحو ما عمله الذين سبقوه في أصول الفقه ^(٢) . وهذا وذلك سعى إلى غاية واحدة هي إنشاء فن جديد يجمع بين أسرار اللغة وأسرار الإعراب . ولا تزال الحاجة شديدة إلى فهم ما حاوله الثعالبي وابن جنى وابن سيده من دقائق هذا الفن العجيب ، والبحث عن المصادر الأولى التي مهدت لهم السبيل إلى التعمق في بعض الأبواب ، وتعقب الآثار الأدبية التي تعين على تصحيح ما وقعوا فيه من الأغلاط . وذلك يتطلب كثيرا من الجهود .

٤ — في كتاب ابن فارس طائفة من الأبحاث يتصل بعضها بأسرار اللغة ويرجع بعضها إلى مسائل عرضية كانت مما يشغل الناس إذ ذاك . من هذا كلامه عن الخط العربي وأول من كتب به وهو ينقل في سذاجة أن أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها آدم عليه السلام قبل موته بثلاثمائة سنة . كتبه في طين وطبخه فلما أصاب الأرض الغرق وجد

كل قوم كتابا فكتبوه فأصاب اسماعيل الكتاب العربي . ويرى كذلك أن الخط توقيف لظاهر قوله عز وجل : « إقرأ باسم ربك الذى خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » ويرى أنه ليس ببعيد أن يوقف الله آدم أو غيره من الأنبياء على كتاب ويقول « فأما أن يكون مخترع اخترعه من تلقاء نفسه فشىء لا تعلم صحته إلا من خبر صحيح ^(١) » .

ويبالغ فى إثبات أن لغة العرب توقيف لا اصطلاح . ويرى كما رأى فى زعمه ابن عباس أن الأسماء التى علمها الله آدم "هى هذه التى يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك" ويقول فى سذاجة "ولعل ظانا يظن أن اللغة التى دللنا على أنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة وفى زمان واحد وليس الأمر كذلك بل وقف الله عز وجل آدم عليه السلام على ما شاء أن يعلمه إياه مما احتاج إلى علمه فى زمانه وانتشر من ذلك ما شاء الله ثم علم بعد آدم من عرب الأنبياء صلوات الله عليهم نبيا نبيا ما شاء أن يعلمه حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . فأتاه الله جل وعز من ذلك ما لم يؤته أحدا قبله تماما على ما أحسنه من اللغة المتقدمة . ثم قر الأمر قراره فلا نعلم لغة من بعده حدثت ، فان تعمّل اليوم لذلك متعمّل وجد من نقاد العلم من ينفية ويرده "وهذا التوقيف هو عند ابن فارس منشأ اللغات . وإنه لخطأ مبين . وقد خطر له أن النحاة يقولون إن العرب فعلت كذا ولم تفعل كذا : من أنها لا تجمع بين ساكنين ولا تبدئ بساكن ولا تقف على متحرك وأنها تسمى الشخص الواحد بالأسماء الكثيرة وتجمع الأشياء الكثيرة تحت الاسم الواحد ، وهذا دليل على أن للعرب شيئا من الاختيار فى كيفية التعبير وهو يدفع ذلك بقوله . "إن العرب تفعل كذا بعد ما وطأناه من أن ذلك توقيف حتى ينتهى الأمر إلى الموقف الأول" ويحسن أن نذكر أن ابن فارس لم يبالغ فى تأييد هذا رأى إلا عند الكلام عن منشأ اللغات فقد انطلق عقله بعد ذلك وأدرك أن لاختلاف الاصطقاع والأقاليم تأثيرا فى تكوين اللغة وان لم يعط هذا الوجه حقه من البيان .

٥ - وقد عني ابن فارس وهو يتكلم عن الكتابة والقراءة والخط بمسألة تتعلق برسم المصحف وقراءته : فذكر بسنده أن عثمان أرسل إلى أبي بن كعب كنف شاة فيها "لم يتسن" و"فأمهل الكافرين" و"لا تبديل للخلق" فدعا بالدواة فمحا إحدى اللامين وكتب "لخلق الله" ومحا "فأمهل" وكتب "فمهل" وكتب لم "يتسنه" ألحق فيها هاء .

ونقل عن الفراء أنه قال (إتباع المصحف إذا وجدت له وجهها من كلام العرب وقراءة القرآن أحب إلى من خلافه) .

وأنه قال (وقد كان أبو عمرو بن العلاء يقرأ «إن هذين لساحران»^(١) ولست أجتري على ذلك وقرأ «فأصدق وأكون») فزاد واوا في الكتاب ولست أستحب ذلك) .

وكان على ابن فارس أن يكشف عن مغزى هذا التغيير في رسم المصحف وأن يبين إلى أى حد يقبل تصحيح النحاة لقراءات القرآن . ولكن يظهر أن رغبة الجماهير في الكف عن التعمق في درس ما يتصل بالدين حالت بينه وبين الإفصاح عما لمحاولات النحاة من الغرض البعيد . ونحن أيضا نكتفي بالإشارة إلى هذا البحث الخطير^(٢) .

٦ - المعروف أن العلوم العربية لم تنشأ الا في الاسلام : فالتحقيق وضع أبي الأسود الدؤلى . والعروض من وضع الخليل بن أحمد . والبلاغة من وضع عبد القاهر الجرجاني . الى آخر ما يهيجس به أدعياء التاريخ . وقد تنبه ابن فارس الى استبعاد هذه البداية للعلوم العربية فدكر أن علم العروض أقدم من عهد الخليل . قال : والدليل على صحة هذا وأن القوم قد تداولوا الإعراب أنا نستقرئ قصيدة الخطيئة التي أولها :

شافتك أظعان ليلى دون ناظرة بواكر

فنجده قوايها كلها عند التزم والإعراب تجيء مرفوعة ولولا علم الخطيئة بذلك لأشبهه أن يختلف اعراسها : لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقا من غير قصد لا يكاد يكون^(٣) .

(١) ص ١٠٩ و ١١٠
(٢) القرآن يجب أن يفرده نحو خاص ، وكذلك الأدب الجاهلي والأموي ، ولغات العالم كله تعرف بما يسمى "النحو التاريخي" ونحن في حاجة الى ذلك النحو لتوجيه بعض ما يبدو شاذا من تعابير القرآن .
(٣) ص ١٠ و ١١

وهنا يجب أن نشير إلى غلطة وقع فيها ابن فارس وهو يذكر أن علم العربية وعلم العروض كانا قبل الدؤلى والخليل . فقد نص على "أن هذين العلمين قد كانا قديما وأتت عليهما الأيام وقلا في أيدي الناس ثم جدّدهما هذان الإمامان" .

ومعنى هذا أن النحو الذى نعرفه علم مجدد لا مبتكر، وكذلك العروض . وهذا خطأ إن أردنا أن النحو والعروض كانا قديما على مثل هذا الوضع . والحق أنه يبعد أن لا يكون العرب فكروا فى ضبط لغتهم منذ العهود القديمة . ولكنه يبعد كذلك أن يكون ما عرفوه وتواضعوا عليه من الضوابط والقواعد مماثل لما عرف بعد الاسلام . لأن النحو الذى نعرفه هو نحو اللغة القرشية فكلمة "العرب" فى عبارة ابن فارس تحتاج الى تحديد .

٧ — ولا بن فارس رأى فى التعابير الأدبية فقد نقل لنا تعابير كثيرة ضاعت مغازيها من أذهان المتكلمين وبقيت خلوا من المدلول . وهو يرى أن كثيرا من الكلام ذهب بذهاب أهله وأن علماء اللغة يختلفون فى كثير مما قالته العرب فلا يكاد واحد منهم يخبر عن حقيقة ما خولف فيه بل يسلك طريق الاحتمال والامكان، وأنه لا يعرف أحد منهم حقيقة قول العرب فى الاغراء (كذبك كذا) وما جاء فى الحديث من قوله (كذب عليكم الحج) "وكذبك العسل" .

وقول القائل :

كذبت عليكم أو عِدوني وعلاوا بى الأرض والأقوام قردان موطبا

وقول الآخر :

كذب العقيق وماء شت بارد ان كنت سائلى غبوقا فاذهى

ونحن نعلم أن قوله (كذب) يبعد ظاهره عن باب الإغراء . وكذلك قولهم (عنك فى الأرض "عنك شيئا" وقول الأَفَوْه :

عنكمو فى الأرض إنا مذبح ورويدا يفضح الليل النهار

ومن ذلك قولهم "أحمد من سيد قتله قومه" أى "هل زاد ؟" .

وقال ابن ميادة :

وأعمد من قوم كفاهم أخوهمو صدام الأعادي حين قُلت نيوبها

قال الخليل وغيره "معناه هل زدنا على أن كفينا" قال ابن فارس فهذا من مشكل الكلام

الذي لم يفسر بعد . وقول أبي ذؤيب :

صخب الشوارب لا يزال كأنه عبد لآل أبي ربيعة مسبح

قال ابن فارس : فقوله "مسبح" لم يفسر حتى الآن تفسيراً شافياً .

ومن هذا الباب قولهم "ياعيد مالك" و "ياهي مالك" و "ياشئ مالك" ولم يفسروا قولهم

"صه" و "ويهك" و "إنيه" ولا قول القائل :

✽ بخائبك الحق يهتفون وحى حل ✽

ويقولون "خائبكما وخائبكم" . فأما الزجر والدعاء الذي لا يفهم موضعه فكثير كقولهم

"وحى" و "وحى هلا" و "وبعين ما أرينك" في موضع اعجل . و (هج) و (هجا) و "دع" و "دعا"

و "لعا" للعائر يدعون له وينشدون :

ومطية حملت ظهر مطية حرج تتي مل عثار بدعدع

ويروى عن النبي أنه قال "لا تقولوا دعدع ولا لعل . ولكن قولوا اللهم ارفع وانقع"

قال ابن فارس : فلولا أن للكلمتين معنى مفهوماً عند القوم ما كرهما النبي . وكقولهم

في الزجر "أنحر" و "أنحرى" و "دها" و (حلا) و (هاب) و "ارحبي" و "عد" و "عاج"

و "باعط" و "يعاط" وينشدون :

وما كان على الجئ ولا الهئ امتداحيكا

وكذلك "إجد" و "وأجدم" و "حدج" .

(١)
قال ابن فارس : لا نعلم أحداً فسر هذا .

تأمل أيها القارئ في هذه التعابير المجهولة وأذكر أنها لم تجهل إلا لأنها كانت متصلة بقبائل تناساها المحدثون . ولو كانت هذه التعابير متصلة في لغة قريش لبقيت معروفة المدلول . وهنا نشير الى أنه لا بد من وضع قاموس يراعى فيه جانب التاريخ . فان المعاجم العربية جمعت الألفاظ والتعابير من هنا وهناك من غير أن تعين ما عُرف في عصر ثم جهل وما استُعمل ثم تجاوزاه الاستعمال . وقد نجد من كتاب العصر الحاضر من يظن المعاجم صورة صادقة لما كان يذهب اليه العرب في طرائق التعبير وهو خطأ لو يعلمون شنيع !

٨ — وقد تنبه ابن فارس الى التعابير التي لا يمكن الوصول فيها الى تعيين المراد . والمشتبه الذي لا يقال فيه اليوم إلا بالتقريب والاحتمال وما هو بغريب اللفظ ولكن الوقوف على كنهه معتاص . وذكر من ذلك قولنا (الحين) و(الزمان) و(الدهر) و(الأوان) فانك لا تدري اذا قال الخالف « والله لا كلمته حيناً أو زماناً أو دهرًا » الى أى حد يتصل الإعراض وكذلك « بضع سنين » . مشتبه . قال ابن فارس وأكثر هذا مشكل لا يقصر بشيء منه على حد معلوم ومن هذا الباب على رأيه قولهم في الغنى والفقر وفي الشريف والكريم والثلثم اذا قال « هذا لأغنياء أهلى » أو « فقراءهم » أو « أشرفهم » أو « كرامهم » أو « لكاهم » وكذلك إن قال « امنعوه سفهاء قومي » لم يمكن تحديد السفه .

قال ابن فارس : ولقد شاهدت منذ زمان قريب قاضيا يريد حجرا على رجل مكتهل فقلت وما السبب في حجره عليه ؟ فقليل يزعم أنه يتصيد بالكلاب وأنه سفیه . فقرأ على القاضي قوله جل ثناؤه « وما علمتم من الجوارح مكلّين تعلمون بها علمكم الله . فكلوا مما أمسكن عليكم » . فأمسك القاضي عن الحجر على الكهل .

٩ — وقد أراد ابن فارس أن يثبت للغة العرب خصائص ليست لغيرها من سائر اللغات فزعم أنها انفردت بالبيان : لقوله جل ثناؤه « وإنه لتنزّل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » .

ثم أعقب هذا الشاهد الذى لا يقيم حجته بهذه العبارة « فإن قال قائل : فقد يقع البيان بغير اللسان العربى لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بين . قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده فهذا أخس مراتب البيان : لأن الأبكم قد يدل بإشارات وحركات له على أكثر مراده ثم لا يسمى متكلماً فضلاً عن أن يسمى بيناً أو بليغاً .

”وإن أردت أن سائر اللغات تبين إبانة اللغة العربية فهذا غلط : لأننا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد . ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة . وكذلك الأسد والفرس وغيرها من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذلك؟ وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب؟“^(١) .

وهذا كما يرى القارئ كلام أجوف لا طائل تحته وهو يدل على أن ابن فارس كان قليل العلم بما عُرف لعهد من آثار الفرس واليونان . وإلا فكيف جازله أن يظن أنه لاحظ لغير العرب فى البلاغة والبيان ! ثم ما هو الدليل على انفراد العرب بالإفصاح؟ لا شيء إلا أن للأسد نجمين ومائة اسم ، وللسيف نجمائة ، وللمية مائتين ، وما شاء الله كان ! وقد شاع هذا الغلط عادة قرون وكان من آثاره أن سأل الرشيد الأصبغى عن شعر لابن حزام العكلى ففسره فقال الرشيد :

يا أصبغى ! إن الغريب عندك لغير غريب ! فقال ”يا أمير المؤمنين ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسماً“ وكان من آثاره أيضاً أن أفرد الصاحب ابن عباد هذه المترادفات بكتاب !

ولقد جرى ذكر هذه (الثروة اللغوية) فى درس الدكتور طه حسين فأشار الى أن هذا غير طبيعى أو أنه على الأقل إسراف . وهو يرجح أن كثرة المترادفات الى هذا الحد ليست إلا أثراً من عبث الرواة ولعبهم بالجماهير . ويرى أنها ترجع الى السياحات العديدة التى كان

يرمى بها الرواة واللغويون الى جمع ما تفرق في أحشاء البادية من مختلف الصفات والأسماء ليعودوا الى الحواضر مثقلين بمادة المكاثرة والتعجيز ثم لا يتخزجون من أن يقولوا إن العرب تعرف للأسد خمسين ومائة اسم ولل سيف خمسمائة وللحبة مائتين .

فمن هم هؤلاء العرب أيها الناس ؟ أليسوا في أنفسكم كل من أفات الجزيرة العربية من شتيت القبائل وعديد الأحياء ؟ ولكن ألا تذكرون أننا حين نذكر لغة العرب لا نريد غير لغة قريش التي نزل بها القرآن ؟ أقستطيعون أن تثبتوا أن قريشا عرفت للحجر سبعين اسما وللكلب ما لا ندري كم تعدون من الأسماء ؟

١٠ — وقد غفل ابن فارس عن تأثير الاقليم في اللغة العربية فظن التعابير التي انفرد بها العرب — لما تأثر به أسماعهم وأبصارهم — فضلا تطول به لغتهم سائر اللغات . وكذلك يرى أنه لا يمكن لغير العربي أن يعبر عن قولهم (رحب العطن ، وغمر الرداء . ويخلق ويفرى . وهو ضيق المحجم . قلق الوضين . وهو ألوى بعيد المستمر . وهو شراب بأنقع . وهو جذيلها المحكك وعذيقها المرجب . وعى بالاسناف) .

ولو تأمل ابن فارس قليلا لعرف أن هذه التعابير ليست إلا تمثيلا لما يراه العرب في باديتهم من الحيوان والنبات والجما ، وأنه من المعقول أن يكون للهند والفرس والروم تعابير كهذه أخذت مما تقع عليه أبصارهم من أنواع الموجودات ولا يستطيع العرب أن يسبقوها لأنها وقعت على غير ما يألون .

٥ - النقر الردي عن ابنه شهيد

سر البيان — خصومة ابن شهيد وحقه على المعلنين في قرطبة — مذهب الجاحظ في تعليم البيان — كيف تكون ملاحاة النحو وفصاحة الغريب — الأنساب والقربات بين الحروف — ربط القوافي والأوزان بالمعان — كيف كان الشعر ينفع المجتدين عند البقالين والنصايين — هل في مقدور كل بلغ أن يصل الى كل غرض — البلاغة سيارة نفسية من المتكلم للخاص — أثر الطبع في البلاغة — هل لجمال الأعضاء دخل في جمال النفوس ؟ — وهل كان الجاحظ لدمامته من أهل الغلة والحق ؟ — كيف نزن أقدار الرجال ؟

١ - أشرنا عند الكلام على رسالة "التوابع والزوابع" (١) الى ما كان يراه ابن شهيد من أن البيان نفحة سماوية ولا صلة له بالنحو والتصريف ومعرفة الغريب، فلنذكر الآن أن هذا الرأي كان من المسائل التي شغل بها ابن شهيد وأخذ يبدئ فيها ويعيد كلما تكلم عن النقد والبيان . ومن الخير أن ننص هنا على أن ابن شهيد لم يكن في درس هذه المسألة مخلصا كل الإخلاص، فقد تبين لنا بعد مراجعة ما كتبه في ظروف مختلفة أنه كان حريصا على تحقير جماعة من اللغويين والنحويين الذين عاصروه في الأندلس وناصبوه الخصومة والعداء . وقد اجتهد في أن يخفي علينا تعامله على رجال النحو والتصريف والغريب ويصنع أحكامه بصيغة التعميم، ويبعد عن أذهاننا ما يريد من التخصيص، ولكنه غلب على أمره فصيح بشكواه من قلة إنصاف النحويين له وتسليطهم عليه وإسرافهم في ثلبه . فانفهم هذا جيدا قبل عرض آرائه لنذكر أن أقواله مشربة بالضعف والحق وأنها لا ينبغي أن نتخذها أساسا صالحا لتقدير العلوم العربية من نحو وصرف وأشتقاق: لأن تلك العلوم ضرورية، وليس من النفع أن نوافق ابن شهيد على الاستهانة بها وتحقير أهلها، وإن كنا نعرف أنها لا تكفي وحدها لمنح طلاب الأدب ملكة البيان .

(١) راجع تحليل رسالة التوابع والزوابع في باب « الأخبار والأفايص » من الجزء الأول .

٢ — يتحدثنا ابن شهيد أن قوما من المعلمين في قرطبة ممن أتوا على أجزاء من النحو وحفظ كلمات من اللغة ينحتون عن قلوب غليظة كقلوب البعران، إلى فطن حئة، وأذهان صلبة، لا منفذ لها في شعاع الرقة، ولا مدب لها في نور البيان، سقطت اليهم كتب في البديع والنقد فهموا منها ما يفهم القرد الإيمان من الرقص على الايقاع والزمير على الألحان، فهم يصرفون غرائبها تصريف من لم يرزق آلة الفهم، ولم يكن له آلة الصناعة، كالجمار الذي لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور لتدوير رؤسغه واستدارة حافره، وأنه لو جاز لجمار أن يغني :

ما بال أنجم هذا الليل حائرة أضلت القصد أم ليست على فلك

لما جاز أن يوقع بالضراب على الأوتار، ويرنخى الوتر في مجرى السبابة والبنصر فيلبل بنشيدته، ويولول في ضربه، وكذلك حال المتعلمين في قرطبة على رأى ابن شهيد^(١).

٣ — وفي موطن آخر نراه ينأى بالمعلمين ويصفهم بأوصاف منكرة ثم يقول :

”وما علم من خلق هذه العصابة إذا محتنا أبصارهم قابلونا بالملق، وهم منطوون على الحسد والحنق، فإذا جمعنا المحافل، وضممتنا المجالس، تراهم الينا مبصبين، وعن الأخذ في شيء من تلك المعاني واقفين، وإنما يتبين تقصير المقصر، وفضل السابق المبرز، إذا اصطكت الركب وازدحمت الحدق، واستعجل المقال ... الخ“^(٢).

٤ — ولا يكتفى ابن شهيد بمثل تلك الحملات في تحقير المعلمين، بل يضيف قول

الجاحظ :

”إنا إذا اكرتينا من يعلم صبياننا النحو والغريب قنع منا بعشرين درهما في الشهر، ولو اكرتينا من يعلمهم البيان لما قنع منا إلا بألف درهم“ وقد أمكنت هذه الكلمة ابن شهيد من إعلان رأيه في كتاب البيان والتبيين الذي ألفه الجاحظ وهو في رأيه كتاب لم يكشف فيه عن وجه التعليم وصور كيفية التدريج“ ليرى القارئ كيف يكون وضع الكلام وتنزيل البيان،

وكيف يكون اتوصل الى حسن الابتداء وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء . ومن رأى ابن شهيد أن الجاحظ " استمسك بفائده ، وضمن بما عنده غيرة على العلم ، وشحا بثرة الفهم " لأنه عرف ، « أن النفع كثير والشاكر قليل » ولذلك كان كتابه في البيان موقوفا على أهله ومن كرع في حوضه ، أما الجاحل والمبتدئ فلا نفع له من كتابه على الاطلاق .

٥ — ونحن لانوافق ابن شهيد على ما رآه في كتاب البيان ، ونفهم أن الجاحظ لم يخف شيئا عن عمد ، وإنما نفترض أن تلك كانت طريقة الجاحظ في التأليف : فهو ينتقل من فن الى فن ، ومن كلام الى كلام ، جريا على طريقته في تسطير كل ما يمر بخاطره من ألوان الأدب والعلوم لأيسر المناسبات . وما نكاد نتصور أن التعليم كان من مبتغيات الجاحظ حتى يهتم بالترتيب والتبويب ، وإنما نتمشله رجلا يكتب لنفسه قبل كل شيء ، ويرضى شهوته في تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتاب الموسوعات من القدماء الذين كانوا يخشون على العلم من الضياع ويكفهم أن يدونوا ما يسمعون أو ينقل اليهم من مختلف الأقوال والآراء والشواهد والأمثال .

٦ — وليس إنحاء ابن شهيد على النحو والغريب معناه أنه ينكر قيمة ذلك في البيان ، كلا ، وإنما يحتم أن يختار الكاتب ألمح النحو وأفصح الغريب . وملاحظة النحو هذه لم أرها عند أحد غير ابن شهيد ، وهو يريد بها اختيار الوضع النحوي الذي يساعد على أداء المعنى ، فقد يكون الكلام مستقيا من الوجهة النحوية ولا يكون مستقيا من الوجهة البيانية ، فان البلاغة في الواقع تبني على سلامة التركيب .

والتركيب السليم لا يراد به التركيب الخالي من الغلط حين يراد وزنه بالموازن النحوية ، وإنما هو التركيب الذي يستوفي الدقائق المعنوية التي يهتم بتقييدها علماء المعاني . أما فصاحة الغريب فهي عند ابن شهيد وضع اللفظة الغريبة في موضعها بحيث لو وضعت مكانها كلمة مألوفة لتطرق الى المعنى شيء من الإخلال . ولننظر كيف يقص علينا ابن شهيد بعض ما كان يقع له مع تلاميذه في هذا الباب :

« جلس إلى يوسف الاسرائيلي وكان أفهم تلميذ مرة بي وأنا أوصي رجلا عزيزا على من أهل قرطبة وأقول له : ان للحروف أنسابا وقرابات تبدو في الكلام . فاذا جاور النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة وحسنت الصحبة ، وإذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر ، وطابت المخابر ، أفهمت ؟ قال :

إي والله ! قلت له : وللعربية إذا طلبت ، وللفصاحة إذا التمت ، قوانين من الكلام من طلب بها أدرك ، ومن نكب عنها قصر ، أفهمت ؟ قال : نعم . قلت : وكما تختار مليح اللفظ ورشيق الكلام فكذلك يجب أن تختار مليح النحو وفصيح الغريب وتهرب من قبيحه . قال : أجل . قلت أفهم شيئا من عيون كلام القائل :

لعمرك إني يوم بانوا فلم أمت خفاتا على آثارهم لصبور
غداة التقينا إذ رميت بنظرة ونحن على متن الطريق نسير
ففاضت دموع العين حتى كأنها لناظرها غصن يراح مطير

فقال : إي والله ! وقعت (خفاتا) موقعا لذيذا ، ووضعت (رميت) و (متن الطريق) موضعا مليحا ، وسرى (غصن يراح مطير) مسرى لطيفا . فقلت له : أرجو أنك تنسيت شيئا من نسيم الفهم فأغد على بشيء تصنعه .

قال ابن شهيد : « وكان ذلك اليهودي ساكنا يعي ما أقول فغدا ذلك القرطبي فأنشدني :

حلفت برب مكة والجبال لقد وزنت كروبي بالجبال

في أبيات تشبه وجاء اليهودي فأنشدني :

أيهم ركبأنهم منعجا وقد ضمنوا قلبك الهودجا

وآستمز إلى آخر القصيدة فأتي بكل حسن ، فقال لي ذلك القرطبي : شعر اليهودي أحسن من شعري ! قلت ولا بأس بفهمك إذ عرفت هذا . ولم يزل يتدرب باختلافه إلى حتى ندى ثربه ، وطلع عشبه ، ثم تفتح زهره ، وضاع عقبه . ورآني أستعمل وحشى الكلام

في موضعه ولم يشعر بحسن الموضع فاستعمل شيئاً منه وعرضه على . فقلت : استره ! فقال : تبخل على به ! وعرضه على ابن الإفلح فقال له : تنكب هذا الكلام . فقال له : إن أبا عامر يستعمله ! قال : يضعه في موضعه وهو أدرب منك ^(١) .

وهذا كلام جيد ، وأجوده مانص فيه على أن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلام ، فإذا جاور النسيب النسب ومازج القريب القريب طابت الألفة وحسنت الصحبة . وهذه الفكرة الدقيقة ليست من مبتكرات ابن شهيد فقد رأيناها قبله منسوبة إلى ابن العميد حين حدثنا صاحب في مقدمة كتابه عن مساوى المتنبي أنه لم يحسد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه أبو الفضل بن العميد « فانه يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ولا يرضى بهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن ^(٢) » .

وبذلك تكون كلمة ابن العميد أسبق وأشمل من كلمة ابن شهيد ، لأن ابن العميد يربط القوافي والأوزان بالمعاني ، فليس كل وزن بصالح لكل معنى ، لأن بعض القوافي والأوزان أرق أو أضخم من بعض ، كما أن بعض الألفاظ والمعاني ألطف أو أجزل من بعض ، وفطنة الشاعر والكاظم هي التي تؤلف بين المعنى وبين لبوسه من ألفاظ وحروف وقواف وأوزان .

٧ - ويرى ابن شهيد أن البلاغة تختلف باختلاف أقدار المخاطبين ، ومعنى هذا أن البلاغة صلة نفسية بين المتكلم والمخاطب ، فهي ترجع إلى فهم المتكلمين لنفوس المخاطبين ، وعلى ذلك لا يكون أساس بلاغة الكلام صلاحيته لأن يلقي إلى جميع الناس في جميع الأحوال ، وإنما بلاغة الكلام أن يبلغ بصاحبه إلى الغرض الذي يرمى إليه عند الخطاب . ويقول في ذلك :

«وربما لا بد بنا المستطعم بأسم الشعر من يخطط العامة والخاصة بسؤاله فيصادف منا حالة لا تتسع في كبير مبرة فنشاركه ونعتذر له ، وربما أفدناه بأبيات يتعمد بها البقالين ومشايخ القصايين ، فإذا قارفت أسماعهم ، ومازجت أفهامهم ، در حلبهم ، وانحلت عقدهم ، وجل شخص

(١) ص ١١٨ و ١١٩ من الأخيرة . (٢) مقدمة كشف مساوى المتنبي .

(٣) الخبط : السؤال ، من خبط الشجرة شذها ثم نقض ورقها لتسقط منها الثمرة .

ذلك البأس في عيونهم : فما شئت إذ ذاك من خبرة وثيرة يحشى بها كفه ، ورقبة سمينة تدفن في مخلاته ، ومن كوز فقاع يصب في فمه ، وتينة رطبة يسد بها حلقه ، وسنو سمكة ودكة تدس تحت لسانه ، فالوذجة رطبة يحنك بها حنكه ، فلا يكاد البأس يستم ذلك حتى يأتينا فيكب على أيدينا يقبلها ، وأطرافنا يمسحها ، راغبا في أن نكشف له السر الذي حرك العامة فبذلت ما عندها له وبادرت برفدها إليه ^(١) .

وتلك قصة نعرف منها كيف كان الشعر الفصيح ينفع من يستجدون البقالين والقصايين في الأندلس ، وكيف كانت تلين اللغة لمثل ابن شهيد حتى يخاطب بها في بلاغة جميع الطبقات . والمهم أن نعرف رأى صاحبنا أبي عامر حين طُلب منه كشف السر الذي حرك العامة بفادت بعد بخل ، وهشت بعد جمود ، وهو يقول في الجواب :

”وتعليمه ذلك النحو من أنحاء الشحذ لا نستطيعه : لأن هذا الذي يريد منا تعليمه هو البيان وبين فكره وبينه حجاب . ولكل ضرب من الناس ضرب من الكلام ووجه من البيان“ ^(٢) .

٨ - وأبن شهيد يرى أنه ليس في مقدور كل بليغ أن يصل الى كل غرض : فهناك ناس بخلاء من الكبراء يعسر تحريكهم إلى البذل بحيث لا ينجح فيهم تقريظ ، وإذ ذاك ”يحتاج الى أنقب ما يكون من الذهن وأوسع ما يكون من الحيلة . إلا أن هذه العصابة لا يمكن لذي النباهة تحريكها ولا بد لها من طبقة يكون لها في العين بعض التصويب والتصعيد ، ولهذا صار سب الاشراف عسيرا عويضا فانك تجدهم يتدحرج عنهم قبيح المقال ، ولا يضعفهم خبيث الكلام ، لقوة بنيانهم وثبات أركانهم ، فهدم بنيان هؤلاء صعب“ ^(٣) .

وهذا الذي يقوله ابن شهيد يحتاج إلى تحديد : فن الحق أن هناك مواطن يحار فيها البليغ وقد تبدو البلاغة في بعض الأحيان لونا من اللغو والفضول ، لعجز الكاتب والشاعر والخطيب عن غزو بعض النفوس ، ولكن في تلك المواطن وحدها يُحتاج الى بيان الكتاب والخطباء

والشعراء، وبمقدار فهم البليغ لما تعقد واستبهم من بعض الأهواء والميول يكون نجاحه في درك ما يتعسر على سواد المنشئين، لأن لكل شخصية مهما مكر صاحبها وخبت ولؤم جوانب من الضعف ينفذ إليها القول حين يتصل المنشئ بأسرار من يخاطبهم من أهل الشح والكنود، وسر البلاغة لا يظهر إلا في المواطن التي تبدو مفروغا من الكلام فيها، وميئوسا من فائدة العود إلى شرحها وتفصيلها، فإن المنشئ لا يعجز إلا حيث يكون الحق جوق بداهة وظهور بحيث يظهر كل بيان وكأنه حديث مررد معاد، عند ذلك يعرف البليغ الموفق كيف يحول المسائل الظاهرة إلى مشاكل عقلية وروحية واجتماعية، فينقل قلوب الجاحدين وعقولهم إلى جواء من البحث والتفكير ويقفهم موقف الحيرة والتردد بين الخير والشر والبر والعقوق. فليس البليغ هو من يأتي فقط بالبدع الطريف، ولكن البليغ هو من يحول الموضوعات العادية إلى شئون جديدة طريفة تتخلل فيها عزائم أهل الشح أو تنهض ضمائر أهل الجمود. وليس من الصحيح أن هناك ناسا يصعب هدم بنيانهم، ولكن الصحيح أن هناك ناسا لا يهدمون لأنهم يهاجمون بمحاول محطمة من الهجو القبيح.

والبليغ يستطيع أن يصل دائما من طريق علم النفس إلى مكان الضعف من نفوس الأقوياء الذين يتوقون أمام دعوات الخير والبر والاحسان، ففى كل نفس مهما لؤمت جوانب خيرة غافية يقدر على إيقاظها البارعون من أهل البيان.

وجملة القول في هذا المعنى أن البلاغة ضرب من السياسة النفسية، ومن الساسة من تكون نظراتهم أشد خطرا على أعدائهم من الجيوش والأساطيل، وكذلك البليغ يكون في أحيان كثيرة شرا مستطيرا على المعاندين من يخاطبهم أو يرسلهم أو يحاورهم في جد أو في هزل، من قرب أو من بعد، لأن البلاغة ليست إلا نقل ما في الروح من حب أو حقد، أو عتب، أو ملام، وصب ذلك كله في رفق أو عنف في أفئدة من تخاطب أو تكاتب من عدو أو صديق. وذلك يفرض أن تفيض عنا البلاغة ونحن في أعلى درجة من درجات التيقظ والقوة، وفي أسنى أوج من الغضب أو الحنان، بحيث تكون أنفاسنا شواظا يتلظى حين نهجم

ونفتك ، ونسيا يتأرجح حين نحنو ونعطف . أما وضع الكلام في ذهول ومن غير درس
لأنفس المخاطبين فهو العي الذي استعاذ منه الخطباء ، والإخام الذي تهيب عواقبه الشعراء .
ومن الناس من يظن أن البلاغة ليست إلا سواد المداد في بياض القراطيس !

٩ — على أن ابن شهيد لم يفتنه أن يقرر أن سر البلاغة يرجع الى الطبع قبل أن يرجع
الى استيفاء مسائل النحو وحفظ كثير الغريب . وعنده أن البلغاء يتفاوتون بقدر ما يتفاوت
تركيب أنفسهم مع أجسامهم :

” فمن كانت نفسه مستولية على جسمه كان مطبوعا روحانيا يطبع صور الكلام والمعاني
في أجمال هيئاتها وأروق لباسها . ومن كان جسمه مستوليا على نفسه من أصل تركيبه كان
ما يطلع من الصور ناقصا عن الدرجة الأولى في التمام والكمال وحسن الرونق .

” فمن كانت نفسه هي المستولية على جسمه فقد تأتى منه في حسن نظام صور رائعة تملأ
القلوب وتتعش النفوس ، فاذا قششت لحسنها أصلا لم تجده ، ولجمال تركيبها وجهها لم تعرفه ،
وهذا هو الغريب أن يتركب الحسن من غير الحسن ، كقول امرئ القيس :

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالى

فهذه الديباجة إذا تطابت لها أصلا من غريب معنى لم تجده ، ولكن لها من التعلق
بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى^(١) .

وهذا الكلام يمثل جانبا من جوانب البلاغة عند ابن شهيد ، وهو جانب الطبع . ومعنى
ذلك أنه قد يتفق لنا أن نهجب بفكرة من النثر ، أو بيت من الشعر ، بدون أن يكون لما
أعجبنا به معنى غريب ، وإنما سر إعجابنا يرجع الى ما طبع به الكلام من شرف الطبع وسمو
الروح . والجانب الثانى عند ابن شهيد هو المعنى ، أما اللفظ فهو عنده قالب ولبوس لا قوام
له بغير المعنى ، وهو لذلك يوصى الناقد بأن ” يفتش عن شرف المعانى ، وينظر مواقع البيان ،
ويحترس من حلاوة خدع اللفظ^(٢) ” .

ويقتر أن البليغ "إنما يستحق اسم الصناعة بتقحم بحور البيان، وتعمد كرائم المعاني" ولا يتم له ذلك إلا بأن "يمتطي الفصل ويركب الحد، ويطلب النادرة السائرة وينظم من الحكمة ما يبقى بعد موته"^(١).

وكل هذا جدير بالتأمل والدرس ففيه شرح لما استغلق على النقاد أزمانا كثيرة، ألسنا نرى في بعض الرسائل والخطب والقصائد نماذج فاتنة، وحى مع ذلك خلو من غرائب المعاني؟ فلنعرف الآن أن السر في إعجابنا بأمثال تلك النماذج مرجعه الى الطبع والروح. ونحن نستطيع تعليل ذلك بدرس من نعرف من الناس، فهناك أفراد غناؤهم قليل، ومحصولهم ضئيل، ومع ذلك تُفتن بهم أحيانا ونراهم أهلا للجب والإعجاب. وهذا هو سر ذبوع كثير من الآراء الخفيفة الوزن، القليلة العمق، فانها قد تصدر عن فطر سليمة، وطبائع شريفة، ينقصها العمق ولكنها غنية بالنبل والصفاء.

١٠ - ولا يقف ابن شهيد عند اشتراط شرف النفس، وكرم الطبع، بل يتعدى ذلك الى الصفات الجسمية: وهو يرى الأجسام من صور النفوس. يوضح ذلك قوله في المعلمين بقرطبة: "يدركون بالطبيعة ويقصرون بالآلة. وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة، من فساد الآلة الروحانية، والخادمة لآلات الفهم، الباعثة لرقيق الدم في الشريان الى القلب وزيادة غلظ أعصاب الدماغ ونقصانها عن المقدار الطبيعي، وما يعين على ذلك بالحس وطريق الفراسة من فساد الآلات الظاهرة كفمرطحة الرأس وتسفيطه، وتواء القمحودة^(٢)، والتواء الشدق، ونخر العين، وغلظ الأنف، وانزواء الأرنبة. فنستعيز بالله أن لا يشوه خلقه قلوبنا وجرم أكبادنا"^(٣).

وهذه الأحكام متصلة أوثق اتصال بعلم النفس وعلم منافع الأعضاء، فليس من شك في أن للجسم تأثيرا شديدا على الروح حتى في صورته. والصور المقبولة تبعث في أصحابها روح الثقة بالنفس. وليس من المجازفة في شيء أن نتخذ من ذلك تعليلا لهفوات العظام: فهم في الأكثر أصحاب أهواء وشهوات، وذلك مظهر من مظاهر الاتساق بين عافية البدن وشباب الروح.

(١) ص ١٥٦ (٢) القمحودة: عظم الرأس مما يميل الى القفا. (٣) ص ١٢٢

١١ - وابن شهيد وفي لمبدئه في ربط الصلة بين النفس والأعضاء، وقد حمّله ذلك على النيل من الجاحظ والغض من قيمته العلمية والأدبية، ورميه بالغفلة والحق . وقد خطأ أبا القاسم الأفليسي في تقديمه الجاحظ على سهل بن هارون . ومن رأى ابن شهيد أن حرمان الجاحظ من شرف المتزلة بشرف الصنعة مع تقدّم ابن الزيات وإبراهيم بن العباس إما أن يكون لأنه كان مقصرا في الكتابة وجميع أدواتها ، أو لأنه كان ساقط الهمة ، أو لأن إفراط بحوظ عينيه قعد به : لأنه لا بدّ لللك من كاتب مقبول الصورة تقع عليه عينه ، وأذن ذكية تسمع منه حسه ، وأنف ذكي لا تذمّ أنفاسه عند مقاربتة له . ولذلك استحسنوا من الكتّاب أن يكون طيب الرائحة ، سليم آلات الحواس ، نقي الثوب ، ولا يكون وسخ الضرس منقلب الشفة ، مكحل الأظفور ، وضر الطوق .

وقد شعر ابن شهيد بأنه من التجامل أن يرمى مثل الجاحظ بنقص في أدوات الكتابة فقال :

”ربما أنكر قولنا في شرطه جمع أدوات الكتابة قليل : وأى أداة نقصت الجاحظ ؟ فنقول : أول أدوات الكتابة العقل ، ولا يكون كاتب غير عاقل ، وقد نجد عالما غير عاقل ، وجدليا غير حصيف ، وفقيرا غير حلیم . وقد وجدنا من ينسب العقل الى سهل أكثر من ينسبه الى الجاحظ ، ولو شاهد الجاحظ سهلا يخادع الرشيد ملكا ويدبر له حريا ، ويعانى له إطفاء جمره فتنة ، نادضا في ذلك كله بعقله وتجربة علمه لرأى أن تلك السياسة غير تسطير المقال ، في صفة غراميل البغال ، وغير الكلام في الجردان ، وبنات وردان ، ولعلم أن بين العالم والكتّاب فرقا“^(١) وهذا الكلام يعطى لابن شهيد صورة غير مقبولة ، فالأدب والعلم عنده من وسائل العيش والخطوة لدى الملوك ، وبمقدار نجاح الكتّاب في دنياه يكون فضله . وهذا خطأ مبين .

قد تكون دمامة الجاحظ هي التي قعدت به كما قصّر ابن شهيد نفسه ثقل سمعه ، وكما تخلف صاحبه الأفليسي لورم أنفه . وإذا ذاك يكون للجاحظ عذره المقبول .

ولكن هل خطر ببال ابن شهيد أن هناك اختلافا بينا في تركيب النفوس ؟ إننا نعرف بالتجربة أن العقول شهوات ، فقد تكون السياسة أشهى ما يسمو اليه أمثال سهل بن هارون ولكن لا ريب في أن العلم أيضا شهوة ، وكان الجاحظ مفتونا أشد الفتنة بدرس علم الحيوان ، وكان كذلك مفتونا بدرس طبائع الناس وغرائزهم في مختلف الطبقات . فليس من العيب أن يهتم بالصغائر في العلوم لأن العلم في أصغر جزئياته لا ينال من العالم غير الإكبار والإجلال . إن من العدل أن نزن الأمور بميزان آخر غير النجاح المؤقت الذي يظفر به الكتاب السياسيون : يجب أن نزن أقدار الرجال بما يبذلون من الجهود في أعمالهم الأدبية والعلمية ، وإذا ذلك تمكن الموازنة بين ما عمل سهل بن هارون في ميدان السياسة وبين ما عمله الجاحظ في ميدان العلم ، أما الموازنة بين حظوظهما الدنيوية فباب من الضلال . ويا ويل أهل الفضل إن قيست أقدارهم بمقياس ما يملكون من دراهم معدودات !

٦ - أبو بكر الباقلاني^(١)

١ - لم يصل إلينا من آثار أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني إلا كتابه «إعجاز القرآن» وفي بقاء هذا الكتاب مع ضياع سائر ما وضعه المؤلف دلائل على أن معاصريه كانوا احتسبوا بنسخه ومدارسته فسلم بذلك من الضياع . ونحن وإن لم نر من مؤلفات الباقلاني غير كتابه في إعجاز القرآن فانا نستطيع الحكم بأنه خير كتبه : لأنه في موضوع خطير جدا كان يستوجب من مثله حماسة واستعدادا بالغين . فقد كان بعض الناس في عصره يرتابون في إعجاز القرآن وكان في ارتيابهم ما يسوقه إلى درس الإعجاز من جميع أطرافه ، ودفع الشبه التي كان يذيعها الملحدون في الحواضر الاسلامية . وإنه ليمثل لنا الأزمة العقلية التي أطبقت على معاصريه إذ يقول :

« ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه ، وأولى ما يلزم بحثه ، ما كان لأصل دينهم قواما ، ولقاعدة توحيدهم عمادا ونظاما ، وعلى صدق نبيهم برهانا ، ولمعجزته ثبوتا وحجة . لا سيما والجهل ممدود الرواق ، شديد النفاق ، مستول على الآفاق . والعلم الى عناء ودروس ، وعلى خفاء وطموس ، وأهله في جفوة الزمن البهيم ، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشتيم ، حتى صار ما يكابدونه قاطعا عن الواجب من سلوك مناهجه ، والأخذ في سبله . فالتناس بين رجلين : ذاهب عن الحق ذاهل عن الرشيد ، وآخر مصدود عن نصرته مكدود في صنعته ، فقد أدى ذلك الى خوض الملحدين في أصول الدين ، وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين . وقد قل

(١) ولد الباقلاني في البصرة ، وسكن بغداد ، وبها كانت وفاته يوم الأحد لسبع بقين من ذي القعدة سنة ٤٠٣ هـ . وكان من كبار أهل السنة . ورثاه بعض معاصريه بقوله :

أنظر الى جبل تمشى الرجال به وانظر الى القبر ما يحوى من الصلف

وانظر الى صارم الاسلام مقتبدا وانظر الى درة الاسلام في الصدف

والباقلاني : نسبة الى الباقل بتشديد اللام وقصر الألف . وفيها كلام تجده في وفیات الأعيان ج ٢ ص ٢٧٠

أنصاره، واشتغل عند أعوانه، وأسلمه أهله، فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه حتى عاد مثل الأمر الأول على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره : فمن قائل إنه سحر، وقائل يقول إنه شعر . وآخر يقول إنه أساطير الأقلين ... الخ^(١) .

وليس في هذه الفقرة شيء جديد فإن شكوى الزمان من الظواهر الإنسانية التي يجدها المطلع في أكثر ما اثر عن القدماء والمحدثين . ورجال الدين خاصة يكثر من التبرم بمعاصريهم ووصفهم بالزيف والاحاد والفسوق . فليس معنى هذا الكلام أن أهل القرن الرابع كانوا أكثر الناس شبهات وأضاليل ، ولكن معناه أنهم كانوا كذلك في نفس المؤلف ، وفي هذا ما يدفعه الى التأهب لمناضلة المرتابين في إعجاز القرآن .

٢ — ونحب في بداية هذا الفصل أن نحدد موقفنا في درس كتاب الباقلاني عن الإعجاز . ونقرر — في صراحة — أننا لا نريد عرض مسألة الإعجاز على بساط البحث من جديد . وانما يهمنا أن نتبين كيف كان القدماء يفهمون النقد وكيف كانت مذاهبهم في وزن الكلام البليغ . فكتاب الباقلان في نظرنا صورة للحياة الأدبية في أنفس الناقدين من رجال القرن الرابع . وليس حجة في تقدير القرآن . لأن وزنه أخف من أن يفصل في تلك المسألة الدقيقة : مسألة الكلام المعجز الذي يسمو بلاغته على ما يتطلع اليه فرسان الفصاحة والبيان . وهناك جانب آخر لا نذكر أن من الباحثين من أشار اليه : وهو جمع المحاولات الأدبية التي حاولها خصوم القرآن ، ففي تلك المحاولات صورة من صور النقد لها قيمة في أنفس من يعنون بتاريخ الآداب . ونحن كمؤرخين للأدب يهمنا أن نستقصى جهد الطاقة ما تناثر هنا وهناك من محاولات الناقدين بدون تفريق بين الخطأ والصواب . فان ذلك في جملة ما يمكننا من درس الحياة الأدبية دراسة علمية بعيدة عن مطارح الأوهام والظنون .

٣ — من ذلك ما حدثنا الباقلاني أنه نُقل اليه أن من خصوم القرآن من (جعل يعدله ببعض الأشعار ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ولا يرضى بذلك حتى يفضل عليه)^(٢) — ففى

هذا الخبر ظاهرة أدبية خطيرة ينبغي أن نقيدها أنها وقعت في القرن الرابع . ولو أن الباقلاني بين لنا كيف كانت تلك المعادلات والموازنات لاستطعنا أن نعرف الى أى حد كانت تلك المحاولات تتصل بتاريخ النقد الأدبي ، ولكن ما صنعه الباقلاني نفسه في نقد امرئ القيس والهجري يحدد لنا ذلك المنهج بعض التحديد : فقد عرض لأشهر قصيدة نسبت الى امرئ القيس وهي المعلقة فنقدتها بيتا بيتا بعد أن أشار الى أنه لا يرتاب في جودة شعر امرئ القيس ولا يشك في براعته وفصاحته وما أبدع في طرق الشعر من أمور أتبع فيها كذكر الديار والوقوف عليها وما يتصل بذلك من التشبيه الذي أحدثه والتلميح الذي يوجد في شعره والتصرف الكثير الذي يصادف في قوله والوجوه التي ينقسم اليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومثانة ورقة . ولم ينقد الباقلاني معلقة امرئ القيس إلا ليبين للقارئ أن تلك القصيدة ونظائرها تتفاوت في أبياتها تفاوتاً بينا في الجودة والرداءة والسلاسة والانعقاد والسلامة والانحلال والتمكن والتسهل والاسترسال والتوحش والاستكراه : فهي على ذلك كلام ينحت من الصخر تارة ويذوب تارة . ويتلون تلون الحرباء ، ويختلف اختلاف الأهواء ، ويكثر في تصرفه اضطرابه وتتقاذف به أسبابه . ومثل هذا الكلام لا يقارن بالقرآن الذي يصفه بأنه ” قول يجري في سبيله على نظام ، وفي وصفه على منهاج ، وفي وضعه على حد ، وفي صفاته على باب ، وفي بهجته ورواقه على طريق مختلفة مؤلفة ، ومؤلفة متحدة ، ومتباعدة متقاربة ، وشارده مطيع ، ومطيعه شارد ، وهو على متصرفاته واحد : لا يستصعب في حال ولا يتعقد في شأن “ .

٤ — ونتيجة هذا — من وجهة تاريخية — أن الباقلاني ومعاصريه رأوا أنه في الامكان أن يوازنوا بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن . وان لم يتحد الموضوع . وسبيل ذلك أن تبين محاسن القصيدة ومساوئها ويشرح فيها المبتذل والطريف والمقبول والمرذول ثم يقابل ما سلم فيها بالسورة التي توازيها في الكمية ليظهر ما في السورة من المحاسن التي لم يشنها ضعف ولا تهافت ولا فضول .

وهذا النحو من النقد يمتد من المحاولات البارة في الأدب العربي . ولا عيب فيه إلا التحامل والإسراف . فان خصوم القرآن كانوا يأبون إلا الوصول إلى شواهد يحكمون لها بالنخل . والباقلاني كان يعمد الى القصائد التي يعرف فيها الضعف ليصل دائماً الى الحكم للقرآن بالفضل . وقد بلغ به التحامل أن طعن في قول البحتري :

ما الحسن عندك ياسعاد بحسن فيما أناه ولا الجمال بجمال
وزعم أن أسلم منه وأبعد من الخلل قول كشاجم :

بجياة حسنك أحسنى وبحق من جعل الجمال عليك وقفا أجملي

مع أن الذي يفهم الشعر ويتذوقه يحكم بأن بيت كشاجم هذا لا يصح أن يقارن بيت البحتري إلا عند غُلف القلوب . وأغرب من هذا الشطط أن ترى الباقلاني يأخذ في نقد بيت البحتري فيقول :

قوله "عندك" حشو وليس بواقع ولا بديع وفيه كلفة . والمعنى الذي قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء : وفيه شيء آخر لأنه يذكر أن حسنهما لم يحسن في تهيج وجده وفي تهيم قلبه . وضد هذا المعنى هو الذي يميل اليه أهل الهوى والحب .

هـ - هذا كلام الباقلاني . وهو كلام سقيم يدل على أنه لم يفهم بيت البحتري على الإطلاق ! وعلى هذا النمط من التحامل أفسد الرجل تلك الطريقة الجميلة : موازنة قصيدة من الشعر بسورة من القرآن . وكيف تنتظر العدل من حكم يكتب صحيفة الاتهام على خواه ؟ إن الذي يوازن بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن يجب عليه أن يكون مستعداً للحكم بالعدل . وهذا لا يتيسر لنا قد يرى من همه أن يبحث عن مساوئ القصيدة ويطمس محاسنها أو يتجاهلها أو يغض من قيمتها . وهو في مقابل ذلك يبحث في البحث عن محاسن السورة القرآنية وإبراز مزاياها ولا يستبيح لنفسه التفكير في وضع ألفاظها أو معانيها أو أغراضها أو أسلوبها موضع النقد . وهذا كاف في تجريح ما هموا به قديماً من الموازنة بين أثريين : أحدهما من الشعر، وثانيهما من القرآن .

٦ — وتقع بعد ذلك مسألة شغل بها أكثر الباحثين في إعجاز القرآن .

وهي إعجاز غير القرآن من كلام الله كالطورا والإنجيل والصحف الربانية .

ويجب الباقلا أن لا شىء من ذلك بمعجز فى النظم والتأليف وان كان معجزا كالقرآن فيما يتضمن من الأخبار بالغيوب . ويضيف إلى ذلك أنه لم يكن معجزا لأن الله لم يصفه بما وصف به القرآن ولأنه لم يقع التحدى إليه كما وقع التحدى إلى القرآن^(١) .

ومعنى ذلك أن الباقلا يرى أن غير القرآن من كلام الله لم يكن معجزا لأن الله لم يصفه بذلك . وتكون النتيجة أن نسبة الكلام إلى الله لا تعطيه صفة الإعجاز إلا إذا وصف الله كلامه به وتحدى المعارضين إليه كما تحداهم إلى القرآن .

ونحن نسأل : لماذا لم يصف الله الطورا والإنجيل بالإعجاز ؟ ولماذا لم يمنح تلك الكتب المزية التى منحها القرآن ؟ ؟ .

وقد توقع الباقلا أن يوجه إليه هذا السؤال . وكذلك عرض لنا رأيا له قيمته فى فهم القدماء لخطر اللغة العربية ومقارنتها بما سبقها أو عاصرها من اللغات . وهو يرى أن اللغات التى كتبت بها الطورا والإنجيل لا يتأتى فيها من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذى^(١) ينتهى إلى حد الإعجاز . وإنما يقع فيها التقارب فى البيان .

فان سأل القارئ : أكان الباقلا يعرف من اللغات الأجنبية ما يمكنه من الحكم بأن اللغة العربية انفردت من بين سائر اللغات بالتفاضل فى وجوه الفصاحة ؟ فانا نجيب بالنفى .

وهو نفسه يحدثنا بأنه رأى أصحابه يذكرون هذا فى سائر الألسنة ويقولون : ليس يقع فيها^(١) من التفاوت ما يضمن التقديم العجيب .

٧ — وهنا يتطوع الباقلا بشرح أسرار تفوق اللغة العربية فيقول :

«ويمكن بيان ذلك بأننا لا نجد في القدر الذي نعرفه من الألسنة للشيء الواحد من الأسماء ما نعرفه من اللغة العربية وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعاني الكثيرة على نحو ما تناوله العربية^(١)» .

وهذا المعنى عرض له ابن فارس إذ قال :

«إنا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فبين هذا من ذلك وأين لساتر اللغات من السعة ما للغة العرب^(٢)» .
والفكرة في ذاتها سخيفة : لأن فضل اللغة العربية لا يرجع الى ما فيها من كثرة المترادفات إذ كانت هذه المترادفات من الثروات الضائعة التي لا يحتاج اليها الا عند اللغو والتطويل .
والقرآن نفسه الذي اتفقوا على سموه لم يعتمد على المترادفات في كثير ولا قليل وانما هو كلام طلق يجرى الى غاية في غير تعمل ولا اعتساف .

٨ - ومن غرائب المقارنات أن المسيو مرسيه استفاد من اجماع علمائنا القدماء على أن كثرة المترادفات من أهم خصائص اللغة العربية بقاء أخيراً وطعن لغتنا طعنة دامية في تقرير مطول قدمه الى وزير المعارف في باريس زعم فيه أن اللغة العربية لغة «مائعة» لا تعرف تحديد الألفاظ ولا الصفات^(٣) .

والمسيو مرسيه غير منصف في هذا الموضوع لأنه في تقريره اهتم بجمع المنات والعيوب وكان الظن به أن لا يتناسى أن المترادفات التي كان منها نحسبون اسماً للبحر ومائة للسيف ونحوها لا اسد ليست مترادفات جمعت من اللغة القرشية وهي أساس لغتنا العربية وانما هي كلمات «تصيدها» الرواة من مختلف أرجاء الجزيرة حبا في المبالغة والإغراب .

فمن يبلغ الباقلاني وابن فارس ان ما كان غرة في زمانهم أصبح في زماننا من أعراض الأمراض ؟

(١) ص ٣٤ (٢) اصاحي ص ١٢

(٣) كان دكتور في نريف سنة ١٩٣٠ وشغل التقرير في أحد مطبوعات وزارة المعارف الرسمية .

وذلك التحمل من جانب البلاغيات ساقه الى تقرير « أن الشعر لا يتأتى في تلك الألسنة على ما قد اتفق في العربية وإن كان قد يتفق فيها في صنف أو أصناف ضيقة لم يتفق فيها البديع ما يمكن ويتأتى في العربية وكذلك لا يتأتى في الفارسية جميع الوجوه التي تتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى في العربية » .

٩ — وهذه التهم التي كان يوجهها القدماء الى اللغات الأجنبية يقدمها الأجانب اليوم الى اللغة العربية : فلعنتنا في أذهان كثير من أهل الغرب والشرق لا يتأتى فيها الشعر على ما قد اتفق في الانجليزية والفرنسية والألمانية مثلا « وإن كان قد يتفق فيها في صنف أو أصناف ضيقة » فما أعجب ما تشابه التهم على اختلاف الأجيال ! .

على أن كلام البلاغيات له دلالة ومعناه : فهو صريح في اعتزاز القدماء باللغة العربية . وإنا لنجد عند الجاحظ أصلا لهذا القول . وهو يتحدثنا بأن الفرس والهند والروم كانت لهم خصائص لم يتفق مثلها للعرب وأن العرب في مقابل ذلك انفردوا بالفصاحة والبيان^(١) .

١٠ — وللقارئ أن يذكر أن هذا « الغرور القومي » كانت له مضار ومنافع ، فمن مضاره أنه صرف العرب عن نقل الشعر الفارسي واليوناني ظنا منهم أن في شعر امرئ القيس مثلا غنى عن شعر هوميروس . ومن منافعه أنه أغراهم بالاعتزاز بشعرهم ولغتهم حتى ظنوا أن الإعجاز لا يتأتى وقوعه في غير اللغة العربية التي حسبوها تفردت بالتصرف في الاستعارات والاشارات .

وقد يكون حظ القدماء أبجل من حظنا في هذا الباب . فعن اليوم نؤمن بأن اللغة العربية كسائر اللغات لا يتفق فيها الإعجاز لذاتها . وإنما يقع الإعجاز حيث تكون العبقرية في القلوب والعقول .

ونؤمن بأن في اللغات ضروبا من التصرف في القول قد لا يتفق مثلها أحيانا للغة العربية ولأننا لم ننقل من الشعر الأجنبي شيئا يقارب ما نقله أسلافنا من الفلسفة الأجنبية وانصرف

كثير من شباننا عن دراسة الشعر القديم فخرموا من تراث الأسلاف وكان لهم فيه معين من الفن لا ينضب ولا يفيض .

ووقف المجددون في الشعر موقف التردد والحيرة : فلا هم عرب ينسجون على منوال الفرزدق والبحتري والمتنبي ، ولا هم في طبعهم فرنجة يمجيدون محاكاة يرون وجوت ولا مرتين .

١١ — وقد جاء في كتاب « إعجاز القرآن » ما يفيد أن القرآن ليس من جنس كلام

العرب ؟

فما هي حجة الباقلاني ؟ حجته أن العرب لم يأتوا بمثله وأن منهم من خشع له بدون أن يدرك معناه . ومن أمثلة ذلك ان جماعة بعثوا بعتبة بن ربيعة الى الرسول — وكان عتبة حسن الحديث عجيب الشأن بليغ الكلام — فلما وصل الى الرسول طمعا في أن يأتي أصحابه بما عنده قرأ عليه النبي سورة (حم . السجدة) من أولها حتى انتهى الى قوله : (فان أعرضوا فقل أذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) . فوثب عتبة مخافة العذاب .

قال الباقلاني ” فاستحكوه ما سمع فذكر أنه لم يسمع منه كلمة واحدة ولا اهتدى لجوابه . ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج والرد . فقال له عثمان ابن مظعون ” لتعلموا أنه من عند الله إذ لم يهتد لجوابه “ .

ذلك ماقرره الباقلاني . وما نحسب أحدا يرتاب في أن هذا محض اختلاق : فانه لا يعقل أن يؤمن الرجل بما لا يفهم . ومن المرجح أن مثل هذه الأقاويل مما وضعه الرواة والقصاص .

ويقول الباقلاني في موطن آخر :

” قد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ لأن ذلك طبعهم ولعنتهم فلم يحتاجوا الى تجربة عند سماع القرآن ... وقال تعالى : (ولو جعلناه قرآنا أعجميا

لقالوا لولا فصلت آياته أ أعجمي وعربي))، فأخبر أنه لو كان أعجميا لكانوا يحتجون في رده إما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم أو كانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم أو بغير ذلك من الأمور وأنه إذا تحداهم إلى ما هو من لسانهم وشأنهم فمعجزوا عنه وجبت الحجة عليهم^(١) .

والقارئ يرى تناقضا بين هذه الفقرة وبين الفقرة التي نقلناها آنفا . وهذا التناقض وقع بين سياقين فصل بينهما بنحو ما أتت صفحة فللباقلا في عذره حين غاب عنه هنا ما أثبتته هناك . خلاصة الفقرة الأولى ان القرآن ليس من جنس كلام العرب لأنه اتفق لأحدهم أن خضع له بدون أن يستطيع حكاية لفظه أو معناه .

وخلاصة الفقرة الثانية ان القرآن من جنس كلام العرب . ولولا ذلك لاحتجوا في رده بأنه خارج عن عرف خطابهم، أو اعتذروا بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم .

١٢ — ونحب أن نفصل رأينا في هذه المسئلة ونحن نرى أن الفوارق بين اللغات تنحصر في الألفاظ والأساليب : فاللغة تكون غير عربية إذا كانت ألفاظها أو أساليبها أعجمية . وقد يتفق مثلا أن نفتح كتابا تركيا أو فارسيا فنرى إحدى صفحاته تغلب فيها الكلمات العربية أو تكون بعض الجمل في ألفاظ عربية ولكننا لا نفهم شيئا لأن الأسلوب غير عربي .

وقد تكون جملة وضعت في ألفاظ أعجمية ورتبت في وضعها على الأسلوب العربي . ولكننا لا نفهمها لأن ألفاظها غير عربية . ومن هنا يتضح أن العرب فهموا بلا جدال ألفاظ القرآن ومعانيه لأنه عربي اللفظ والأسلوب . ولا عبرة بما حكاه الباقلا في من أن بعض العرب عجز عن تأدية ما سمعه من آي القرآن . لأن هذا يخالف المعقول والمنقول ويتناقض ما من به القرآن على منكريه من أنه بلسان عربي مبين .

١٣ - بقی نوع آخر من وجوه التفاضل في الكلام وهو المعنى : ونحن نرى أن سر الفصاحة والبلاغة يرجع إلى ما في المعنى من قوة وروح . ومن المتفق عليه أنه لا يكفي أن يكون المعنى صحيحا ليكون الكلام بليغا . ألا ترى أنه لا يوجد أصدق من قول من قال :
كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

ولكن من الذي يقيم وزنا لصدق هذا الكلام ؟ إن هذا الصدق هو التفاهة بعينها . وقد رأى بعض النحاة أن البدييات لا تسمى كلاما . ومن رأى ذلك البعض أن من يقول " السماء فوقنا والأرض تحتنا " لم يقل شيئا ولا يضاف ما يلفظ به إلى الكلام المفيد .

وعلى هذا لا يكفي أن يكون الكلام صادقا ليكون بليغا . وإنما يجب أن يكون مع صدقه طريقا يستهوى العقل والقلب . ومن امثلة ذلك قول قريظ بن أنيف :

لو كنت من مازن لم تستبح إيلي	بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذنت لقام بنصرى معشر خشن	عند الحفيظة أن ذلولثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم	طاروا إليه زرافات ووحدا
لا يسألون أخاهم حين ينسدهم	في التائبات على ما قال برهانا
لكن قومي وإن كانوا ذوى عدد	ليسوا من الشرفى شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة	ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته	سواهم من جميع الناس إنسانا
فليت لي بهم قوما إذا ركبوا	شدوا الإغارة فرسانا وربانا

وهذه القطعة من بدائع الشعر العربى . وهى قطعة خالدة ستظل قوية بارعة ما بقى فى العالم ناس يفهمون سر العربية . ومع هذا لا تستطيع أن تجد فيها ألفاظا يعز على غير قائلها الوصول إليها ، أو أسلوبا فى التعبير يتميز عن غيره من الأساليب . وجمالها كله يرجع إلى دقة المعنى وطرافته وتخير الألفاظ تخيرا يجعلها تتمثل مع المعنى كلمة واحدة . فقولها مثلا :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدا

هذا البيت يمكن رجعه طرافته الى كلمة "أبدى ناجذيه" وكلمة "طاروا" وهاتان ليستا كلمتين وإنما هما المعنى تجسم في لفظين فرضهما السياق . وقوله :

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

فقوة هذا البيت ترجع الى قوله "وإن كانوا ذوي عدد" وقوله — "وإن هانا" وفيهما أيضا يتجسم المعنى في قوة وروح . وقد بلغ هذا الشاعر أقصى غايات التهم في قوله :
كأن ربك لم يخلق لخشيتيه سواهم ومن جميع الناس إنسانا

١٤ — وقد تجدد من الشعر ما تخلو معانيه وألفاظه من الروعة الظاهرة . ولكن قوة الروح تصل به الى أسنى غايات الابداع . ومثال ذلك قول حطان بن المعلى يشكو فقره وما وضع القدر في رجليه من قيود الأهل والذرية :

أنزلى الدهر على حكمه	من شاخ عال الى خفيض
وغالى الدهر بوفر الغنى	فليس لي مال سوى عرضي
أبكاني الدهر وياربما	أضحكني الدهر بما يرضي
لولا بنيات كزغب القطا	رُددن من بعض الى بعض
لكان لي مضطرب واسع	في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا	أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم	لا متنت عيني عن الغمض

وقوة هذا الشعر ترجع الى الشاعر لا الى اللفظ ولا الى الأسلوب : ومن ذلك يتضح أن من يزعمون أن القرآن ليس من جنس كلام العرب لم يفهموا شيئا من أسرار الإعجاز . ولذلك نراهم يدورون حول الظواهر والمحسنات اللفظية : فيقول بعضهم إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الأسجاع والأمثال فبهزم القرآن لأنه جاء على نمط غير الذي كانوا يعرفون من أنماط الأسجاع والأمثال . ويقول آخرون : إن العرب كانوا تارة يسجعون وتارة يترسلون فجاء القرآن بجمع بين السجع والترسل في نظام بديع . ويقول مؤلفو كتاب "المجمل" الذي قدرت الوزارة

تدريسه بالمدارس الثانوية : إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الشعر وفنونه وأوزانه وأغراضه بقاء القرآن ففاجأهم بلون من الأدب جديد^(١) .

١٥ — وهذا كما يرى القارئ يرجع الى الناحية اللفظية أو الفنية . ونحن نرى غير ذلك فنرى أن مجدا عليه السلام اجتذب العرب لأنه نبى ولم يحتذ بهم لأنه فنان . فالفن الكلامي لم يكن جديدا عند العرب وإنما كان الجديد عندهم أن يأتيهم رجل منهم بأساليب من الفكر والعقل والوجدان غير التي كانوا يألفون . ولو رجعنا الى حزب المعارضة لعهد الرسول لرأيناه لا ينكر إلا ما جاء به القرآن من معان وأغراض . ولم يتعزز مطلقا بما جاء به من ألفاظ وأساليب . فالمعركة كانت تدور رحاها حول ما في القرآن من الدعوة الى توحيد الله عز شأنه وإفراجه بالقدرة والجبروت . ولو تأملنا قليلا لرأينا أن الذي يروعنا من الشاعر الواحد هو ما تنفرد به بعض قصائده أو أبياته من دقة المعنى أو طرافة الخيال .

ومن هنا صح للنقاد القدماء أن يقولوا عن بعض الشعراء :
”لو قال هذا وسكت لكان أشعر الناس“ .

وصح لهم أيضا أن يقولوا :

”أشعر الناس النابغة إذا رغب . والأعشى إذا شرب . وامرؤ القيس إذا طرب . وعمرو ابن كلثوم إذا غضب“ .

وهذا كلام دقيق جدًا لأنه يضيف قوة الشعراء الى خصائصهم النفسية والروحية : فالشاعر شاعر لأنه يتحدث عن ذات نفسه وعن ضميره وروحه ووجدانه ، فهو فيما يرجع الى جوهر نفسه أفصح منه فيما يتعلق بنوافل الأغراض .

ولذلك كان هذا الشاعر أبلغ إذا مدح . وذلك أفصح إذا شَبَّ . وذلك أحفل إذا تمجس . ولو استقرينا المنازعات الأدبية في الأمم التي نعرفها لرأيناها ترجع الى المعاني والأغراض لا الى الألفاظ والأساليب . فالنزاع في فرنسا مثلا بين الكلاسيك والرومانتيك كان نزاعا حول الفكرة .

فالكلاسيك يرون أن الأغراض يجب أن تكون موضوعية (objectif) والرومانتيك يفضلون أن تكون الاغراض ذاتية (Subjectif) .

١٦ - وفي مصر والشرق العربي كانت المنازعات الأدبية تدور حول الفكرة فالنزاع الأدبي القديم بين محمد عبده ومعاصريه كان نزاعا حول فكرة . والنزاع بين قاسم أمين ومعاصريه كان يدور حول فكرة . والخصومات العنيفة التي وقعت بين علي يوسف وعبد العزيز جاویش كانت حول فكرة . والنزاع القريب جدًا بين الجديد والقديم كان نزاعا حول فكرة . وما نحسب أحدا ممن هاجموا المنفلوطي كان ينكر أن أسلوبه جيد ولكن الذين هاجموا ادّعوا أنهم يحاربون في شخصه فكرة المحافظة على قديم التقاليد .

ولا جدال في أن الألفاظ والأساليب تتلون وتتشكل بلون الفكرة التي تسيطر عليها . وعلى هذا الأساس وجد الأسلوب الجزل والأسلوب الرقيق . فالرقة والجزالة من مقتضيات المعاني لا الألفاظ . فالمعنى الجزل له لفظ جزل ، والمعنى الرقيق له لفظ رقيق . فاذا غلبت الرقة على شاعر مثل البها زهير فرجعها الى الفكرة لأنه شاعر وديع يعبر عن معاني ديدة يلهم أمثالها أصحاب الوداعة والرقه من الشعراء المترفين . واذا غلبت الجزالة على شاعر مثل المتنبي فرجعها أيضا الى الفكرة لأنه شاعر طامع في أسمى ما يطمح اليه فحول الرجال وهو الملك والتغلب والسيطرة والسلطان .

أبعد هذا البيان يدهش ناس مما أشرت اليه مرة من أن السلامة والتعقيد والرقه والجزالة والوضوح والغموض كلها صور للنفس الانسانية التي تفصح عما يطيف بها من معاني وأفكار وأراء وأغراض ؟ .

١٧ - وبعد هذا وذاك : أكان القرآن كلاما من جنس كلام العرب أم كان لونا من التعبير يختلف عما عرفوه وألفوه كل الاختلاف ؟ .

هو كلام من جنس كلامهم ومن جوهره ومعدنه . ولكنه يمتاز بقوة المعنى وقوة الروح . فان قيل : ولم تعذر عليهم أن يأتوا بشيء من مثله ؟ فانا نجيب بأن القرآن نفسه فصل

في هذه المسألة حين قال ﴿ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُقْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

فلتأمل جيدا عبارة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ففيها الجواب كل الجواب . وهل كان في مقدور العرب أن يكونوا جميعا أنبياء حتى يصلوا الى ما وصل اليه مواطنهم وزعيمهم وسيدهم محمد بن عبد الله الذي صدقت كلمتهم فيه قبل نبوته حيث لقبوه بالصادق الأمين ؟

١٨ — وقد كان من القدماء من يرى أن البلاغة لا ترجع الى المعاني : لأن المعاني في رأيهم يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي . وإنما ترجع البلاغة الى جودة اللفظ وصفائه .

ودليل ذلك عندهم أن الخطب والأشعار الرائعة ما عملت لإفهام المعاني فقط . لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام وإن الكلام اذا كان لفظه حلوا عذبا ومعناه وسطا دخل في جملة الجيد ، وإذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا دخل في جملة المستهجن الملفوظ^(١) .

١٩ — أما نحن فنلقى العجم والقرويين جانبا ونحصر البلاغة في جمهور المثقفين . ثم نقرر أن الألفاظ ملك للجميع يجدونها حيث أرادوا في المعاجم والدواوين ، ولا يبقى موضعا للجهل والعتى أو العبقرية إلا المعاني والأغراض . ومن العبث أن نزن أن البلاغة لا تخرج عن المناورات اللفظية . فإن هذا إسراف في تقدير الزخرف وامتهان لصولة العقول . إن الألفاظ في مقدور كل شاعر وكل كاتب وكل خطيب . ولكن المعجز حقا هو الفكرة . وليس معنى هذا أننا لا نقيم وزنا للصناعة الفنية . ولكن معناه أننا نقرر أن الفكرة تحيى أولا ويحيى الورق ثانيا كما يقول الفرنسيون .

وقد رأى ناس قول الباقلاني "ليس القرآن من جنس كلام العرب" فقررُوا خاطئين أن القرآن يخالف ما درجت عليه البلاغة العربية من حيث الأسلوب . ولو سألتهم عن تحديد معنى (الأسلوب) لعجزوا عجزا مبيها ، لأن الأسلوب في رأيها هو الصورة الظاهرة لعقل الكاتب

وروحه وفكرته ومرماه، وليس في مقدور أحد من المتفوقين في علوم البلاغة أن يحدد الأسلوب تحديدا منطقيا يجمع خصائصه ويمنع ما يتطرق اليه من غريب الأوصاف ، أو أن يدلنا على خواص أسلوب القرآن دلالة واضحة بريئة من عوارض اللبس والغموض ، فان ألفاظ القرآن كألفاظ كل كلام عربي مبين لا تمتاز باللفظ ولا بالأداء وإنما تمتاز بالمعنى والغرض والروح .

فان أراد أحد شاهدا على ما نقول فانا نفتح المصحف عرضا بدون تحجير ثم ننقل آيات لنسأله أن يعين ما جاء فيه غريبا عن الأساليب العربية . ولنختر خمس آيات من مطلع سورة الأنبياء : ﴿ اقترِبْ لِلنَّاسِ حَسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفلةٍ معرضُونَ . مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ . لَاهِيَةٌ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَوُا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرِ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ . قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ .

فأين تكون غرابة الأسلوب في هذه الآيات الخمس ؟ وأين يكون السياق الفني الغريب عن الأعراب ؟ أليس مرجع الروعة في هذه الآيات الى المعنى والروح ؟ أترونها تمتاز بالسجع ؟ وكيف والسجع كان معروفا قبل القرآن ؟ أترون ألفاظها متخيرة متقاة ؟ هو ذلك . ولكن كيف يدور اختيار الألفاظ ؟ أترون لاختيار الألفاظ مدارا غير موجبات المعاني والأغراض ؟ فان كانت هذه الآيات الخمس لا تكفى فالى القارئ شواهد أخر من القرآن المجيد . يقول الله عز شأنه : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا ﴾ .

وأنا أشهد صادقا أنى ما فكرت في هذه الآية إلا دهشت من سمو هذا النصح النبيل . فأين يكون جمال هذه الآية ؟ أترونها من جنس غير جنس كلام العرب كما زعم الباقلائي ؟ هيئات ! إن ألفاظها تشبه جميع الألفاظ وتركيبها لا يتميز بشيء عن غيره من التراكيب .

ولكن الجمال هنا في المعنى الشريف الذى قضى به القرآن وذلك المعنى هو الدعوة الى إيثار العدل في جميع الأحوال من غضب وسكون وحب وشتان . وقد راجعت صديقا ادبيا في هذه الآية فأراد أن يلتمس الجمال الفني في كلمة (ولا يجرمنكم) فانصح افتراض ذلك الصديق

فإننا نسأل أيضا ومن أين ظفرت تلك الكلمة بمعنى الإعجاز. أليس مرجع ذلك الى ربطها بالمعنى الذي اقتضاه السياق ؟ على أنه من الخير أن نسوق الآية كاملة لتبين كيف يمكن أن تكون بعض أجزاء الآية الواحدة أقوى من بعض :

(ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى) .

ألا ترون إن أنصقتم أن كلمة (اعدلوا هو أقرب للتقوى) ثقل في قوتها عن كلمة (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا) فما هو سبب التفاوت ؟ لا يظن أحد أن مرجع التفاوت هو الأسلوب فإن القرآن تنفرد في رأى مخالفينا بوحدة الأداء والتعبير، فلم يبق من فرق بين صدر الآية وعجزها غير تفاوت المعنى . والتفاوت هنا جاء من أن صدر الآية معنى يكره لا يجرى إلا على السنة الحكماء والأنبياء . على حين نرى عجز الآية يؤدي معنى مفهوما لدى جميع الناس .

ثم لننظر قوله جل ثناء (ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين) . هذه من غرر الآيات القرآنية : فأين يقع منها الحسن ؟ أترونها في اللفظ ؟ أترونها في الأسلوب ؟ وكيف وهى ألفاظ يحمدها من يريد في أسلوب واضح يدرسه جميع المخاطبين ويستطيعه جميع الكاتين . ان الجمال هنا في الروح العالى : حيث يخاطب الله الآمين وقد ألقى بهم في نار الجحيم .

٢٠ — تترك شواهد القرآن جانبا لأنها من المواطن الشائكة . ونوضح نظريتنا بشواهد

من النثر الجيد والشعر البليغ .

قيل لأعرابي يسوق مالا كثيرا: لمن هذا المال ؟ قال : لله في يدي !

تأملوا عبارة "لله في يدي" لتروا انها من نوادر الكلام الجيد البليغ ، ثم انظروا أترون فيها شيئا غير جمال المعنى ؟

ان الأدباء جميعا يحفظون كتاب عمرو بن مسعدة، كتاب التوصية الذي ضربت ببلاغته الأمثال، فلنذكر به القراء :

”كتابي هذا كتاب معنى بمن كتب له ، واثق بمن كتب اليه ، وأرجو أن لا يضيع حامله بين الثقة والعناية . والسلام “ .

أفترون هنا جديدا في لفظ أو في أسلوب ؟ إن الطرافة كلها تنحصر في المعنى لو يتنظرون . وكتب أحد الأمراء يوصي بعض قواد الجيش :

”وكن من احتيالك على عدوك أشد حذرا من احتيال عدوك عليك “ .

وهذا كلام نادر قلما تجود بمثله القرائح . فأين يكون جماله ؟ أترونه في شيء غير المعنى ؟ وكتب عمر بن الخطاب الى أبي موسى الأشعري :

”عُد مرضى المسلمين ، وأشهد جنائزهم ، وباشر أمورهم بنفسك ، فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا “ .

وهي نصائح عادية وأبغها جميعا قوله ” فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا “ .

أفترون الجمال هنا ، جمال البلاغة ، في شيء غير المعنى ؟

٢١ — والشعر ؟ ما جماله وما عذوبته ؟ أنظروا قول ابن الأحنف :

أتأذنون لصب في زيارتك فعندكم شهوات السمع والبصر

إن صدر هذا البيت عادي لا طريف فيه ولكن تأملوا عجزه حيث يقول (فعندكم شهوات السمع والبصر) ألا ترون انه معنى نادر نفيس وفيه وحده جمال البيت ؟ ألا ترون أن لفظة ” شهوات “ لم تكن أوفى ولا أدق إلا حيث قرنت بالسمع والبصر وتحاشت ماعداهما من نعيم الحواس ؟

وانظروا قول قيس بن ذريح :

الى الله أشكو فقد بُنى كما شكا الى الله بعد الوالدين يتيم

وهذا من الكلام الجيد : فهل كانت جودته في غير معناه ؟ أليس كل ما هنا من روعة

يعود الى تشبيه الزوجة الصالحة بالأم الروم ، وتشبيه العاشق المهجور بالطفل اليتيم ؟

وانظروا قول جميل بن معمر :

فلو أرسلت يوما بثينة تبغني	يميني ولو عزت على يميني
لأعطيها ما جاء يبغي رسولها	وقلت لها بعد اليمين سليني
سليني مالي يا بشين فائما	يبين عند المال كل ضنين
فما لك لما خبر الناس أنني	أسأت بظهر الغيب لم تسليني
فأبلى عذرا أو أجيئ بشاهد	من الناس عدل أنهم ظاهوني
لما الله من لا ينفع الود عنده	ومن حبله ان مد غير متين
ومن هو ذلولونين ليس بدائم	على ثقة خوان كل أمين

وقد تقولون : إن جمال هذا الشعر في رفته وعذوبته . ولكن أترون الرقة والعذوبة إلا صورة ظاهرة لروح الشاعر وما يضممه لمعشوقته من عطف وحنان ؟ ألم أقل لكم إن الرقة والجزالة هي صفات للمعاني تمثل في أشباح الألفاظ !

٢٢ — ولو أننا عدنا إلى كتب النقد لرأينا أن القدماء كانوا يجعلون المعنى أساس الصورة بحيث يعد الشاعر سارقا للمعنى وإن غير من صورته . ومن ذلك قول البيهت :

أترجو كليب أن يحيى حديثها بخير وقد أعيأ كليباً قديمها

أخذه الفرزدق فقال :

أترجو ربيع أن يحيى صغارها بخير وقد أعيأ ربيعاً كبارها

وهذا ليس بشيء في جانب المعاني التي تؤخذ من المدح إلى الهجاء ومن النسيب إلى الرثاء وهي كثيرة جداً ، ومع ذلك تنبه النقاد إلى أنها سرقة ، وتنبيه الشعراء إلى جرائمهم حتى روى عن الأخطل أنه قال : " نحن معاشر الشعراء أسرق من الصياغة " (١) .

٢٣ — وأنا مع هذا كله من أعرف الناس بقدر الألفاظ والأساليب فلست أنكر أن الشعراء والكتاب والخطباء يتفاوتون في الصياغة الفنية ، ولكنني أومن قبل كل شيء بالمعنى

والروح . وأرى الألفاظ على لسان الشاعر والكاتب والخطيب تشبه أدوات الحرب وأسلحة القتال في أيدي الرجل : فالسيف هو السيف في يد البطل وفي يد الجبان ، ولكنه في يد البطل موت أزرق الناب . على حين نراه في يد الجبان أقل غناء من العصا في يد الوليد . والخليل هو الخليل ، ولكن الجواد لا يكون جوادا إلا اذا اعتلى صهوته فارس مغوار ، وهو تحت الرجل الرخو أشبه شيء بالجمار "تحت الفلاح العبيط" والمرأة هي المرأة ، ولكنها بين يدي الرجل الغزل أنضر منها في حضرة الرجل البليد ! والكاتب المحيّدون الذين أجمع الناس على احترامهم تتفاوت أيامهم فتفاوتا شديدا : فهم في بعض الأيام من فرسان البلاغة وأعيان البيان ، وهم في أيام آخر يُسَقُّون ويتهافون . فما سبب ذلك ؟ السبب معروف فان روح الكاتب يتأثر بمزاجه وظروفه وموضوعه تأثرا بليغا . فلو كان الأسلوب هو سر البلاغة لتحتّم أن يكون الكاتب بليغا في جميع أحواله ، وهذا محال . فلم يبق إلا أن يكون للبلاغة سر آخر غير الأسلوب . وذلك السر هو المعنى والروح . وليست المعاني الجيدة بطائعة للكاتب في كل لحظة ، ولا الروح القوي بمواتية في كل حين . أي فهم قوم الآن أن القرآن من جنس كلام العرب في اللفظ والأسلوب ؟ أي فهمون الآن أن القرآن يمثّل النثر العربي في العصر الذي نزل فيه وأن سرّ إعجازه راجع الى روحه ومعانيه ؟

٢٤ — ومن أغلاط الباقلاني قوله بنفي السجع من القرآن ، وهو يتابع في هذا أبا الحسن الأشعري وأصحابه ، ويعارض جمهورا كبيرا من أهل العلم والأدب ، منهم من سبقه ومنهم من عاصره ، وحجة مخالفيه أن السجع مما يبين به فضل الكلام وأنه من الأجناس التي يقع بها التفاضل في الفصاحة والبيان . ومن أقوى ما يستدلون به على وجود السجع في القرآن أن المسلمين اتفقوا على أن موسى أفضل من هارون ، ومع ذلك قيل في موضع "هارون وموسى" "فراعاة للسجع ، ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل "موسى وهارون"^(١) .

والواقع أن السجع موجود في القرآن في مواطن كثيرة ، ولا ينكره إلا معاند لا يفقه ما يقول ، ومن أمثله : ﴿ والسَّاء ذات الرجح ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل ﴾^(١) .

ومن أمثله أيضاً : ﴿ والسَّاء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾^(٢) . وكذلك : ﴿ إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سُيرت ، وإذا العِشارُ عُطِّلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجَّرت ، وإذا النفوس زوجت ، وإذا الموءودة سئلت ، بأي ذنب قتلت ، وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلقت ، علمت نفس ما أحضرت . فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق المبين ، وما هو على الغيب بضنين ﴾^(٣) .

ولا أطيل في سرد الآيات المسجوعة ، ففي السور المكية شواهد كثيرة على السجع والازدواج .

٢٥ — والمهم أن نعرف ما هي حجة الباقلاني على نقي السجع من القرآن لتقدر وزنه للسجع والبيّنات ، وهو يقول :

” لو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلام العرب ، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يقال : هو سجع معجز ، لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز ، وكيف والسجع مما كان يألف الكهان من العرب ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نقي الشعر ، لأن الكهانة تنافي النبوات ، وليس كذلك الشعر “^(٤) .

وهذا كلام ساقط ضعيف ، فالسجع موجود في القرآن ، ولكن الرجل يأبى أن يعترف به ، لأن الاعتراف بوجوده في القرآن يتضمن الاعتراف بأنه غير خارج عن أساليب كلام العرب ، والاعجاز في رأيه ينحصر في الأسلوب ، وما دمنا سامنا بأن القرآن معجز فانه يجب أن نؤمن بأنه غير مسجوع ، وإلا ساوينا بينه وبين سائر الكلام !

ونحن لا ندرى كيف آتفق للباقلاني وأصحابه من الأشعرية أن يفهموا هذا الفهم العقيم ولا ندرى كيف صح له أن يحتم نفى السجع من القرآن قياسا على نفى الشعر ، بل يزيد على ذلك أن نفى السجع أوجب لأنه كان أسلوب الكهان . والمسألة كلها لعب في لعب وضلال في ضلال : لأن اختصاص السجع بالكهان حديث خرافة ، والمعقول أن السجع كان عند أهل الجاهلية لونا من الزخرف الفنى يابجا اليه الكاتب والخطيب رغبة في التأثير ، ولم يغلب السجع على الكهان إلا لأنهم كانوا أكثر من غيرهم ثقافة وأدبا ، إذ كانوا قادة الجماهير في الجاهلية . والسجع في القرآن لا يمنع من إعجازه ، لأن الاعجاز كما أسلفنا مرجعه الى سمو المعنى وقوة الروح ، والرسول رجل من العرب تفرد من بينهم بتبليغ الرسالة الى قومه ، فمن الواضح أنه ينقلها اليهم في أبجل ما عرفوا من الأساليب . ونفى الشعر عن القرآن ليس معناه أن الشعر غير صالح للإعجاز كما توهم الباقلاني ، ولكنى أرجح أن الشعر لعهد النبوة لم يكن من تقاليد الاهتمام بالشؤون الجدية ، وخاصة المسائل الروحية والدينية ، ولذلك نجد القرآن يعرض بالشعر ويتهم الشعراء باللغو والفضول والهيام في أودية الخيال . والشعر مع هذا في أسلوبه لعهد النبوة كان أضيق من أن يتسع لشرح المشاكل الدينية والاجتماعية التي أطلت في شرحها القرآن ، ومن هذا يتبين أن عدم تبليغ الرسول رسالته شعرا لم يكن معناه أنه تحامى الشعر لكلا يشارك العرب في أساليبهم كما ظن الباقلاني وأصحابه الأشعريون .

٢٦ — على أن الباقلاني لا يقف عند هذا الخطأ بل يتعداه الى خطأ أشنع في فهم

السجع فيقول :

”والذى يقدرّون أنه سيجع فهو وجم لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً ، لأن ما يكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجود دون بعض ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى ، وفصلٌ بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بالفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كافادة غيره ، ومتى ارتبط المعنى نفسه دون السجع كان مستجلباً لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى“^(١) .

وخلاصة هذه الفكرة أن الكلام لا يكون سجعاً إلا إذا كان المعنى فيه تابعا للفظ ولا ندرى من أين أتى الباقلاني بهذه القاعدة . والصواب أن خير السجع ما كان اللفظ فيه تابعا للمعنى ، كما أشار إلى ذلك غير واحد ممن كتبوا فى فنون البيان ، ونحن إذا تأملنا السجع فى القرآن رأينا اللفظ فيه تابعا للمعنى ، ونرى القرآن فى مواطن كثيرة يضحى بفواصل السجع فى سبيل المعنى ، لا كما يفعل المتكلفون حين يضحون بالمعنى فى سبيل السجع .

وهناك خطأ آخر تورط فيه الباقلاني إذ يقول :

”لو كان الذى فى القرآن على ما تقدرونه سجعاً لكان مذموماً مردولاً ، لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه واختلفت طرقه كان قبيحاً من الكلام ، وللسجع منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط ، متى أخل به المتكلم أوقع الخلل فى كلامه ونُسب إلى الخروج على الفصاحة ، كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئاً وكان شعره مردولاً ، وربما أخرجه عن كونه شعراً ، وقد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعاً متقارب الفواصل متداني المقاطع ، وبعضها مما يمتد حتى يتضاعف طوله عليه وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير ، وهذا فى السجع غير مرضى ولا محمود“^(٢) .

ووجه الخطأ هنا أن الباقلاني يحاكم القرآن الى قواعد وضعها المتأخرون ، وكان أولى به أن يفهم أن القرآن هو الأساس ، ونخروج القرآن على السجع من حين الى حين من دلائل سلامته وبلاغته ، لأن الترام السجع باب الى الغلو والإغراق ، ولم يقبح السجع على السنة المتأخرين إلا لأنهم التزموا به ما لا يلزم في التريين والتجميل . والذين قالوا بوجود السجع في القرآن لم يفرضوا التزامه في جميع الأحوال ولا وقعوا في مثل ما وقع فيه الباقلاني من الخطأ حين تفاه على الاطلاق^(١) .

(١) يحسن بالقارئ أن يرجع الى الفصل الذي بسطنا فيه «أطوار السجع» في الجزء الأول .

٧ - أبو القاسم الرصدي

١ - لم يصل إلينا من أخبار الحسن بن بشر الآمدى شيء كثير . وكل ما نعرفه أنه ولد بالبصرة - ولا ندري متى - وأنه انتقل إلى بغداد فتلق النحو واللغة عن الأخفش والزجاج وابن دريد وابن السراج ، وأنه عاد إلى البصرة فكتب لأبي الحسن أحمد وأبي أحمد طلحة بن الحسن بن المنثري . وكتب بعدهما للقاضي أبي جعفر بن عبد الواحد . ثم لأخيه أبي الحسن محمد بن عبد الواحد ثم لزم بيته بالبصرة إلى أن مات نحو سنة ٣٧١ هـ ^(١) .

٢ - وليس فيما قرأنا من أخباره ما يعين مذهبه في الحياة . ونستطيع فقط أن نتخذ من مؤلفاته دليلاً على أن حياته العقلية قصرت أو كادت على اللغة والنقد . يؤيد ذلك مجموعة كتبه التي أشار إليها ياقوت ومنها : كتاب المختلف والمؤتلف في أسماء الشعراء . وكتاب نثر المنظوم . وكتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري . وكتاب في أن الشاعرين لا تتفق خواطرهما . وكتاب ما في عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ . وكتاب فرق بين الخاص والمشارك من معاني الشعر . وكتاب تفضيل شعر امرئ القيس على الجاهليين . وكتاب تبين غلط قدماء بن جعفر في كتاب نقد الشعر . وكتاب معاني شعر البحتري . وكتاب الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام . وكتاب فعلت وأفعلت ^(٢) .

وهذه المجموعة تعين اتجاهات ذهنه في حياته الأدبية : فهو من النقاد المولعين بدرس الشعر ونقد ما كتب عنه . وهو بنوع خاص مغرم بدرس البحتري وأبي تمام ، وتعقب ما كتبه رجال القرن الثالث عن الشعر والشعراء . ولو بقيت مؤلفاته لاستطعنا أن نصل إلى شيء كثير من المعارف الأدبية التي كان يملكها رجال القرن الثالث والرابع ، ولأمكننا أن نعرف

(١) راجع ترجمته في معجم الأدباء، ج ٣ ص ٥٤ - ٦١ (٢) ياقوت ص ٥٨ ج ٣

الى أى حد كان أولئك القوم يعرفون من الدقائق الفنية التى تسبق الى أذهان الشعراء فتتفق أو تختلف وفقا لاختلاف الأحوال أو توافق المشاعر والأذواق .

وهناك شواهد تدل على أنه فى حياته الاجتماعية كان حريصا على تتبع أحوال معاصريه وربط ما يسمع من أخبارهم بما نُقل اليه من أخبار السالفين وتقييد ما عرف عن أهل عصره من النوادر والفكاهات .

٣ - وكان فوق ذلك كثير الشعر، حسن الطبع، جيد الصنعة، مشتهرا بالتشبيهات - كما قال يا قوت - ولكن شعره ضاع وما بقى منه يدل على أنه كان جيد المعانى فى أسلوبه ينقصه الرواء . من ذلك قوله :

يا واحدا بان فى الزمان	من يحاريه أو يسداني
دعنى من نائل جزيل	يعجز عن شكره لسانى
فلمست والله مستميحا	ولا أخا طامعا ترانى
وهب اذا كنت لى وهوبا	من بعض أخلاقك الحسان

وقوله فى عالم تمام :

لا تنظرن الى تمتعه اذا	رام الكلام ولفظه المعتاص
وانظر الى الحكم التى يأتى بها	تسفيك عند تطلق وخلص
فالدر ليس يناله غواصه	حتى تقطع أنفوس الغواص

ومن الشعر الفكاهى قوله فى أحد القضاة :

رأيت قلنسوة تستغيث	ث من فوق رأس تنادى خذونى
وقد قلقت فهى طورا تميم	ل من عن يسار ومن عن يمين
فطورا تراها فويق القفا	وطورا تراها فويق الجبين
فقلت لها أى شىء دهاك	فردت بقول كئيب حزين
دهانى أن لست فى قالبي	وأخشى من الناس أن يبصرونى

وَأَنْ يَبْشُرُوا بِمَزَاحٍ مَعِيَ وَإِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ بِي قَطَعُونِي
 قَقَلْتُ لَهَا مَرًّا مِنْ تَعْرِيفِينَ مِنَ الْمُنْكَرِينَ لِهَذِي الشُّؤُونِ
 وَمَنْ كَانَ يَشْمُقُ إِمَّا رَأَاكَ وَيُخْرِجُ مِنْ جُوفِهِ كَالرَّيْنِ
 وَمَنْ كَانَ يَصْفَعُ فِي اللَّهِ لَا يَمْلُ وَيَشْتَدُّ فِي غَيْرِلَيْنِ
 وَيُسَلِّحُ مَلَأَكَ كَيْلَ اتِّتَامٍ إِمَّا عَلَى صَحَّةٍ أَوْ جُنُونِ
 فَفَارَقَهَا ذَلِكَ الْإِنْزَاجُ وَعَادَتْ إِلَى حَالِهَا فِي السَّكُونِ

٤ — وأهم ما بقي من آثار الأمدى هو كتابه "الموازنة بين أبي تمام والبحتري" وهو كتاب يضعه في الصف الأول ويقدمه على كثير من الناقدين .

وأسلبيه في ذلك الكتاب من أدق الأساليب وأصفاها وأبعدها من اللغو والفضول، وآراؤه في نقد الشعر آراء جيدة سديدة تعجب لها اليوم أشد العجب وبيننا وبينه عشرة قرون .

٥ — وأمتن ما يصل بيننا وبين ذلك الرجل — على بعد العهد — معرفته لنفسية الأدعياء أدعياء الأدب والبيان : فهو يقرر أن الناس يعتقدون أن الشعر منفرد من بين سائر الأشياء بجواز العلم به لكل أحد والحكم عليه لكل ناظر . لأن الذي يعرف منهم من الذهب والفضة والرقيق والخيل والسلاح والنياب والطيب أكثر مما يعرف من الشعر لا يتم نفسه في المعرفة بالشعر تهتمه إياها في المعرفة بتلك الأشياء : لأنه يرى العرس فيعجبه ملاحه سببيه ، واستدارة كفه ، وبريق شعره ، وصحة قوائمه ، وسلامة أعضائه ، وبراءته من العيوب الظاهرة والباطنة ، ولكنه لا يقدم على آتباعه حتى يشاور في أمره أصحاب البصيرة . ويرى السيف فيبهرة منه جلاؤه ، وصقاله ، وصفاء حديده ، ولكنه لا يمضي فيه اختياره حتى يعتمد على من يعرف حسنه وطبعه وجوهره وفرنده ومضائه . ويريد ابتياع ثوب الوشي فيروقه منه حسن طرزاده ، وكثرة صورده ، وبديع نقوشه ، واختلاط ألوانه ، فلا يبادر إلى إعطاء ثمنه حتى يرجع إلى أهل العلم بجوهره وجودة رقعة وصحة نسجه وصحة إبريسمه . ولكنه لا يجرى على هذه القاعدة في الشعر لأنه ربما سمع القصيدة فأعجبه منها حسن وزنها

أو دقة معانيها أو ما أشتملت عليه من مواظ وأدب وحكم وأمثال : فيتعجل بالحكم لها على سواها قبل أن يرجع إلى من هو أعلم منه بالشعر واستواء نظمه ووضع الفاظه في مواضعها ، وغير ذلك من الأنظار الدقيقة التي لا يدركها إلا أرباب الصناعة ^(١) .

٦ — ومن الدقائق الغريبة أن نرى الآمدى منذ عشرة قرون يفهم أن هناك حاسة فنية يرجع إليها الناقد حين يعوزه الإفصاح عما يدركه من أسرار البيان : فهو يحدثنا أنه كما قد يكون الفرسان سليمين من كل عيب موجود فيهما سائر علامات العتق والجودة والنجابة ويكون أحدهما أفضل من الآخر يفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدراية الطويلة ، وتكون الجاريتان بارعتين في الجمال سليمتين من كل عيب فيفرق بينهما العالم بأمر الرقيق حتى يجعل في الثمن بينهما فضلا كبيرا بدون أن يقدر على عبارة توضح وجه ذلك الفرق وإنما يعرفه بطبعه وكثرة درسته وطول ملاحظته ، فكذلك الشعر : قد يتقارب البيتان الجيدان النادران فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود إن كان معناه واحدا ، وأيهما أجود في معناه إن كان معناه مختلفا ^(٢) .

٧ — وهذه النظرية البعيدة في تقدير الحاسة الفنية لم تكن مما انفرد به الآمدى : فقد سبق إليها ولكنه استغلها أحسن استغلال . وأجمل ما جاء في هذا الباب ما حكاه إسحق الموصلي : ”قال لي المعتصم أخبرني عن معرفة النغم وبينها لي — فقلت إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤذيها الصفة“ .

٨ قال : ”وسألني محمد الأمين عن شعرين متقاربين وقال : اختر أحدهما فاخترت . فقال : من أين فضلت هذا على هذا وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتنا لأمكنني التبيين ، ولكنهما تقاربا ففاضلت بينهما بشيء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان“ . وقيل لخلف الأحمر : إنك لا تزال تردّ الشيء من الشعر وتقول هو رديء والناس يستحسنونه فقال :

”إذا قال لك الصيرفي : إن هذا الدرهم زائف فليس بنافعك قول غيره إنه جيد“ ^(٢) .

ولكن كيف السبيل إلى كسب الذوق الأدبي أو الحاسة الفنية ؟

حسنا يحجب الأمدى بأن ذلك لا يكون إلا بكثرة النظر في الشعر، والارتياض فيه، وطول الملابس له والانتقطاع إليه، والانجذاب عليه، والجلد فيه، والحرص على معرفة أسرارهِ وغوامضهِ .

٨ — والأمدى مع هذا يقرر بأنه ليس في مقدور كل إنسان أن يصل الى كسب الذوق الأدبي بطول الممارسة : لأن كل امرئ إنما يتيسر له ما في طبعه قبوله وما في طاقته تعلمه . وليس كل طبع قابلاً لفهم أسرار الأدب والبيان ومن هنا صح له أن يقول :

« واعلم أيها السائل المتعنت أن هذا الذي تسأله ليس في وسعه أن يجعلك في العلم بالصناعة كنفسه . ولا يجد سبيلاً الى قذف ذلك في نفسك ولا في نفس ولده ومن هو أخص الناس به، ولا أن يأتيك في ذلك بعلّة قاطعة ولا حجة باهرة . على أن العلم الذي لا يستقر في الذهن إلا بالروية والملاحظة وطول الملابس لا يمكن أن ينتقل الى ذهن آخر يجتد القول والصفة . إلا إذا استطاع صاحب البصر بالسيوف أن يصف لك عشرة آلاف سيف مختلفات الأجناس والجواهر، بحيث يجعلك مشاهداً لها كلها في لحظة واحدة، عالم بكل علة، محيطاً بكل حجة .

”وبعد فلعل الذي غرك في دعواك المعرفة بالشعر والقدرة على الحكم فيه أن عندك خزانة كتب تشتمل على عدّة من دواوين الشعراء تُتصفحها أحياناً وتحفظ منها القصيدة أو القصائد وفاتك أنك لم تغتر هذا الاغترار فيما يتعلق بثياب بدنك، وأثاث بيتك، وطرق نفقتك؛ لأننا لانراك تبتاع وشياً ولا آلة ولا تصرف ديناراً بدرهم ولا درهما بدينار، حتى ترجع الى من يعرف ذلك دونك فتستعين به على حاجتك مخافة أن تفجع في مالك . فكان خليفاً بك أن تسلم أمر الشعر الى ألدله مخافة أن تفجع في عقلك . ومصيبة الغبن في العقل أكبر من مصيبة الغبن في المال“ .^(١)

٩ — والأمدى يؤثر الشعر المطبوع على الشعر المصنوع . ويعيب على الشعراء طلب الإغراق والإبداع والميل الى وحشي المعاني والألفاظ، وإن كان ذلك مما يروى ويستجاد

فى المعانى والألفاظ والتعابير . فالشاعر الحضرى لا يُقبل منه التوعر لأنه خروج على فطرته ، وقد يقبل من البدوى لأنه يحرى فيه على سجيته ، فكأن الفطرة هى الميزان . وهذا كما يرى القارى من أدق الأحكام .

وقد يكون لهذا الاتجاه دخل فى أعمار الألفاظ ، فبعضها عمّر طويلا لأنه وافق هوى فى أنفس الحضريين وبعضها هجرات لقلّة الاستعمال : ومن هذه الناحية فضل الآمدى البحترى على أبى تمام : لأن البحترى كان يتعمد حذف الغريب والوحشى من شعره ليقربه من فهم من يمتدحه . إلا أن يأتيه طبعه باللفظة بعد اللفظة فى موضعها من غير طلب لها . وكان من أمره فى ذلك أنه كان يكتفى أبا عبادة ، فلم يدخل العسراق تكنى أبا الحسن ليزيل العنجهية والأعرابية ويساوى فى مذاهبه أهل الحاضرة ويقرب بهذه الكنية الى أهل النباهة ^(١) والكتاب من الشيعة . فهو بذلك بدوى تحضر فراج شعره فى البدو والحضر . ولا كذلك أبو تمام فانه حضرى تشبه بأهل البدو فلم ينفق بالبادية ولا عند أكثر الحاضرة .

١١ — والآمدى لا يستبعد اللحن بل يقرّر أنه " لا يكاد يعرى منه أحد من الشعراء المحدثين ولا يسلم منه شاعر من الشعراء الاسلاميين . وأنه قد جاء فى أشعار المتقدمين ما لا يقوم العذر فيه إلا بالتأويلات البعيدة . وأن ما عيب على البحترى من مخالفة المقاييس ^(٢) والبعد عن الصواب قد جاء كثير مثله فى أشعار القدماء . والأعراب الفصحاء " .

والواقع أن اللحن قديم . ومن الخطأ أن يُظن أن العرب لم يلحنوا إلا حين اختلطوا بالأعاجم . ولكنه من الواجب أن يلاحظ أن لطبايع الشعراء والكتاب دخلا فى فيما أثر عنهم من اللحن : لأن لبعض الأذهان طرائق خاصة فى التعبير قد تعدّ انحرافا عن الصواب . فى حين أنها تفصح عن أغراض اصحابها أتم الافصاح — ولو ترك الناس على فطرتهم لكان من طرائق تعبيرهم مادة صالحة لعلم النفس : لأن الأساليب الكتابية صور للاتجاهات العقلية ، والوجدانية ، والنفسية . وفى العقول كما فى الأساليب وضوح وغموض وخطأ وصواب .

بين صاحب أبي تمام وصاحب البحتري

اخترع الآمدى مناظرة طريفة تمثل النزاع الذى قام بين أصحاب أبي تمام وأصحاب البحتري . وهى مناظرة طويلة يجدها القارئ فى صدر كتاب "الموازنة بين الطائيين" ورأينا أن نثبت طرفا منها فى هذا الفصل ليرى القارئ كيف لآن الثروعدب على قلم الآمدى وهو يصوغ هذا الحديث :

صاحب أبي تمام — كيف يجوز لقائل أن يقول إن البحتري أشعر من أبي تمام ، وعن أبي تمام أخذ ، وعلى حدوه احتذى ، ومن معانيه استقى : حتى قيل الطائي الأكبر والطائي الأصغر .

صاحب البحتري — أما الصحبة له فما صحبه ، ولا تتلمذ له ، ولا روى ذلك أحد عنه ولا نقله ، ولا أرى قط أنه محتاج إليه .

ودليل ذلك الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند أبي سعيد محمد بن يوسف الثغرى وقد دخل عليه البحتري بقصيدته التى أولها :

* أأفاق صب من هوى فأفقا *

وأبو تمام حاضر فلما أنشدها علق أبو تمام منها أبياتا كثيرة فلما فرغ من الانشاد أقبل أبو تمام على محمد بن يوسف فقال : أيها الأمير ! ما ظننت أن أحدا يقدم على أن يسرق شعري وينشده بحضرتي حتى اليوم ! ثم اندفع ينشد ما حفظه حتى أتى على أبيات كثيرة من القصيدة فبهت البحتري . ورأى أبو تمام الإنكار فى وجه أبي سعيد فحينئذ قال أبو تمام :

"أيها الأمير والله ما الشعر إلا له وإنه أحسن فيه الاحسان كله" وأقبل يقرظه ، ويصف معانيه ، ويذكر محاسنه ، ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى أضعف له الجائزة . فمن كان يقول مثل هذه القصيدة التى هى من عين شعره ، وفانركلامه ، قبل أن يعرف أبا تمام ، جدير به

(١) اكتفينا فى إثبات هذه الصفحات بما أورده المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى فى مختاراته . ومن أراد الشواهد فليرجع إليها فى صدر كتاب الموازنة بهى هناك أوفى وأمتع .

أن يستغنى عن أن يصحبه، أو يتلمذ له أو لغيره من الشعراء . على أنى لا أنكر أنه استعار بعض معانى أبى تمام لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البحرى من شعره . وليس ذلك بمقتضى أن يكون أبو تمام أستاذ البحرى ولا بمانع أن يكون البحرى أشعر من أبى تمام . فهذا كثير قد أخذ من جميل واستقى من معانيه، فما رأينا أحدا قال إن جميلا أشعر منه بل هو عند أهل العلم بالشعر والرواية أشعر من جميل .

صاحب أبى تمام — إن البحرى نفسه يعترف أن أبا تمام أشعر منه فقد سئل عنه وعن أبى تمام : « قتال إن جیده خير من جیدی » وجيد أبى تمام كثير .

صاحب البحرى — إن كان هذا الخبر صحيحا فهو للبحرى لا عليه ، لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبى تمام كثير الاختلاف ، وشعره شديد الاستواء ، والمستوى الشعر أولى بالتقدمة من المختلف الشعر ، وقد اجتمعنا نحن وأنتم على أن أبا تمام يعلو علوا حسنا ويخط انحطاطا قبيحا . وأن البحرى يعلو بتوسط ولا يسقط . ومن لا يسقط ولا يسف أفضل ممن يسقط ويسف .

صاحب أبى تمام — إن أبا تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أولا وإماما متبوعا وشهر به حتى قيل هذا مذهب أبى تمام وطريقة أبى تمام . وسلك الناس نهجه وافقتوا أثره ، وحى فضيلة عرى عن مثلها البحرى .

صاحب البحرى — ليس الأمر على ما وصفت ، وليس أبو تمام صاحب هذا المذهب ولا بأول فيه ولا سابق إليه ، بل سلك فيه سبيل مسلم بن الوليد وأخذى حذوه وأفرط فى ذلك وأسرف حتى زال عن التهج المعروف ، والسَّن المألوف ، بل إن مسلما غير مبتدع له ولكنه رأى هذه الأنواع التى وقع عليها اسم البديع متفرقة فى أشعار المتقدمين فقصدها وأكثر فى شعره منها . ولكنه حرص على أن يضعها فى مواضعها ولم يسلم مع ذلك من الطعن عليه حتى قيل أنه أول من أفسد الشعر بخاء أبو تمام على أثره واستحسن مذهبه ، وأحب أن يجعل كل بيت من شعره غير خال من هذه الأضناف ، فسلك طريقا وعرا ، وأستكره الألفاظ

والمعاني استكراها : ففسد شعره ، وذهبت طلاوته ، ونشف مأؤه . فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أبي تمام لهذا المذهب وسبقه اليه . وكل ما في المسئلة أنه استكثر منه وأفرط فكان إفراطه فيه من أعظم ذنوبه ، وأكبر عيوبه . أما البحتري فانه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعروفة على كثرة ما جاء في شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة فكان انفراده بحسن العبارة وحلاوة اللفظ وصحة المعنى والبعد عن التكلف والتعمل سببا في إجماع الناس على استحسان شعره واستجادته وتداوله . ونفاق شعر الشاعر دليل على علو مكانته واضطلاحه بما يلائم الأذواق ويلامس القلوب من أساليب الكلام ومناهجه .

صاحب أبي تمام — إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه عنه ، أما النقاد والعلماء فقد فهموه وعرفوا قدره ، وإذا عرفت هذه الطبقة فضيلته لم يضره طعن من طعن بعدها عليه .

صاحب البحتري — لا يستطيع أحد أن ينكر منزلة ابن الأعرابي وأحمد بن يحيى الشيباني ودعبل بن علي الخزاعي من الشعر ومنزلتهم من العلم بكلام العرب . وقد علمتم مذهبهم في أبي تمام واذدراءهم بشعره . حتى قال دعبل : إن ثلث شعره محال ، وثلاثة مسروق ، وثلاثة صالح . وقال : ما جعل الله أبا تمام من الشعراء بل شعره بالخطب والكلام المنشور أشبه منه بالشعر . وقال ابن الأعرابي في شعر أبي تمام : ان كان هذا شعرا فكلام العرب باطل ! وهذا محمد بن يزيد المبرد ما علمناه دُونَ له كبير شيء .

صاحب أبي تمام — إن دعبلًا كان يُشَنُّ^(١) أبا تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهور ، فلا يُقبل قول شاعر في شاعر . وأما ابن الأعرابي فكان شديد التعصب عليه لغرابية مذهبه ، ولأنه كان يرد عليه من معانيه ما لا يفهمه ولا يعلمه ، فكان إذا سئل عن شيء منها يأنف أن يقول لا أدري فيعدل الى الطعن عليه . ولا مانع أن يكون جميع من تذكرونه على هذا القياس .

صاحب البحرى — لا عيب على ابن الأعرابى فى طعنه على شاعر عدل فى شعره عن مذاهب العرب الى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام الى الخطأ والإحالة . والعيب فى ذلك يالحق أبا تمام إذ عدل عن المحجة الى طريقة يجهلها ابن الأعرابى وأمثاله من المضطلمين بالسليقة العربية .

صاحب أبى تمام — إن العلم فى شعر أبى تمام أظهر منه فى شعر البحتى ، والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم .

صاحب البحرى — كان الخليل بن أحمد عالما شاعرا ، وكان الأصمعى شاعرا عالما ، وكان الكسائى كذلك ، وكان خلف بن حيان الأحمر أشعر العلماء ، وما بلغ بهم العلم طبقة من كان فى زمانهم من الشعراء غير العلماء ، وقد كان أبو تمام يعمل على أن يدل فى شعره على علمه باللغة وكلام العرب .

أما البحرى فلم يقصد هذا ولا أعتمده ، ولا كان يعدّه فضيلة ولا يراه علما ، بل كان يرى أنه شاعر لا بد له أن يقرب شعره من فهم سامعه فلا يأتى بالغريب إلا أن يتفق له فى اللفظة بعد اللفظة فى موضعه من غير طلب له ولا حرص عليه . على أن هذا العلم الذى تؤثر به أبا تمام لم ينفعه : فقد كان يالحق فى شعره لحنا يضيق العذريه ولا يجد المتأول له مخرجا منه إلا بالحيلة والتحمل الشديد .

صاحب أبى تمام — لسنا ننكر أن يكون صاحبنا قد وهم فى بعض شعره وعدل عن الوجه الأوضح فى كثير من معانيه . وغير غريب على فكر نتج من المحاسن ما نتج ، وولد من البدائع ما ولد ، أن يلحقه الكلال فى الأوقات ، والزلل فى الأحيان ، بل من الواجب لمن أحسن إحسانه أن يسأخ فى سهوه ويتجاوز له عن خطاه . وما رأينا أحدا من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب ، وكذلك ما أخذته الرواة على المحدثين المتأخرين من الغلط والخطأ واللحن أشهر من أن يحتاج إلى أن نبرهنه أو ندل عليه ، وما كان أحد من

أولئك ولا هؤلاء مجهول الحق ولا مجهود الفضل بل عفى إحسانهم على إساءتهم، وتجو يدهم على تقصيرهم .

صاحب البحرى — أما أخذ السهو والغلط على من أخذ عليهم من المتقدمين والمتأخرين ففي البيت الواحد والبيتين والثلاثة . أما أبو تمام فلا تكاد تخلوله قصيدة واحدة من عدة أبيات يكون فيها مفسداً أو مُحمِلاً أو عادلاً عن السنن أو مستعيراً آستعارة قبيحة أو مخطئاً للمعنى بطلب الطباق والتجنيس ، أو مبهماً بسوء العبارة والتعقيد حتى لا يفهم ولا يوجد له مخرج .

صاحب أبي تمام — إنكم تنكرون على أبي تمام من الفضل ما يعترف به البحرى نفسه فقد رثاه بعد موته وثناء اعترف فيه له بالسبق وفضله على شعراء عصره .

صاحب البحرى — لم لا يفعل البحرى ذلك وقد كان هو وأبو تمام صديقين متحابين وأخوين متصافين يجعهما الطالب والنسب والمكتسب ، فليس بمنكر ولا غريب أن يشهد أحدهما لصاحبه بالفضل ويصفه بأحسن ما فيه ، ويخله ما ليس فيه ، على أن الميت خاصة يُعطى في تأبينه من التكريظ والوصف وجميل الذكر أضعاف ما كان يستحقه .

صاحب أبي تمام — كيفما كان الأمر لا تستطيعون أن تدفعوا ما أجمع عليه الرواة والعلماء أن جيد أبي تمام لا يتعلق به جيد أمثاله . وإذا كان جيده بهذه المكانة وكان من الممكن إغفال رديئه وأطراحه كأنه لم يقله فلا يبقى ريب في أنه أشعر شعراء عصره والبحرى واحد منهم .

صاحب البحرى — إنما صار جيد أبي تمام موصوفاً ومذكوراً لندرته ووقوعه في تضاعيف الردىء فيكون له رونق وماء عند المقابلة بينه وبين ما يليه . وجيد البحرى بكيد أبي تمام إلا أنه يقع في جيد مثله أو متوسط فلا يفاجئ النفس منه ما يفاجئها من جيد صاحبه .

٨ - أبو سهل العسكري

١ - في الأدب العربي رجلاً باسم العسكري يشتهر كثيراً على الباحثين، لأن كلا منهما الحسن بن عبد الله العسكري . وكان من أسباب هذا اللبس أن أخطأ صديقنا الأستاذ خير الدين الزركلي في كتابه "الأعلام" ^(١) فمزج وفاة أحدهما بوفاة الآخر اعتماداً على فهرس دار الكتب المصرية .

قال ياقوت : أما وفاته فلم يبلغني منها شيء غير أني وجدت في آخر كتاب الأوائل من تصنيفه (وفرغنا من إملاء هذا الكتاب لعشر خلت من شعبان سنة ٣٩٥) وقد ظن جورجي زيدان أن هذا تاريخ الوفاة .

والفرق بين ذينك الشخصين أن أحدهما يكنى أبا أحمد وهو الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري ، وثانيهما يكنى أبا هلال وهو الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، وقيل إن أبا هلال كان ابن أخت أبي أحمد ^(٢) .

والعسكري نسبة إلى عسكر مكرم، وهي مدينة من كور الأهواز ، ومكرم الذي تنسب إليه مكرم الباهلي وهو أول من اختطها، كما يقول ابن خلكان ^(٣) .

٢ - وكان أبو أحمد العسكري من رجال اللغة والرواية . وكان صاحب ابن عباد يودة الاجتماع به ولا يجد إليه سبيلاً ، فقال لمخدومه مؤيد الدولة بن بويه : ان عسكر مكرم قد اختلت أحوالها، وأحتاج إلى كشفها بنفسى ، فأذن له في ذلك ، فلما أتاها توقع أن يزوره أبو أحمد العسكري فلم يزرد . فكتب صاحب إليه :

ولما أبيتم أن تزوروا وقسمو ضعفتنا فلم تقدر على الوخدان ^(٤)

(١) ص ٢٢٩ ج ١ (٢) ياقوت ص ١٢٧ ج ٢ (٣) وفيات الأعيان ص ٢٣٥ ج ١

(٤) الوخدان : سعة الخصر، كالوخد والوخيد .

أتيناكمو من بعد أرض زوركم وكم منزل بكر لنا وعوان
نسائلكم هل من قرى لنزيلكم بملء جفون لا بملء جفان

وكتب مع هذه الأبيات شيئا من النثر بخاوبه أبو أحمد عن النثر بنثر مثله ، وجاوبه عن الشعر بهذه الأبيات :

أروم نهوضا ثم يثنى عزيمتي تعوذ أعضائي من الرجفان
فضممت بيت ابن الشريد كأنما تعمّد تشبيهي به وعناني
”أهم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان“

فلما وقف الصاحب على الجواب عجب من اتفاق هذا البيت له وقال : « والله لو علمت أنه يقع له هذا البيت لما كتبت إليه على هذا الروي » .

وقد رأى أبو أحمد أن هذا لا يقنع الصاحب وأنه لا بد من الجمل على النفس ، فركب بغلة وقصده فلم يتمكن من الوصول إليه لاستيلاء الحشم ، فصعد تلعة ورفع صوته بقول أبي تمام :

مالي أرى القبة الفيحاء مقفلة دوني وقد طال ما استفتحت مقفلها
كأنها جنة الفردوس معرضة وليس لي عمل زالك فأدخلها

فناداه الصاحب : ادخلها يا أبا أحمد فلك السابقة الأولى ! فتبادر إليه أصحابه فحملوه حتى جلس بين يديه فسأله عن مسألة فقال : الخبير صادفت ! فقال الصاحب : يا أبا أحمد ! تغرب في كل شيء حتى في المثل السائر ! فقال : تفاءلت عن السقوط بحضرة مولانا . وأصل المثل (على الخبير سقطت) وكانت وفاة أبي أحمد العسكري سنة ٣٨٢^(١)

وانما كتبنا هذه الكلمة عن أبي أحمد لأنه كان أستاذ أبي هلال ، ولنرشد القارئ إلى أن أبا هلال حين يقول في الصناعتين : « أخبرنا أبو أحمد » فإنه لا يريد رجلا سواه . ومن

كتاب الصناعتين نعرف شيئا كثيرا عن أبي أحمد العسكري من الوجهة الأدبية ، فقد نقل عنه أشياء كثيرة في أغلب ضروب البيان ، واختار شذرات من نثره تمثله من أوساط الكتاب ^(١) .

٣ — أما أبو هلال فهو شخصية قوية جذابة لها أثر عظيم في اللغة العربية ، ولولم يكن له إلا كتاب الصناعتين لكفى دلالة على فضله وبراعته وتفوقه فيما عني به من درس الشعر والنثر وتعقب مذاهب الشعراء والكتاب .

كان أبو هلال أباي النفس ، قوى القلب ، يترفع عن الدنيا ويأى بنفسه عما يرتطم فيه أدعياء الأدب من كسب العيش عن طريق التزلف الى الأمراء والرؤساء . وقد رأينا أن أستاذه وخاله أبا أحمد العسكري كان قدوة له في ذلك ، إذ كان الصاحب يستدعيه الى حضرته فيعتذر بالضعف والشيخوخة فرارا من أن يحشر في زمرة الأتباع وطلاب المغامم وأرباب الغايات . كان أبو هلال يتجر في الثياب احترازا من الطمع والدناءة والتبدل ^(٢) ، ولكنه كان قوى الشعور بأن تلك مهنة لا تليق به ولا بأدبه ، فكان يفر بمثل قوله :

جلوسى في سوق أبيع وأشتري دليل على أن الأنام قروء
ولا خير في قوم يذل كرامهم ويعظم فيهم نذلهم ويسود
ويجوهمو عني رثانة كسوتى هجاء قبيحا ما عليه مزيد

وقوله :

إذا كان مالى مال من يلقط العجم ^(٣) وحالى فيكم حال من حاك أو حجم
فأين انتفاعى بالأصالة والحجا وما ربحت كفى على العلم والحكم
ومن ذا الذى فى الناس يبصر حالى فلا يلعن القرطاس والخبر والقلم ^(٤)

٤ — وقد كان أبو هلال مع هذا التأبى متصل الجبل بالصاحب بن عباد ، وليس في كتب التراجم ما يشرح لنا صلته بذلك الوزير الذى استعبد معاصريه من الكتاب

(١) أنظر ص ٣١٩ صناعتين . (٢) ص ١٣٥ ج ٢ ياقوت . (٣) العجم : البوى .

(٤) ص ١٣٦

والشعراء ، ولكنني رأيت في كتاب الصناعتين ما يدل على أن صلته به كانت قوية ، ولذلك مظهران :

الأول إشادته بأدب صاحب ، والثاني تحامله على المتنبي ، وكان ابن عباد يكره المتنبي كرها شديدا لترفعه عن مدحه ، فكان لذلك يدفع النقاد الى النيل منه والوقوع فيه ، والغرض من شعره .

أما إشادته بأدب صاحب فتظهر في استشهاده بكلامه ، كقوله في باب السجع والازدواج : ” ومثله قول صاحب : لكنه عمد الى الشوق فأجرى جياده غرا وقرحا ، وأورى زناده قدحا فقدحا ... وقوله : هل من حق الفضل تهضمه شغفا ببلدتك ، وتظلمه كلفا بأهل جلدتك ، ... وقوله : وقد كتبت الى فلان ما يوجز الطريق الى تخلية نفسه ، وينجز وعد الثقة في فك حبسه “^(١) .

ونرى أبا هلال في مكان آخر يقول : ” روى لنا أن عمر بن أبي ربيعة أنشد ابن عباس رضي الله عنه :

* تشط غدا دار جيراننا *

فقال ابن عباس :

* وللدار بعد غد أبعد *

فقال عمر : والله ما قلت إلا كذلك ... وإذا كان القوم في قبيلة واحدة وفي أرض واحدة فإن خواطهم تقع متقاربة ، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضاربة ... وأنشدت صاحب اسماعيل بن عباد :

* كانت سراة الناس تحت أظله *

فسبقني وقال :

* فغدت سراة الناس فوق سراته *

وكذلك كنت قلت ، فعلى هذا جائز ما يدعى لهم^(٢) .

وفي هذه العبارة تظهر مجاملة أبي حلال للصاحب، فهو يتخذ من حضور ذهنه دليلا على أن حضور الذهن من النعم التي قد يهبها الله للناس !

ونراه في باب الفصل والوصل يقول : ” وهكذا يفعل الكتاب الحذاق، والمترسلون المبرزون ... ألا ترى ما كتب الصاحب في آخر رسالة له : فان حثت فيما حلفت ، فلا خطوت لتحصيل مجد ، ولا نهضت لاقتناء حمد ، ولا سعت الى مقام خفر ، ولا حرصت على علو ذكر ... وهذه اليمين التي لو سمعها عامر بن الظرب لقال هي الغموس^(١) ، لا القسم بالملات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ... فأنى بإيمان ظريفة ومعان غريبة .

وكتب أيضا في آخر رسالة : وأنا متوقع لكاتبك ، توقع الظمان للاء الزلال ، والصومام لهلال شوال .

وكتب آخر أخرى : وسئل أن أخلفه في تجشيم مولاي الى هذا المجمع ، ليقرب علينا تناول البدر بمشاهدته ، ولمس الشمس بغرته .

فانظر كيف يقطع كلماته على كل معنى بديع ، ولفظ شريف^(٢) .

هـ — وأما تحامله على المتنبي فيظهر في مواطن كثيرة من كتابه ، فهو لا يذكره باسمه ، ولا يتحدث عن شعره إلا حين يريد التمثيل للشعر القبيح . ففى باب تمييز المعاني ينشد قول السيد الحميرى :

أيارب إني لم أرد بالذى به مدحت عاليا غير وجهك فارحم

ثم يقول : ” فهذا كلام عاقل يضع الشيء في موضعه ، ويستعمله في إبانته ، ليس كمن قال وهو في زماننا :

جفخت وهم لا ينفخون بها بهم شيم على الحسب الأغر دلائل^(٣)

فأشمت عدوه بنفسه .

(١) اليمين الغموس بالعين المعجمة التي تنفس صاحبها في النار . (٢) ص ٣٥٤ و ٣٥٥

(٣) لم يذكر أبو حلال عجز البيت (ص ٤٥) . ص ٢٩٣

وفي باب الكناية والتعريض يقول : « ومن شنيع الكناية قول بعض المتأخرين :

إني على شغفى بما فى نحرها لأعف عما فى سراويلاتها

وسمعت بعض الشيوخ يقول : الفجور أحسن من عفاف يعبر عنه بهذا اللفظ » .

و « بعض الشيوخ » ذاك هو الصاحب بن عباد الذى قيد هذه الملاحظة فى آخر رسالته

فى الكشف عن مساوى المتنبي^(١) .

وفى باب الترصيع يقول : « ومن معيب هذا الباب أيضا قول بعض المتأخرين :

عجب الوشاة من اللخاة وقولهم دع ما نراك ضعفت عن إخفائه

هذا ردىء لتعمية معناه »^(٢) .

وفى باب التوشيح يقول : « ومما عيب من هذا الضرب ... قول بعض المتأخرين :

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا قلاقل عيس كلهن قلاقل

وإنما أخذه من قول أبى تمام فأفسده :

طلبتك من نسل الجديل وشدقم^(٣) كوم عقالل من عقالل كوم

٦ — وتحامل أبى هلال على المتنبي هو المطعن الظاهر فى أخلاقه ، فقد كان يستطيع

أن ينقد شعر المتنبي فيظهر الجيد منه والردىء ، ولكل شاعر جيد وردىء ، ولكنه سلك

خطة واحدة هى النص على السخيف من شعر المتنبي مع التعامى عن معانيه الجيدة ، وخياله

الوثاب . فانضم بذلك إلى النقاد المغرضين الذين كلفوا بالبحث عن عيوب المتنبي ابتغاء

مرضاة الوزير ابن عباد ، وما أخط الأدب إذا سخر لأهل الملك والسلطان !

٧ — ويعدّ ثرأبى هلال من الطبقة العالية . وهو يسجع ، ولكنه لا يلتزم السجع ،

والتعبير المشرق الفصيح من أظهر مميزاته ، ولا يكاد القارئ يرى فى نثره عبارة غامضة أو فكرة

(١) مخطوطة فى دار الكتب المصرية . (٢) ص ٣٠٠ (٣) ص ٣٠٤ والجديل وشدقم لخالد

يحوطها اللبس ، وإنما يمضى فى الشرح والإيضاح بلغة سهلة مقبولة لا يعتريها ضعف ولا التواء . وانظر قوله فى جودة الرصف وحسن النظم :

«أجناس الكلام المنظوم ثلاثة : الرسائل والخطب والشعر . وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب . وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا . وسوء التأليف مع رداءة الرصف والتركيب شعبةٌ من التعمية ^(١) . فإذا كان المعنى سبيا ، ورصف الكلام رديا ، لم يوجد له قبول ولم تظهر عليه طلاوة . وإذا كان المعنى وسطا ، ورصف الكلام جيدا ، كان أحسن موقعا وأطيب مستمعا ، فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعا فى المرأى وإن لم يكن مرتفعا جليلا ، وإن اختل نظمه فضمت الحبة إلى ما لا يليق بها اقتحسته العين وإن كان فائقا ثمينا . وحسن الرصف أن توضع الالفاظ فى مواضعها وتمكن فى أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة إلا حذفًا لا يفسد الكلام ولا يعنى المعنى ... وسوء الرصف تقديم ما ينبغى تأخيره منها وصرفها عن وجوها وتغيير صيغتها ومخالفة الاستعمال فى نظمها ^(٢) .

ولا يستطيع وضع لغة التأليف فى مثل هذه السهولة وهذه الدقة إلا الكتاب المتفوقون . وانظر أيضا قوله :

«البلاغة ليست مقصورة على أمة دون أمة ، ولا على ملك دون سوقة ، ولا على لسان دون لسان ، بل هى مقسومة على أكثر الألسنة . فهم فيها مشتركون ، وهى موجودة فى كلام اليونان وكلام العجم وكلام الهند وغيرهم ، ولكنها فى العرب أكثر لكثرة تصرفها فى النثر والنظم والخطب والكتب والسجع والمزدوج والرجز ، وهم أيضا متفاوتون فيها ، فقد يكون العبد بليغا ولا يكون سيده ، وتكون الأمة بليغة ولا تكون ربها ، فالبلاغة قد تكون فى أعراب البادية دون ملوكها ، وقد يحسنها الصبي والمرأة ^(٣) .

(١) السي ، هنا ، معناه الجيد ، والسبية : الدرة . (٢) ص ١٢٠ إلصناعين .

(٣) ص ٢١٣ التفضيل بين بلاغى العرب والعجم ضمن مجموعة التحفة البهية طبع الآستانة .

وجمال هذه الفقرة يرجع الى دقتها وسلامتها من الفضول ، وفيها صورة لفهم رجال ذلك العهد لمواقع البلاغة ، فهي في رأيهم ليست وقفا على أمة دون أمة ، ولكنهم يشعرون أن العرب أقدر الناس على الكلام البليغ ، ولا يمكن أن يطالب الرجل بغير ذلك ، فمن الصعب أن يدرك الناقد أن هناك لغة أجمل من لغته ، إذ كان تذوق الأساليب يرجع الى طول الألفة والصدقة الروحية لأسرار الكتاب والشعراء . وفي رأي أن البلاغة كالموسيقا لا تفهم ولا تُذاق إلا بطول السماع ، فهناك ألحان شرقية بديعة لا يدرك جمالها إلا الشرقيون ، ولو سمعها الغربيون لسخروا منها وعدوها من عبث الرعاع . وهناك ألحان غربية دقيقة لا يقدرها إلا الغربيون ، ولو سمعها الشرقيون لسدوا آذانهم وقالوا هذه همهمة الأعجم !

٨ — وكان أبو هلال يحمي الشعر ، ويضع شعره في طبقة أشعار المفلقين ، فينشده في الصناعتين مستشهدا به كما يستشهد بشعر أبي تمام والبحري ، أو النابغة وامرئ القيس ، ومن إليهم من القدماء والمحدثين ، وهذا يدل على اعتداده بقيمته الفنية ، ونحن كذلك نراه من الشعراء المحيدين ، فنستحسن قوله — وقد أنشده في باب المطابقة — :

قل لمن أدنيه جهدي	وهو يقصيني جهده
ولمن ترضاه مولا	ك ولا يرضاك عبده
أملح بملح الشـ	كل أن يخلف وعده
أم جميل بجميل الـ	وجه أن يتقض عهده
ما الذي صدك عني	ليت ما صدك صدده ^(١)

ونستجيد قوله في تفضيل الشتاء على غيره من الأزمنة :

إن روح الشتاء خلّص روي	من حرور تشوى الوجوه وتكوى
برد الماء والهواء كأن قد	سرق البعد من جوانح خلّو

ريحه تلمس الصدور فتشفي	وغماماته تصوب فتروى
لست أنسى منه دمانه دجن	ثم من بعده نصارة صحو
وجنوبا يبشر الأرض بالقط	بركبا بشر العليل بـبرو
وغيوما مطر زات الحواشي	بوميض من البروق وخفو
كلما أرخت السباء عراها	جمع القطر بين سفل وعلو
وهي تعطيك حين هبت شمالا	برد ماء فيها ورقة جـو
وليال أطلن مدة درسي	مثما قد مددن في عمر ^(١) طوى

(١) ص ١٣٨ ج ٣ يا قوت .

٩ - كتاب الصناعتين

١ - أجمل أثر لأبي هلال العسكري هو كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر . وقد أراد أن يودعه جميع ما يحتاج اليه في صنعة الكلام نثره ونظمه ، من غير إخلال ولا إسماب ، وجعله عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلا ، تكلم فيها عن موضوع البلاغة ، وتميز الكلام جيده من رديئه ، والإيجاز والإطباب ، وحسن الأخذ وقبحه ، والتشبيه والسجع والازدواج ، والبديع وفنونه ، الخ .

والغاية من علم البلاغة فيما بص أبو هلال هي أن يعرف المتأدب إعجاز القرآن . وهي فكرة كثيرة الذبوع عند المتقدمين : فعلموا اللغة العربية في عرفهم إنما وضعت لفهم القرآن المجيد ، وهم يريدون أن يطمئن المؤمن الى إعجاز القرآن اطمئنانا مؤسسا على قواعد من البيان تحمل المنصف على الإقرار بإعجاز ذلك الكتاب . وهناك غايات ثانوية منها فهم الأدب ومنها القدرة على إجادة الإنشاء . وقد أشار أبو هلال الى أن الكتب المصنفة في ذلك الفن كانت لعهد قليل وأنها أشهرها كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وهو في رأيه كتاب جم المنافع لما آشتل عليه من جيد الفصول والفقر والخطب والأخبار ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة ماثورة في تضاعيفه : فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير .^(٢)

٢ - كتاب الصناعتين كتاب جيد ، تشعر وأنت تقرؤه أنه كتاب نادر المثال ، والمؤلف قوى الشعور بذلك ، فإنا نراه يقول بعد أن شرح نعوت البلاغة ووجوه البيان والفصاحة : « ولم يسبقني الى تفسير هذه الأبواب وشرح وجوهها أحد ، وإنما اقتصر من كان قبلي على ذكر تلك النعوت عارية مما هي مفتقرة اليه من إيضاح غامضها ، وإنارة مظلمها ،

فكان المنفعة بها للعالم دون المتعلم ، والسابق دون اللاحق ، وربما اعترض الشك فيها للعالم المبرز؛ فسقطت عنه معرفة كثير منها، وأنت أيدك الله تعتمد ما ذكرته من ذلك؛ وتأتّم بما شرحه منه ، وتستدل به على ما ألفتيه من جنسه إذا عثرت به ، لتستغنى عن جميع ما صنف في البلاغة، وسائر ما ذكر من أصناف البيان والفصاحة، إن شاء الله^(١) .

ونراه يقول بعد أن تكلم عن قبح الأخذ : «وقد أتيت في هذا الباب على الكفاية، ولا أعلم أحدا ممن صنف في سرق الشعر فمثل بين قول المبتدئ وقول التالى وبين فضل الأول على الآخر والآخى على الأول غيرى ، وإنما كان العلماء قبلى ينبهون على مواضع السرق فقط، فقس بما أوردته على ما تركته ، فانى لو استقصيته لخرج الكتاب عن المراد^(٢) .

٣ — وأول ما يلاحظ في كتاب الصناعتين أنه كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد، فان المؤلف ينتهز جميع الفرص ليعرض للقارئ طرائف النثر الجيد والشعر البليغ، وهو لا يكتفى بشاهد واحد، وإنما يندفع فينتقل من رسالة أنيقة الى حكمة بليغة، ومن بيت جيد الى قطعة مختارة . وقد بقى كتاب الصناعتين لذلك مرجعا لأجل ما أنتجتته القرائح العربية : ففيه نماذج من النثر البليغ قد يندر أن نجدها في كتاب سواه، واليك هذه الدرة التى نقلها عن كثير ابن هراسة فى وصية ابنه :

”يا بنى ! إن من الناس ناسا ينقصونك اذا زدتهم ، وتهون عليهم اذا أكرمتهم ، ليس لرضاهم موضع فتقصده، ولا لسخطهم موقع فتحذره، فاذا عرفت أولئك بأعيانهم ، فأبد لهم وجه المودة وأمنعهم موضع الخاصة ، ليكون ما أبديت لهم من وجه المودة حاجزا دون شرهم وما منعتهم من موضع الخاصة قاطعا بحرمتهم^(٣) .

٤ — ومن أظهر الدلائل على أنه كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد أنه يكثر من الاستطراد، والاستطراد هو المنهج الغالب على كتب الأدب الخالص، وهو منهج جميل كان يريد به القدماء نشر المعارف الأدبية، أو ما يسمى اليوم بالثقافة العامة، ومن أمثلة

استطاعه أنه أراد أن يضرب مثلاً للعلم الكثير في القول اليسير فقال : وسئل بعض الأوائل :
ما كان سبب موت أخيك ؟ قال : كونه ! ... وهنا مضى أبو هلال يخبرنا أن الناس تنازعوا
هذا المعنى . فقد قيل لأعرابي : كيف حالك ؟ فقال : ما حال من يفنى ببقائه ، ويسقم بسلامته ،
ويؤتى من مأمته . وأن النبي عليه السلام قال : كفى بالسلامة داء . وأن حميد بن ثور قال :

أرى بصرى قد رابى بعد صحة وحسبك داء أن تصح وتسلما
وقال آخر :

كانت قناتي لا تلين لغامر فالأنها الإصباح والإمساء
ودعوت ربي بالسلامة جاهدا ليصحني فإذا السلامة داء
وقال ابن الرومي :

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة اذا زال عن نفس البصير غطاؤها
وكيف بقاء العيش فيها وانما ينال بأسباب الفناء بقاءها
وقريب من ذلك قول محمد بن علي : مالك من عيشك إلا لذة تردلف بك إلى حمامك ،
وتقربك من يومك . فأية أكلة ليس معها غصص ، وشرية ليس معها شرقي ؟ فتأمل أمرك .
(١)
فكأنك قد صرت الحبيب المفقود أو الخيال المحترم . وقال أبو العتاهية :

* أسرع في نقص امرئ تمامه *

ولم يكتف بهذا أبو هلال ، بل ذكر أن أول من نطق بهذا المعنى النمر بن تولب
في الجاهلية إذ قال :

يود الفتى طول السلامة والغنى وكيف يرى طول السلامة يفعل
يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ينوء اذا رام القيام ويميل

ثم ذكر من الأمثال : كل من أقام شخص ، وكل من زاد نقص . وأضاف الى ذلك
شيئا من مختار شعره في هذا المعنى .
(٢)

(١) في الأصل « الجيب » وهو تحريف ، والتصويب عن الكامل ج ١ ص ٨٧ طبعة الخشاب .

(٢) راجع ص ٢٧ — ٢٩

هـ - وما يؤخذ عليه أبو حلال أنه يهمل أسماء الكتاب والشعراء في كثير من الشواهد، كأن يقول: كتب بعضهم إلى أخ له^(١) "أما بعد فإن المرء ليسر درك ما لم يكن ليقوته، ويسوء فوت ما لم يكن ليدركه، فليكن سرورك فيما قدمت من خير، وأسفك على ما فاتك من بر" وكأن يقول: "كتب بعضهم يصف رجلا فقال: "أما بعد فإنك قد كتبت تسأل عن فلان كأنك قد همت بالتقدم عليه، أو حدثت نفسك بالوقود إليه، فلا تفعل، فإن حسن الظن به لا يقع إلا بخذلان الله تعالى، وإن الطمع فيما عنده لا يخطر على القلب إلا بسوء التوكل على الله تعالى، والرجاء لما في يديه لا ينبغي إلا بعد اليأس من رحمة الله تعالى، لا يرى إلا أن الإقنار الذي نهى الله عنه هو التبذير الذي يعاقب عليه، والاقتصاد الذي أمر به هو الإسراف الذي يغضب منه... وأن مواساة الرجل أخاه من الذنوب الموبقة، وأفضاله عليه إحدى الكبائر المرحقة، وأن الله تعالى لا يغفر أن يؤثر المرء على نفسه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء!"

٦ - ويكثر أبو حلال من كلمة "قال الشاعر، وقال الآخر" من غير تعيين، وهذا عيب لم ينفرد به، وإنما هو عيب غالب على أكثر المؤلفين في اللغة العربية، وصلنا به إلى الجهل المطبق بتمييز العصور بعضها من بعض، ولو نسبت كل كلمة إلى قائلها لعرفنا كثيرا من تطورات المعاني والألفاظ والأساليب.

٧ - وسر البلاغة عند أبي حلال يرجع إلى الألفاظ "وليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي، والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه" ودنياه على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة، ما عملت لإدهام المعاني فقط، لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام. ودليل آخر عنده أن الكلام إذا كان لفظه حلوا عذبا ومعناه وسطا دخل في جملة الجيد، وإذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا فاترا - والفاتر شر من البارد - كان مستهجننا ملفوظا، ومذموما مردودا^(٢).

وقد ضرب المثل فيما سبق بالعقد المنظوم : فانه يكون أروع إذا جعلت كل خرزة منه إلى ما يليق بها وإن لم يكن مرتفعاً جليلاً ، وإن اختل نظمه فضمت الحبة منه إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقاً ثميناً .

وقد عرض في باب التميم إلى قول الخنساء :

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وبين أنه مأخوذ من قول الأعشى :

وتدفن منه الصالحات وإن يُسئ يكن ما أساء النار في رأسي كبكبا

إلا أنها أخرجه في معرض أحسن من معرض الأعشى . ثم قال : ” وهذا دليل على

صحة ما قلناه من أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ وتجميل الصورة ^(١) ”

٨ — وحسن اللفظ عند أبي هلال موقوف على جمال المعنى ، فلا خير فيما أجيد لفظه

إذا سئف معناه ^(٢) . والكلام عنده بسلاسته وسهولته وتخير لفظه وإصابة معناه وجودة مطالعه واستواء تقاسيمه ، مع عدم ضروراته بحيث يكون المنظوم مثل المنشور في حسن رصفه وتأليفه ، وكإل صوغه وتركيبه ^(٣) . وهو يفضل الكلام السهل ، ويراه أدل على قدرة الشاعر والكاتب ^(٤) .

وهذا حق : فإن سهولة الكلام تحتاج إلى صنعة ومهارة وحذق ، وليس في مقدور كل كاتب أن يخاطب الناس جميعاً بما يفهمون في لغة سهلة تجرى إلى أذنانهم وعقولهم وأذواقهم ، ثم تظل مع ذلك فوق قواهم لا يستطيعون أن يأتوا بشئ من مثل ما فيها من الألفاظ المتخيرة ، والمعاني الشريفة ، والخيال الجميل .

وقد ضرب المثل للسهل الممتع بقول العباس بن الأحنف :

إليك أشكوب ما حلّ بي من صدّ هذا التائه المعجب

إن قال لم يفعل وإن سيل لم يبذل وإن عوتب لم يُعتب

صبّ بعضياني ولو قال لي لا تشرب البارد لم أشرب

وقول البحترى :

أيها العاتب الذى ليس يرضى ثم هنيئا فلست أطمع غمضا
إن لى من هوائك وجدا قد استمر ملك نومي ومضجعا قد أفضا
بخفوني فى عبرة ليس ترقا وفؤادى فى لسوعة ما تقضى
بأبى شادن تعالق قلبى يحفون فواتر اللحظة مرضى
لست أنساه إذ بدا من قريب يتثنى تثنى الغصن غضا
واعذارى إليه حين تجافى لى عن بعض ما أتيت وأغضى
واعتلاقى تفاح خديه تقيبه ملا ولثا طورا وشما وعضا

وقول الآخر :

صرفت القلب فانصرفا ولم ترع الذى سلفا
وبنت فلم أذب كمدًا عليك ولم أمت أسفا
كلانا واجد فى الناء س ممن مله خلفا

ولكن السهولة عند أبى هلال شىء آخر غير الليونة ، فالكلام الذى يسهل حتى يصل
إلى الرخاوة والانحلال ردىء مردود .^(١)

والكلام الجزل يبيىء بعد السهل فى الرتبة ، والجزل فى رأيه هو الذى تعرفه العامة إذا
سمعته ولا تستعمله فى محاوراتها . والفرق بين السهل والجزل على هذا أن السهل تفهمه العامة
وتطمع فيه مع عجزها عنه ، أما الجزل فهو ما تفهمه العامة وشعر مع فهمها له أنها لا تقدر عليه .
والجزالة عند أبى هلال شىء آخر غير الوعورة ، فهى الجمع بين القوة والسهولة ، كقول
سعيد بن حميد :

”وأنا من لا يحاجك عن نفسه ، ولا يفاطك عن جرمه ، ولا ياتمس رضاك إلا من جهته ،
ولا يستدعى برك إلا من طريقته ، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ، ولا يستميلك

إلا بالاعتراف بالجرم . نبت بى عنك غيرة الحداثة، وردتنى اليك الحنكة، وباعدتنى منك الثقة بالأيام ، وأدنتنى اليك الضرورة. فان رأيت أن تستقبل الصنيعة بقبول العذر، وتجدد النعمة بآطراج الحقد، فان قديم الحزيمة وحديث التوبة يحقان ما بينهما من الإساءة، فان أيام القدرة وان طالت قصيرة، والمتعة بها وان كثرت قليلة، فعلت^(١) .

ومما هو أجزل من هذا قول الشعبي للحجاج وقد أراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث :
 ”أجذب بنا الجنب، وأحزن بنا المنزل، واستحلنا الحذر، واكتحنا السهر، وأصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا بغيرة أقوياء“ فعفا عنه^(٢) .

ومع اهتمام أبى هلال باللفظ نراه ينص فى مكان آخر على أن المدار على إصابة المعنى ، وأن المعانى تحل من الكلام محل الأبدان ، والألفاظ تجرى معها مجرى الكسوة^(٣) . وهنا ينافى رأيه الأول، فضلا عن ضعف تشبيه المعانى بالأبدان والألفاظ بالأثواب ، وكان أولى لو شبه الألفاظ بالأجسام والمعانى بالأرواح . وفى رأيه أنه يجب أن يُفَرَّق بين المعنى والغرض، لأن ما جرى عليه أبو هلال وغيره من كتاب النقد والبيان يرتكز على وحدة البيت فى الشعر، وعلى وحدة الفاصلة فى النثر، مع أنه يجب التفكير فى وحدة الغرض الذى سيق من أجله الكلام، وبذلك نقل النقد الى أفق أوسع، وتكون المعانى الجزئية وحدات تتكون منها الرسالة أو الخطبة أو القصيدة، كما ينظم العقد من حبات الجمان^(٤) .

وهناك أبواب فى كتاب الصناعتين تشعر بنفحات الأدب الجميل، وان لم تكن فى جملتها من مبتكرات أبى هلال . ففى باب الالتفات شواهد بديعة مسندة الى الأصمعى إذ قال :
 أتعرف التفاتات جرير؟ قلت : لا، قال :

أتنسى إذ تودعنا سليمى بعود بَشامة؟ سُبْقَى البَشَامِ

(١) ص ٤٩ (٢) استحلنا الحذر : اتخذناه حلسا . والجلس بالكسر كساء على ظهر البعير تحت البرذعة ويسط فى البيت . (٣) ص ٤٩ (٤) ص ٥١ (٥) انظر الصفحات ٩٣ — ١٠٢ من كتاب (الموازنة بين الشعراء) .

ألا تراه مقبلا على شعره (لعل الصواب شأنه) ثم التفت الى البشام فدعا له ؟

وقوله :

طرب الحمام بذى الأراك فشاقتي ^(١) لازلت في علل وأيك ^(٢) ناظر

وفي باب الرجوع يمثل بقول القائل : ليس معك من العقل شيء، بلى بمقدار ما يوجب
الجمحة عليك . وقول الشاعر :

أليس قليلا نظرة ان نظرتها اليك ؟ وكلا ليس منك ^(٣) قليل

وفي تجاهل العارف يتحفنا بهذه القطعة النفيسة من ثره هو — طيب الله ثراه — إذ يقول
«سمعت بورود كتابك، فاستفزني الفرح قبل رؤيته، وحزن عطني المرح أمام مشاهدته،
فما أدري أستمعت بورود كتاب، أم ظفرت برجوع شباب، ولم أدر ما رأيت : أخط مسطور،
أم روض مطور؟ وكلام منشور، أم وشى منشور؟ ولم أدر ما أبصرت في أشائه : أبيات
شعر، أم عقود در؟ ولم أدر ما حملته : أغيث حل بوادي ظمان، أم غوث سيق الى لطفان»^(٤)
وقد يلاحظ أن أبا حلال يغالى أحيانا في نقده ، فيؤاخذ مثلا أوس بن حجر في قوله ؛
ولست بخابئ أبدا طعاما حدار غدة لكل غد طعام

لما تكرر فيه من لفظ غدة ^(٥) .

ونحن لا نطالب أبا حلال بأن يصيب في كل أحكامه ، فذلك مطلب عسير، وإنما يكفي
أن نقول إن كتابه يضع القارئ في حركة فكرية متصلة . وأنا شخصيا مدين له ، فقد قرأته أكثر
من عشرين مرة ، وأشعر كلما عدت اليه بأنه كتاب جديد يُقرأ لأول مرة، وذلك أقصى
ما يطلب من الكتاب النفيس .

(١) اللال ، بالتحريك ، اشرب بعد الشرب تبادا . (٢) ص ٣١٠ (٣) ص ٢١٣

(٤) ص ٣١٤ (٥) ص ٤١

١٠ - أبو على الحاتمي

١ - أبو على محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي من الشخصيات القوية التي غابت أخبارها عن الناس فلم يعرفها منهم إلا القليل : وسبب ذلك يرجع إلى أن جمهورنا لا يعرف من أعيان الشعر والنثر والنقد إلا من وصلت إليه من آثارهم صُبايات كافية تميّط اللثام عن بعض الجوانب من أدبهم المجهول . ونحن من بين الأمم لا نعرف من أدبنا القديم إلا قليلا ، لأن نهضتنا الحديثة تشبه يقظة الخمر الذي ينظر حواليه فتراءى له صور وأشباح لا يميزها إلا بجهد شديد . من أجل ذلك قل عندنا من صحت عزيمته على النظر إلى أدب العرب بمثل ما ينظر الأوربيون إلى أدب اليونان والرومان . وسيرى القارئ في هذا الفصل بوارق من ذهن الحاتمي تشعره بأن من الخجل أن يُنسى مثل هذا الرجل في عصر يزعم ناشئوه أنهم طلاب مجد وأنهم حريصون على وصل ما انقطع من تراثهم الفكري المجيد .

٢ - ألف أبو على الحاتمي عدّة كتب في اللغة والأدب والنقد، منها حلية المحاضرة في صناعة الشعر ، والموضحة في مساوى المتنبي ، والهللابة في صناعة الشعر ، وسر الصناعة في الشعر أيضا ، والحالى والعاطل في الشعر كذلك ، وكتاب المجاز في الشعر أيضا . وهذا الإلماح^(١) في الكتابة عن الشعر يدل على أنه كان من المولعين بدرس الشعر ونقده وأنه كان من أئمة زمانه في هذا الباب . وقد ضاعت كتبه النقدية مع الأسف الموجه ، ولم يبق منها إلا شواهد ضئيلة تذكر الحسرة في أنفس من يقدرّون قيمة النقد الحق في دلائله على ثقافة الذهن ، ومثانة العقل ، وسلامة الذوق ، وإفصاحه عن تطور الحياة العقلية في مختلف الأجيال .

ولنسارع فنقدم للقارئ كلمة حفظت في " زهر الآداب " تمثل فهم الحاتمي لوحدة

القصيد إذ يقول :

«مَثَلُ الْقَصِيدَةِ مَثَلُ الْإِنْسَانِ فِي اتِّصَالِ بَعْضِ أَعْضَائِهِ بِبَعْضٍ ، فَتَمَّتْ انْتِصَالُ وَاحِدٍ عَنِ الْآخَرِ وَبَيْنَهُ فِي صِحَّةِ التَّرَكِيبِ غَادِرُ الْجَسْمِ ذَا عَاطَةِ تَنْقُتُونَ مُحَاسِنَهُ ، وَتَعْنَى مَعَالِمِهِ . وَقَدْ وَجَدْتُ حَذَاقَ الْمُتَقَدِّمِينَ ، وَأَرَبَابَ الصَّنَاعَةِ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ ، يَحْتَرِسُونَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ احْتِرَاسًا يَجْنِبُهُمْ شَوَائِبَ النِّقْصَانِ ، وَيَقِفُ بِهِمْ عَلَى حُجَّةِ الْإِحْسَانِ ، حَتَّى يَقَعَ الْإِتِّصَالُ ، وَيُؤْمِنُ الْإِتِّصَالُ ، وَتَأْتِي الْقَصِيدَةُ فِي تَنَاسُبِ صَدُورِهَا وَأَعْجَازِهَا ، وَانْتِظَامِ نَسِيبِهَا بِمَدِيحِهَا ، كَالرَّسَالَةِ الْبَلِیْغَةِ وَالْخُطْبَةِ الْمَوْجِزَةِ لَا يَنْفَصِلُ جُزْءٌ مِنْهَا عَنْ جُزْءٍ . وَهَذَا مَذْهَبُ اخْتِصَاصِ بِهِ الْمُحَدِّثُونَ لِنُوقَدِ خَوَاطِرَهُمْ ، وَلُطْفِ أَفْكَارِهِمْ ، وَاعْتِمَادِهِمُ الْبَدِيعَ وَأَفَانِيَّتِهِ فِي أَشْعَارِهِمْ ، وَكَأَنَّهُ مَذْهَبُ سَهْلَوَا حَزَنَهُ ، وَنَهَجُوا دَارِسَهُ . فَأَمَّا النُّحُولُ الْأَوَائِلُ وَمَنْ تَلَاهَمُ مِنَ الْمُخَضَّرِينَ وَالْإِسْلَامِيِّينَ فَمَذْهَبُهُمُ التَّعَالَمُ عَنْ كَذَا إِلَى كَذَا ، وَقَصَارَى كُلِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَصَفُ نَاقَتِهِ بِالْعَتَقِ وَالنَّجَابَةِ وَالنَّجَاءِ ، وَأَنَّهُ امْتِطَاهَا فَادَّرَعَ عَلَيْهَا جِلْبَابَ اللَّيْلِ . وَرَبَّمَا اتَّفَقَ لِأَحَدِهِمْ مَعْنَى لَطِيفٌ يَتَخَلَّصُ بِهِ إِلَى غَرَضٍ لَمْ يَعْتَمِدْهُ ، إِلَّا أَنْ طَبَعَهُ السَّلِيمُ ، وَصَرَاطُهُ فِي الشَّعْرِ الْمُسْتَقِيمِ ، نَضًا بَتَارَهُ ، وَأَوْقَدَ بِالْبَقَاعِ نَارَهُ . فَمَنْ أَحْسَنَ تَخْلُصَ شَاعِرٍ إِلَى مَعْتَمَدِهِ قَوْلُ النَّابِغَةِ الذِّبْيَانِي :

فَكَفَكَفَتْ عَنِّي عِبْرَةٌ فَرَدَدْتُهَا	عَلَى التَّحَرُّمِ مِنْهَا مَسْتَهْلٌ وَدَامُعٌ
عَلَى حِينَ عَاتَبْتَ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا	وَقُلْتَ أَلْمَا أَصَحَّ وَالشَّيْبَ وَازِعَ
وَقَدْ حَالَ حَمٌّ دُونَ ذَلِكَ شَاغِلٌ	مَكَانَ الشَّغَافِ تَبْغِيهِ الْأَصَابِعُ
وَعِيدَ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ	أَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضُّوَاجِعُ

وَهَذَا كَلَامٌ مُتَنَاسِبٌ تَقْتَضِي أَوَائِلَهُ أَوَاخِرَهُ ، وَلَا يَتَّيْزِمُنُهُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ . وَلَوْ تَوَصَّلَ إِلَى ذَلِكَ بَعْضُ السَّعْرَاءِ الْمُحَدِّثِينَ الَّذِينَ وَاصَلُوا تَفْتِيشَ الْمَعَانِي ، وَفَتَحُوا أَبْوَابَ الْبَدِيعِ ، وَاجْتَنَوْا ثَمَرِ الْآدَابِ ، وَفَتَحُوا زَهْرَ الْكَلَامِ ، لَكَانَ مَعْجَزًا عَجَبًا ، فَكَيْفَ يَجَاهِلُ بَدْوِي إِنَّمَا يَغْتَرَفُ مِنْ قَلْبِ قَلْبِهِ ، وَيَسْتَمَدُّ عَفْوً حَاجِسَهُ .^(١)

أليس في هذه الفقرات دليل على أن الحاتمي كان بعيد الغور في نقد الشعر؟ ألا تسمو نظراته هذه الى أدق ما وصل اليه النقد في العصر الحديث؟ وأي تمثيل أصدق من تمثيل القصيدة بالإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض؟ يضاف الى ذلك جرأته في رمي الجاهليين ومن تلاهم من المخضرمين والإسلاميين بقلة الفهم لأسرار الصناعة، وقصر ذلك على المحدثين الذين توقدت خواطرهم ولطفت أفكارهم واعتمدوا أفانين البديع . وإنما عددنا ذلك جرأة لأن الرأي الغالب في تلك الأيام كان يميل الى تفضيل القدماء واختصاصهم بالإمامة في الشعر ورمي من عداهم بالتخلف والإسفاف . على أن الحاتمي لم يفته أن يقتر أن البدوى الجاهل قد يغترف من قلب قلبه ويستمد عفوا جسه فيأتي بالمعجز الذي يعز أحيانا على العارفين بأسرار البيان .

٣ - ولكن هذه البراعة التي يمثلها ما بقي للحاتمي من الشذرات القليلة لم ترتفع به كثيرا في الأوساط الأدبية لعصره ولم يتحدث عنه من معاصريه إلا القليل . فما تعليل ذلك؟ إننا نفترض أن نحول الحاتمي يرجع الى انصراف الناس عنه لصلفه وكبريائه وذهابه بنفسه الى أبعد غايات الزهو والخيلاء ، وقد حدثنا ياقوت أنه كان مبغضا الى أهل العلم فهجاه ابن الجراح وغيره بأهـاج مرة . ولم يكن لهذا البغض من سبب فيما نفترض غير إسراف الحاتمي في العجب ودعواه التفرد بالحنق واللوزعية والذكاء . والخذلة من أخطر ما يرزأ به العلماء والأدباء وهي تجلب الى أصحابها من ألوان العداوة والبغضاء ما يذهب بما لهم من وطيد المجد وكريم الصيت . وقد يتفق لأهل العلم والأدب أن يُشغلوا بالإعلان عن مواهبهم وكفاياتهم فيكون ذلك أسرع الى هدمهم وتهوين أقدارهم في أنفس الناس . وكيف لا يضيق الجمهور صدرا بخذلة الحاتمي وهو يقول عن نفسه في مقدمة كتاب وضعه في سر صناعة الشعر :

«وقد خدمت سيف الدولة — تجاوز الله عن فرطاته ! — وأنا ابن تسع عشرة سنة تميل بي سنة الصبا وتنفاد بي أريحية الشباب بهذا العلم ، وكان كلفا به علقا علاقة المغرم

بأجله ، متبعا عن أسرارهِ . وُوزِنَتْ في مجلسه تكمة وإدناء وتسوية في الرتبة — ولم تفسر خدای عن عذرهما — بأبي علي الفارسي وهو فارس العربية وحائز قصب السبق فيها منذ أربعين سنة ، وبأبي عبد الله بن خالويه وكان له السهم الفائق في علوم العربية تصرفا في أنواعه ، وتوسعا في معرفة قواعده وأوضاعه ، وبأبي الطيب اللغوي وكان كما قيل حُفَّت الكلمة الشرود حفظا وتيقظا ، ونازعت العلماء ومدحت في مصنفاتهم ، وعُدَّت في الأفراد الذين منهم أبو سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الرمانی وأبو سعيد المعلى ، واتخذت بعضا ممن كان يقع الايذاء عليه سخرة ، وأما إذ ذاك غزير الغرارة ، تميد بي أسرار السرور ، ويسرى على رخاء الاقبال ، وأختال في ملأه العز في بُلْهنية من العيش وخنض من النعيم ، وخطوب الدهر راقدة وأيامه مساعدة .

فعلام يدل هذا الكلام ؟ ألا يدل على أن الحاتمي كان مفتونا بنفسه أشد الفتنة ، ومسرغا في الزهو أشع الاسراف ؟ وقد نفهم أن يدافع الرجل عن نفسه فيذكر من مناقبه ومحامده ما يشاء حين يرى الجمهور يحدد فضله ، ويطمس محاسنه ، ولكنا نعرف كذلك أن هذا لا يقع إلا من المشغوفين بالشهرة والصيت : لأنهم يتوهمون دائما أنهم مغبونون ، وأن الجمهور لفضلهم كنود .

٤ — وقد أصطدم كباراء الحاتمي بكبرياء المتنبي ، وكانا متعاصرين يضر كلاهما لصاحبه أقم ألوان البغضاء . والشاعر والناقد حين يختصمان يصلان الى أبشع صور التحامل والعنوان ، ولا سيما إذا أصطبغت الخصومة بصبغة سياسية ظاهرها التعصب للأدب وباطنها التحزب الشنيع . وهذا هو الذي وقع في خصومة الحاتمي للمتنبي : فقد كان الحاتمي صديقا أو تبعا للوزير المهلبی ، وكان المهلبی يبغض المتنبي بغضا شديدا لترفعه عن مدحه واتصاله بأنداده من الوزراء والرؤساء ، وكذلك تربص الحاتمي وآنظر قدوم المتنبي الى بغداد لينظره ويؤلب العامة عليه ويژهدهم في شعره ، فتم له من ذلك بعض ما أراد .

٥ — ترك الحاتمي رسالتين في نقد المتنبي : أولاهما خلاصة ما جرى في المجلس الذي تلاها فيه لأول مرة ، وهي رسالة مغرضة بالطبع ، لأنه تكلم وحده وقصّ ظروف المناظرة على هواه . ولكن ذلك لا يمنع من أن نصدق الحاتمي حين يذكر أنه ضليق المتنبي ، لأننا نعرف أن كل ناقد أقوى من كل شاعر ، لأن كل معول يؤثر في كل بناء ، والناقد يستطيع كل شيء . متى آستباح لنفسه الظلم واختلاق العيوب . والمتنبي كان رجلا واسع الشهرة ، والمشاهير في الغالب جبنا : يتوهم أكثرهم أن سوء القالة يذهب بأجد الأعمال ، ويأتي على أرفع الأقدار . وبعض هذا الوهم صواب .

ولنترك الحاتمي يتحدّث قليلا لنرى خيلاءه وقد قارع المتنبي :

« كان أبو الطيب المتنبي عند وروده مدينة السلام التحف رداء الكبير ، وأذال ذيول التيه ، وصعّر خده ، ونأى بجانبه ، وكان لا يلقى أحدا إلا نافضا مذرويه ^(١) ، رافلا في التيه في برديه ، يتخيل إليه أن العلم مقصور عليه ، وأن الشعر بحر لم يغترف نيم مائه غيره ، وروض لم يرع نواره سواه ، فدل بذلك مُديدة ... حتى تخيل أنه القريع الذي لا يقارع ، والتريع الذي لا يجارى ولا ينازع ، وأنه رب الغلب ، ومالك القصب ، وثقلت وطأته على أهل الأدب بمدينة السلام فظا طاكثير منهم رأسه ، وخفض جناحه ، وطامن على التسليم له جأشه ، تخيل أبو محمد المهلب أن أحدا لا يقدر على مساجلته ومجاراته ولا يقوم لتبعه بشيء من مطاعنه . وساء معز الدولة أن يرد عن حضرة عدوه رجل فلا يكون في مملكته أحد يمثله في صناعته ويساويه في منزلته ، نهدت حينئذ متبعا عواره ، ومتعقبا آثاره ، ومطفيا ناره ، ومهتكا أسرارته ، ومقلما أظفاره ، وناشرا لمطاويه ، وممزقا جلباب مساويه ... الخ » .

والرسالة تقع في أربع عشرة صفحة كلها مقارعة ونضال ، وهي تمثل طريقة الحاتمي في الكتابة ومذهبه في النقد ، وفيها فقرات قوية ، كقوليه يجب المتنبي وقد سأله عن خبره

(١) المذروان بالكسر أطراف الآية ، بلا واحد ، أو هو المذرى ، ومن الرأس ناحيته ، ومن القوس ما يقع عليها طرف الوتر من أعلى وأسفل . وجاء ينفض مذرويه بأغيا متهددا (قاموس) .

(٢) ياقوت ج ٦ ص ٥٦٥ وقد وردت القصة أيضا في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٣٢ باختلاف قليل .

في تناقل وفتور : ”أنا بخير، لولا ما جئيت على نفسي من قصدك ، وكلفت قدمي في المسير الى مثلك“^(١) ونقدات الحاتمي في هذا المجلس لا تخرج عن أخذ المتنبي بالسرققات الشعرية وسوء التعبير في طائفة من الأبيات اشتهر أمرها بين الناقدين . وقد ختمت هذه الرسالة بفقرات تفصح عن سرور المهلبي ومعز الدولة بهزيمة المتنبي ؛ وهي كذلك دليل ما وصفنا به الحاتمي من الإسراف في التيه والخيلاء .

٦ — أما الرسالة الثانية فهي أعظم أثر وصلنا عن الحاتمي ، وهي رسالة ردّ فيها حكم المتنبي الى أصولها من كلام أرسططاليس ، وقد وضع لها مقدمة صغيرة أراد أن يشعرنا بها أنه في نقده عف نزيه إذ حدثنا أنه يدافع عن المتنبي ”حين أنهم بسرقة ما في شعره من أغراض فلسفية ومعان منطقية“^(٢) لأن ذلك إن كان وقع من المتنبي ”عن فحص ونظر وبحث فقد أغرق في درس العلوم ، وإن يكن ذلك منه على سبيل الاتفاق فقد زاد على الفلاسفة بالإيجاز والبلاغة“^(٣) وهو في الحالين على غاية من الفضل ، ونهاية من النبل .

وقد رأيت بعد الاطلاع على هذه (الرسالة الحاتمية) أن صاحبنا نال من المتنبي باللفظ ما لم يناله بالعنف ، فقد أخذ يسرد كلمات أرسططاليس ثم يعتبها بشعر المتنبي ، فاستطاع بذلك أن يفصح المتنبي فضيحة شنعاء . وفي الحق أن هذا العمل كان غاية في اللؤم من جانب الحاتمي ، لأن حكم المتنبي تبدو فطرية لأوّل وهلة ، وذلك سر سحرها في أنفس القراء ، ولكنها تبدو متكلفة مصنوعة حين تُقرن الى ما نقلت عنه من كلام أرسططاليس ، وذلك سهم من النقد مسموم .

ومن أمثلة ذلك أن يقول المتنبي :

فان قليل الحب بالعقل صالح وإن كثير الحب بالجهل فاسدُ

وهو بيت مقبول ، ولكنه أقل قيمة من الحكمة التي أخذ عنها في قول أرسططاليس ”يسير من ضياء الحس خير من كثير من حفظ الحكمة“^(٣) .

وقول المتنبي :

يراد من القلب نسيانكم وتأني الطباع على الناقل
يبدو للقارئ متنافر المعنى بعض الشيء، ثم يُفصح تنافره حين يُنظر الى أصله في قول
أرسططاليس " روم نقل الطباع من ردئ الأطلاع شديد الامتناع " ^(١).

وقول المتنبي :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم
أقل عمقا من قول أرسططاليس :
" من لم يردك لنفسه فهو النائي عنك وإن كنت قريبا منه ، ومن يردك لنفسك فأنت
قريب منه وإن تباعدت عنه " ^(٢).

وقول المتنبي :

لعل عتبك مجمود عواقبه فرما صحت الأجسام بالعلل
أقل وضوحا من قول أرسططاليس :
"وقديفسد العضو لصلاح أعضاء كالكي والفصد للذين يفسدان الأعضاء لصلاح غيرها" ^(٣)
وقول المتنبي :

وما التيه طبي فيهمو غير أنني بغيض الى الجاهل المتعافل
أقل تعليلاً من قول أرسططاليس :
"إن الحكيم تريه الحكمة أن فوق علمه علما فهو يتواضع لتلك الزيادة، والجاهل يظن أنه
قد تنهى فيسقط بجهله فتمقته النفوس " ^(٤).

وقول المتنبي :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر
منقول من قول أرسططاليس :

" من أفنى مدته في جمع المال خوف العدم فقد أسلم نفسه للعدم " ^(٤).

والرسالة الحاتمية تقع في خمس عشرة صفحة نقد بها مؤلفها نحو عشرين ومائة بيت من شعر المتنبي، وهي كما أشرنا طعنة نجلاء يهون بجانبها كل ما لقي المتنبي من خصومه المسرفين،
 ٧ - ولكن لا يتوهم القارئ أن الحاتمي أصاب في كل ما رمى به المتنبي من سرقة معاني أرسططاليس، فقد يتفق الرجلان أحيانا في المعنى وينفرد المتنبي بجمال الصورة.

نقول المتنبي :

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ما يمر به الوحولُ

أروع بلا جدال من قول أرسططاليس :
 ”من استمرت عليه الحوادث لم يَألم بحلولها“^(١).

وقول المتنبي :

إنعم ولَدٌ فلأُمور أوانحُرُ أبدا كما كانت لهن أوائلُ

معنى عادى : فلا قيحة للادعاء بأنه مسروق من قول أرسططاليس :
 ”كل ما له أول تدعو الضرورة إلى أن له آخر“^(٢).

وقول المتنبي :

نحن بنو الموتى ، فما بالنا نعاف ما لا بد من شربه

أفعل في النفس من قول أرسططاليس :
 ”كره ما لا بد من كونه عجز في صحة العقل“^(٣).

٨ - ولنا أن نأخذ على الحاتمي وقوفه عند أرسططاليس، كأن المتنبي لم يعرف فيلسوفا سواه، وهذا يشعر بأن أرسططاليس كان معروفا جدا عند العرب لذلك العهد، حتى أستطاع الحاتمي أن يرجع إليه طائفة كبيرة من حكم المتنبي، ويشعر كذلك بأن الشعراء كانوا يتصرفون فيما يقرءون تصرف الخبرة والعقل، فقد نظر المتنبي إلى قول أرسططاليس : ”ليس جمال الإنسان بنافع له إذا كان ميت الحس من العلم“.

ثم أداره في نفسه وما زال به حتى أغرقه في بلعة من الشعر حين قال :

لا يعجبني مضيّا حسن بزّته وهل يروق دفيناً جودة الكفن

٩ - ولنا أن نلاحظ أن الرسالة الثانية للحاتمي أوفر أدبا من رسالته الأولى عن المتنبي ، وقد يكون السبب في ذلك أنها كتبت بعد موت الشاعر : بدليل قوله في أول المراجعة " قال المتنبي رحمه الله ! " .

ولنا أن نلاحظ كذلك أن الحاتمي كتب رسالته الثانية وقد اكتمل وغلب عليه الوقار وفارقه الترق الذي ساد في رسالته الأولى ، وحسبنا أن نقرأ قوله في مقدمة الرسالة الثانية :

"أما بعد فإن أحق ما آحتكت إليه نفوس أولى النظر ، وانتقادت إليه آراء أهل الفكر ، وجلت الشبه عنه نواظر المتصفحين ، وأمضت به عزائمها قلوب المعبرين : العدل ، فانه سنخ العقل ، وحليف النهى ، وصنو الفهم ، وعدو الهوى " .

١٠ - هذا وكان الحاتمي متين الشعر ، كما كان رصين النثر ، وهو الذي يقول :

لى حبيب لو قيل لى ما تمنى ما تعديته ولو بالمنون

أشتهى أن أحلّ فى كل جسم فأراه بلحظ تلك العيون

وهو القائل فى قصر الليل :

يارب ليل سرور خلته قصرا كعارض البرق فى أفق الدجى برقاً

قد كاد يعثر أولاه بآخره وكاد يسبق منه بخره الشفقا

وهو القائل فى وصف الثريا :

وليل أقنأ فيه نعمل كأسنا إلى أن بدا للصبح فى الليل عسكراً

ونجم الثريا فى السماء كأنه على حلة زرقاء جيب مدنراً

ومات رحمه الله سنة ٣٨٨ وكان أبوه كذلك شاعراً أثبت له صاحب اليتيمه عدة

مقطوعات فليرجع إليها القارئ هناك .^(٢)

١١ - أبو عبد الله المرزباني

١ - المرزباني هو أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى بن سعيد . وأصله من نخراسان - كما ذكر ابن النديم ^(١) - وهو من بيت رياسة ومجد : فقد كان أبوه نائب صاحب نخراسان بالباب ببغداد . وقد نسب الى بعض أجداده وكان اسمه المرزبان . وهو اسم لا يطلق عند العجم إلا على الرجل المقدر : العظيم القدر . ومعناه بالعربية حافظ الحد ^(٢) .

ولد في بغداد سنة ٢٩٧ وتوفي سنة ٣٨٤ وقيل سنة ٣٧٨

وليس لدينا من أخبار المرزباني إلا تُتف يسيرة، وأظهر أخباره أنه كان رجلا غنيا كريما يُفضل على أساتذته وتلاميذه، وكانت داره مأوى لأهل العلم والأدب يبيتون فيها على الرحب والسعة حين يشاءون . ولم يكن يؤخذ عليه من الهفوات إلا إدمان الشراب . وكان من عادته في ذلك أن يضع بين يديه زجاجة حبر وزجاجة نمر فلا يزال يشرب ويكتب وهو مقسم الفكر والاحساس بين الواقع والخيال . وقد شعر رحمه الله بخطور ذلك على عقله وصحته وظهر أثر تملله حين سأله عضد الدولة مرة عن حاله فقد أجاب « كيف حال من هو بين قارورتين؟! » يعنى قارورة الحبر وقارورة الخمر .

٢ - وكان في حياته العقلية يؤثر مذهب المعتزلة : فقد صنف في أخبارهم كتابا كبيرا . وكان المعتزلة في تلك الأيام يقودون الحركة الفكرية والأدبية في الأقطار الاسلامية . وقد أخذ عليه سامحه الله شيء من التسامح في رواية الحديث .

وكان في جملة حاله معروفا بصدق اللهجة وسعة المعرفة وكثرة السماع . وكان معاصروه يرونه من محاسن الدنيا، ومنهم من يقدمه على الجاحظ . ولعل ذلك هو السبب في تحامل بعض المغرضين عليه كأبي حيان التوحيدى الذى كان يقارنه بابن شاذان وابن الخلال ، ممن كان

لهم جمع ورواية وليس لهم فيما جمعه نقط ولا إعجام ولا إسراج ولا إلهام^(١). ولوبقيت كتب المرزبانى كلها أوجلها لاستطعنا أن نزن ما كان له من فكر وعقل وأسلوب، ولكن أكثرها ضاع ولم يبق منها إلا النزر القليل. غير أننا نجد ابن النديم مفتونا به أشد الفتون. وابن النديم حجة في تقدير المصنفين والكتّاب والأخباريين، وقد حدثنا أنه رأى كتاب المرزبانى عن الشعراء المشهورين والمكثرين من شعراء المحدثين. وقد أثبت في هذا الكتاب مختار أشعارهم وبيّن أنسابهم وأزمانهم. وأنف له كتابا آخر اسمه «المفيد» يشتمل الفصل الأول منه على أخبار المقلين من شعراء الجاهلية والاسلام وأخبار من غلبت عليه كنية منهم أو شهر بكنية ابنه أو عُرف بأمه أو نسب إلى جدّه أو عزى إلى مواليه وما جانس هذه الأحوال. ويشتمل الفصل الثانى على ما روى من نعوت الشعراء وعيوبهم فى أجسامهم وصورهم كالسودان، والعور، والعميان والعمش والبرصان، وسائر ما يؤثّر فى الجسد من شعر الرأس إلى القدمين عضو عضواً. ويشتمل الفصل الثالث على مذاهب الشعراء فى دياناتهم كالشيعة وأهل الكلام والخوارج والمتهمين واليهود والنصارى ومن جرى مجراهم. ويشتمل الفصل الأخير على من ترك قول الشعر فى الجاهلية تكبراً وفى الاسلام تديناً، ومن ترك المديح ترفعاً، والهجاء تكراً، والغزل تعففاً، ومن أنفذ شعره فى معنى واحد كالسيد بن محمد الحميرى والعباس ابن الأحنف ومن جرى مجراهما. وله كتاب آخر اسمه «الرياض» ذكر فيه أخبار المتيمنين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين وفيه ذكر الحب وما يتشعب عنه وذكر ابتدائه وآتمائه وما ذكر أهل اللغة من أسمائه وأجناسه واشتقاق تلك الأسماء بشواهد من أشعار الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين والمحدثين.

٣ - وليس المهم أن نلخص وصف ابن النديم لمؤلفات المرزبانى فى مقدور القارئ أن يرجع إليه فى الفهرست^(٢)، ولكن يهمنى أن نشير إلى أن مجموعة مؤلفات المرزبانى تدور حول نقطة واحدة هى تنظيم الثقافة الأدبية.

فقد عُنى الرجل بأن يجمع أخبار الشعراء ويرتبها ترتيباً قد يعجز عنه أدباء اليوم فيضع لباحلين كتاباً، وللمحدثين كتاباً، وعُنى كذلك بأن يضع مؤلفات مستقلة في أكثر الشؤون الأدبية ككتابهِ عما وصف به العرب الصيف والشتاء والحر والبرد والغيوم والبروق والرياح والأمطار والرواء والاستسقاء وما دخل في جملتها من أوصاف الربيع والخريف، وكتبه عن الزهد والزحاد والمجابهة والحجاب والعدل والسيرة وأخبار الأولاد والزوجات والأهل وما جاء فيهم من مدح وذم، وكتابهِ عن الأنوار والثمار الذى ساق فيه طرفاً مما قيل في الورد والزرجس وجميع الأنوار من الأشعار وما جاء فيها من الآثار والأخبار. وكتابهِ في نسخ العهود إلى القضاة وكتابهِ عن أشعار النساء، الخ.

ومن المدهش أنه ألف كتاباً في أخبار الشعراء سماه "المعجم" تحدث فيه عن نحو خمسة آلاف شاعر وأثبت فيه أبياتاً لكل من تحدث عنهم من الشعراء. فمن الذى يعرف اليوم هذا المقدار من أسماء الشعراء مع أننا اجتزنا من تاريخ الأدب نحو خمسة عشر قرناً وكان المرزبانى لم يمتز منه غير خمسة قرون؟

ومما يوضح ما أشرنا إليه من عناية ذلك الرجل بتنظيم الثقافة الأدبية أنه كان ألف كتاباً سماه "تلقيح العقول" في أكثر من مائة باب جمع فيه كل ما يهم المتأدين الاطلاع عليه مما قيل عن العلم والعقل والأدب وما جانس ذلك^(١).

٤ — ولم يطبع من مؤلفات المرزبانى — فيما علمنا — غير كتاب الموشح الذى نشرته جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ وهو كتاب جيد حدثنا المؤلف في مقدمته أنه ادم بذكر ما أنكر على الشعراء في أشعارهم من العيوب التى سبيل أهل عصره ومن بعدهم أن يحتنبوها ويعدلوا عنها. وأنه أودع كتابه ما سهل وجوده وقرب متناوله من ذكر عيوب الشعراء التى نبه عليها أهل العلم وأوضحوا الغلط فيها من اللحن والسناد والإيطاء والإقواء والإكفاء والتضمين والكسر والإحالة والتناقض واختلاف اللفظ وهلهلة النسخ وغير ذلك من سائر ما عيب على الشعراء قديهم ومحدثهم في أشعارهم خاصة، سوى عيوبهم في أنفسهم وأجسامهم

وأخلاقهم وطبائعهم وأنسابهم ودياناتهم، وغير هذه الخصال من معاييرهم التي استقصاها في كتابه الملقب "بالمفيد"، وسوى سرقات معاني الشعر التي أتى بكثير منها في كتابه الذي تحدث فيه عن فضائل الشعر ووصف محاسنه ومنافعه ومضاره وأوزانه وعيوبه ونعت أجناسه وضروبه وعروضه وأعيانه ومختاره وتأديب قائله ومنشديه والبيان عن منحوه ومسروقه، وما يتصل بذلك من مختلف الأغراض^(١).

٥ — وقد راجعنا كتاب الموشح عدة مرات فلم نظفر للمؤلف بما يميزه عن غيره من مصنفى الروايات والأخبار. وإن كنا نعترف بأن الرجل أجاد الجمع والتصنيف وقدم للقارئ معارض مختلفة مما أخذ على الشعراء. وأكثر ما أثبتته لا نجده اليوم في ذير كتابه. وإن كنا نعثر على أصوله مبثورة هنا وهناك. فأت حين تطلع على كتاب الموشح ترى مواد معروفة لك مستأنسة إليك بطول ما صادقتها في شتى المطالعات. ولكنك لو أردت أن تظفر بمجموعة ما قاله النقد القدماء عن الأخطأ أوجرير مثلاً لما استطعت أن تجد لها منظمة على نحو ما تجدها في هذا الكتاب. على أن المؤلف كثيراً ما تظهر شخصيته فيعرف رأيه ومذهبه في النقد كقوله مثلاً في نقد قول الطائي :

وقد سدد مندوحة القاصعا ء منهم وأمسك بالناقعا

"ولم نعب من هذه الألفاظ شيئاً غير أنها من الغريب المصدود عنه. وليس يحسن من المحدثين استعمالها : لأنها لا تتجاوز بأمثالها ولا تتبع أشكالها. فكانها تشكو الغربة في كلامهم^(٢)". ومعنى هذا أن الغريب الوحشى قد يحسن استعماله إذا أطرده في كلام متأدب غريب. أما في الكلام السلس فاستعماله غير مقبول. وهو يوافق بعض الموافقة ما يراه الجاحظ من أن الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس كما يفهم السوق رطانة السوق. والتفاهم عند المرزبانى والجاحظ هو الأساس في اختيار الألفاظ، إذ كان الناس لا يقبلون الألفاظ أو يرفضونها إلا موصولة بما يألون.

٦ — ولا يخلو المرزباني — على فضله — من تحامل : فقد رأيتَه يغض من قيمة مختارات أبي تمام إذ يقول :

”وللطائي سرقات كثيرة أحسن في بعضها وأخطأ في بعضها . ولما نظرت في الكتاب الذي ألفه في اختيار الأشعار وجدته قد طوى أكثر احسان الشعراء . وإنما سرق بعض ذلك فطوى ذكره وجعل بعضه عدّة يرجع إليها في وقت حاجته ورجاء أن يترك أهل المذاكرة أصول أشعارهم على وجوهها ويقنعوا باختياره لهم فتعجب عليهم سرقاته . ولا يعذر الشاعر في سرقاته حتى يزيد في إضاعة المعنى ، أو يأتي بأجل من الكلام الأول ، أو يسمح له بذلك معنى يفضح به ما يتقدمه ولا يفتضح به ، وينظر إلى ما قصده نظر مستغن عنه لافقير إليه^(١) . ففى هذه الفقرة تجنّ شديد على أبي تمام وإزراء بإحسانه في تأليف مختاراته . وما أحسب انخاطر الذي مرّ ببال المرزباني مرّ ببال ناقد شريف القصد . فهو يرى أن أبا تمام قصر اختياره على الاشعار التي لم يسرق منها ، وأنه طوى الأشعار التي يرجو أن يغير عليها . وأنه أراد أن يصرف المتأدين بمختاراته عن الرجوع إلى الأصول التي سرق منها ما استجيد من شعره ... ولا أدري كيف يصح هذا من المرزباني إلا أن أرجّح أنه كان من خصوم أبي تمام . وقد كان أبو تمام ابتلى في حياته وبعد مماته بمعارضة شديدة كادت تقتلع مجده من جذوره وترى به في هاوية العفاء . وسبب ذلك أن أبا تمام ظفر بشهرة قوية أنحلت مئات الشعراء والشهرة القوية تخاف الخصوم خلقا وترى صاحبها بعداوات مسمومة لم يجترح في خلقها إثما ولا جنائية ، حتى صمح للمرزباني على نزاهته أن يتهمه بسوء النية في تأليف المختارات مع أن في الحماسة بابين لم نجد لهما مثيلا في مجموعة أدبية وهما باب المراثي و باب النسيب .

٧ — ويغلب على المرزباني أن يسوق المآخذ بدون أن يتعقبها بنقد أو تمحيص ، وأحيانا يضيف إليها كلمة صغيرة تعين رأيه . من ذلك أنه نقل الكلمة الآتية بسندها عن بعض معاصريه :

”دخلت على أبي تمام الطائي وقد عمل شعرا لم أسمع أحسن منه وفي الأبيات بيت واحد ليس كسائرهما . فعلم أني قد وقفت على البيت فقلت : لو أسقطت هذا البيت ! فضحك وقال : أترك أعلم بهذا مني ؟ إنما مثل هذا مثل رجل له بنون جماعة كلهم أديب جميل متقدم ومنهم واحد قبيح متخلف فهو يعرف أمره ويرى مكانه ولا يشتمى أن يموت . ولهذا العلة ما وقع مثل هذا في أشعار الناس^(١)“ .

ونقل بعد ذلك هذه الكلمة . ”قال متقال الشاعر : قلت لأبي تمام تقول الشعر الجيد ثم تقول البيت الرديء ! فقال : مثل هذا مثل رجل له عشرة بنين منهم واحد أعمى فلا يجب أن يموت“ وفي التعقيب على هاتين الفقرتين يكفى المرزباني بأن يقول . ”وهذه حجة ضعيفة جدا“^(١) .

وأحيانا قليلة يسطر القول بعض الشيء في النقد والمقابلة كما فعل في نقد قول امرئ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا أنجِلْ بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فقد بين أن أفضل منه قول الطرماح بن حكيم :

بلى إن للعنين في الصبح راحة لطرهما طرفيهما كل مطرح

ثم قال ”فأحسن في قوله وأجمل وأتى بحق لا يدفع ، وبين عن الفرق بين ليله ونهاره ، وإنما أجمع الشعراء على ذلك — أي حضور الهم بالليل وذهابه بالنهار — من تضاعف بلاءهم بالليل وشدة كلفهم لقلة المساعد وفقد الحبيب وتقييد اللحظ عن أقصى مرامي النظر الذي لا بد أن يؤدي إلى القلب بتأمله سببا يخفف عنه أو يغلب عليه فينسى ما سواه“^(٢) .

وللرزباني ملاحظات صغيرة متفرقة قد لا يتنبه إليها القارئ المتصفح ويستجدها المتأمل كقوله في التعقيب على قول أبي العتاهية :

حلاوة عيشك ممزوجة فما تأكل الشهد إلا بسم

فالمعنى صحيح لأن الشاعر جعله مثلاً لبؤس الدنيا الممازج لنعيمها . ولكن يلاحظ المرزباني أن العبارة غير مرضية : لأننا لم نر أحداً أكل شهداً بسم . وأجود من هذا البيت لنظماً وأصح معنى قول ابن الرومي :

وهل خُلة معسولة الطعم تجتني من البيض إلا حيث وإش يكيدها
مع الواصل الواشي وهل تجتني يد جنى النحل إلا حيث نحل يزودها^(١)

وتلك ملاحظته دقيقة وهي تذكر بما نقله عن أحد معاصريه وقد سأل أبا تمام : أخبرني عن قولك :

كَانَ بَنِي نِهْانَ يَوْمَ وَفَاتِهِ نَجُومُ سَمَاءِ نَحْرٍ مِنْ بَيْنِهَا الْبَدْرُ

أردت أن تصف حسن حالهم بعده أو سوء حالهم ؟ فأجاب أبو تمام : لا والله إلا سوء حالهم لأن قمرهم قد ذهب . فقال المعارض : والله ما تكون الكواكب أحسن ما تكون إلا إذا لم يكن معها قمر^(٢) .

٨ — وقد أشار المرزباني في غير موضع إلى وحدة البيت فقد تحدث عما أخذ على امرئ القيس في قوله يصف الليل :

فقلت له لما تمطى بصلابه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فانه لم يشرح ما أراد بالبيت الأول إلا في البيت الثاني . وهذا عيب عند العرب لأن خير الشعر ما لم يحتاج البيت منه إلى بيت آخر . وخير الأبيات ما استغنى بعض أجزائه ببعض إلى وصول القافية كقول الشاعر :

الله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيبة الرجل

فان قوله (الله أنجح ما طلبت به) كلام مستغن بنفسه وكذلك باقي البيت . على أن في هذا البيت واو عطف عطفت جملة على جملة وما ليس فيه واو عطف أبلغ . وأجود من هذا قول النابغة الذبياني في اعتذاره إلى النعمان :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث، أى الرجال المهذب

فكلامه فى أول البيت مستغن بنفسه وكذلك آخره حتى لو ابتدأ مبتدئ فقال (أى الرجال المهذب) لاعتذار أو غيره لأتى بكلام مستوف لا يحتاج الى سواء .

وقد أشار الجاحظ فى بعض كتبه الى هذه المسئلة . ومن الخير أن ننبه القارئ الى أن وحدة البيت لا تنافى وحدة القصيدة ، وإن ظن ناس غير ذلك ، فإن الوحدة فى البيت يراد بها اتساق النغم والألحان بحيث يصح الوقف فى نهاية كل بيت ، ولهذا قيمة فى الرنة الموسيقية التى يحرص عليها شعراء العرب أشد الحرص . أما وحدة القصيدة فيراد بها وحدة الغرض ، وذلك أن يقدر الشاعر لنفسه صورة شعرية يرسمها رويدا رويدا فى نظام وانسجام الى أن يتمها بتمام القصيدة .

ولأجل أن نبين للقارئ أن وحدة البيت ضرورية جدا لحفظ الموسيقى الشعرية ننقل له قطعة لآبى العتاهية خلت من وحدة البيت على نحو ما يخلو منها الشعر الفرنسى مثلاً ، ولنتأمل كيف يقول :

ياذا الذى فى الحب يلجى أما	والله لو كلفت منه كما
كلفت من حب رقيم لما	لمت على الحب فذرني وما
ألقى فانى است أدرى بما	بليت إلا أننى بينما
أنا بباب القصر فى بعض ما	أطوف فى قصرهم إذ رمى
قلبي غزال بسهام فما	أخطأها قلبي ، ولكنما
سهماه عينان له كلما	أراد قتلى بهما سلما

وهذا النوع من الشعر كان يسميه القدماء "المضمن" وهو عندهم من الشعر المعيب . لأن خير الشعر فى حكمهم ما قام بنفسه وكفى بعضه دون بعض . ولا نزال نحن نتبع أسلافنا فيما اطمأنوا إليه من خصائص القوافى والأوزان لأن للإلف أثرا شديدا فى تكوين الذوق . والشعر من الفنون التى نتحكم فى قدرها الأذواق .

٩ - وفي الموشح عبارات نقسديه تكاد تبلغ الغاية في دقة الوصف وليأمل القارئ ما نقله المؤلف في تحديد الشعر الجيد عن محمد بن يزيد النحوي :

” أحسن الشعر ما قارب فيه القائل اذا شبه . وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة ونبه فيه بفظته على ما يخفى على غيره وساقه برصف قوى واختصار قريب وعدل فيه عن الإفراط^(١) .“

وهذا كلام دقيق وإن كنا لا نوافق ابن يزيد في استهجانه قول بعضهم في النحافة :

فلو أن ما أبقيت منى معلى يعود ثمام ما تأود عودها

وقال الآخر يصف سرعة ناقته :

* ويمنعها من أن تطير زمامها *

لأن في الإزراء بمثل هذه الأخيصة إزراء بمواهب الذكاء . فهناك أخيلة شعرية تجافى الحقائق في كثير من الأحيان . ولكنها تظل مع ذلك مقبولة يهش لها الذوق لدلالاتها على ما وهب الشاعر من بارع الذكاء .

وقد استنكر النقاد قول المتنبي :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترى

وعدوه غلوا غير مقبول مع أننا قد نستطيع قول بعض المولدين :

عادنى ممرضى فلم ير منى فوق فرش السقام شيئا يراه

قال لى أين أنت قلت التمنى فبكى حين لم تجدنى يداه

ولسنا نستطيع هذا لصحة معناه وإنما نستطيعه للصورة التي قدمها الشاعر في وصف

آثار النحول .

١٠ - والمرزباني يهتم بتقيد ما يؤثر عن أخلاق الشعراء وتظهر في ثنايا كلامه نزع

الحقد على المشاهير وإن اجتهد في إخفاء ذلك وحاول أن يصنع كلامه بصيغة البحث الصرف فقد حدثنا أن أهاجى البحترى للخلفاء والملوك أشبه بهجاء سفلة الناس ورعاعهم وأنها تجمع بين

سخافة اللفظ وهلهة النسيج والبعد من الصواب ، وأنه قد هجانحوا من أربعين رئيساً من مدحهم منهم خليفتان : هما المنتصر والمستعين . وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من أعظم الكتاب والكبراء بعد أن مدحهم وأخذ جوائزهم ، وأن حاله في ذلك تنبيء عن سوء العهد وخبث الطوية ، وأنه نقل نحواً من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفروا حظه منهم عليها إلى مدح غيرهم وأما أسماء من مدحهم أولاً مع سعة ذرعه بقول الشعر واقتداره على التوسع فيه .

ويقول المرزباني في التعقيب على هذه المثالب :

”ولم أذكر حاله في ذلك على طريق التحامل مع اعتقادي فضله وتقديمه ولكني أحببت أن أبين أمره لمن لعله استر عنه وحسبنا الله ونعم الوكيل“^(١) .

وظاهر هذه الكلمة نزيه . ولكنها تمثل شهوة خفية طالما التبس أمرها على الناقدين . على أن المرزباني مشكور على أي حال : فمن أمثال هذه الحفوات تنكشف جوانب من النفس الإنسانية . والناقد مسئول عن كشف ما يتعذر كشفه على الجمهور من أخلاق الشعراء والكتاب والباحثين .

ومن يدري ! فلفل الناس يعيشون في رذائلهم أضعاف ما يعيشون في فضائلهم ، ولست أريد بهذا كية الحياة ، وإنما أريد روحها وسرها ، فإن النفس لا تجانب الجادة السوية إلا وهي نائرة . والنفس في لحظات الثورة تحيا حيوات طويلة قوية يصغر بجانبها ما تقضيه في هدوء ووقار من طوال السنين . ولو أن المرزباني قدّر أنه قد ينجى من رجال الأخلاق من يعلل حفوات البحترى بمثل ما عللنا لرأى أنه ليس مما يشفى النفس أن يبين أمر البحترى لمن لعله استر عنه ! وما الذي كان يقع لو ظلت صغائر البحترى مستورة وظفر بلسان صدق في الآخرين ؟

١١ — هذا وقد كنا نحب أن نطيل القول في نقد ما اشتمل عليه كتاب الموضح ، وخاصة ما وقع بين شعراء العصر العباسي وبين رجال اللغة كالأصمعي وابن الأعرابي ، فإن ذلك

يمثل النزاع بين القديم والحديث ، وتلك إحدى المشاكل التي تتجدد على اختلاف العصور .

وفيما رواه المرزباني طائفة من الطرف والفكاهات كانت تحسن روايتها في هذا الكتاب ، ولكننا نرى الاكتفاء بما أسلفناه راجين أن يكون فيه كشف عن منهج المرزباني في إحياء الثقافة الأدبية ، ونشر ما تداوله الناقدون من حقوات الشعراء .
والموشح مطبوع يستطيع الرجوع اليه من يريد المزيد ^(١) .

(١) من أطرف ما نقل المرزباني من أخبار النزاع بين الباقين والشعراء ما جله في ص ٢٩٦ «حدث العباس بن ميرون قال : سمعت الأصمعي يقول : «حضرنا مأدبة وأبو محرز خلف الأحمر وابن مناذر معنا فقال له ابن مناذر : يا أبا محرز ! إن يكن امرؤ القيس والنابغة وزهير ماتوا فهذه أشعارهم مخلدة ، فقص شعري الى أشعارهم : قال : فأخذت صحيفة مملوءة مرقا فرمى بها عليه !»

الباب الخامس

كتاب الأئمة والملاهيبة

١ - أبو حيان التوحيدي

١ - لست اعدو الحق إذا قلت : إن الأدب العالى لا يقع إلا متأثرا بعاطفتين اثنتين :
الحب أو الحقد . ولن نجد فى تاريخ الاداب العربية كاتباً مجيداً أو شاعراً بليغاً أو خطيباً
منطقياً خلت نفسه من رقة الحب ، أو قسوة البغض . فالسرفى عبقرية البحترى مثلاً يرجع
إلى قوة شغفه بمعالم الجمال ، كما أن السرفى عبقرية ابن الرومى يرجع إلى تطيره وحقده
على من عرف ومن لم يعرف من سعداء الناس . وكذلك يعود السرفى تفوق عبد الحميد
ابن يحيى إلى مروءته ونبل نفسه وعطفه على فقراء الكتاب ، كما يعود الفضل فى فصاحة الحجاج
إلى ما كان يضطرم فى صدره من نيران الحقد والضغينة والبغض والموجدة على الثائرين من
أهل العراق .

وأبو حيان التوحيدي الذى نريد أن نفيض فى الحديث عنه رجل خلقته البأساء ، وأنشأه
الحقد على الموهوبين من أهل العلم والأدب والجاه . ولن تجسده فى صميم أدبه إلا رعداً يزجر
كلما مر به خاطر الغنى والفقر ، والنعيم والبؤس ، والنباهة والخمول .

٢ - لا تسأل متى ولد ، ولا أين ولد ، فذلك رجل نشأ فى بيئة خاملة لم تكن تطمح فى مجد
حتى تقيد تاريخ ميلاد ، ويكفى أن تعرف أنه فارسى الأصل ، وأنهم تردّدوا بين نسبته إلى
واسط أو نيسابور أو شيراز ، وأنه عاش فى القرن الرابع وشهد صدر القرن الخامس ، فقد نص
فى كتاب الصداقة والصديق على أنه كتبه فى سنة ٤٠٠ هـ للهجرة . وجاء فى تاريخ شيراز أنه توفى
سنة ٤١٤^(١) وفى هذا ما يرجح أنه من أهل شيراز . وليس بغريب أن يكون هذا حظ التوحيدي
فى تحديد مولده وتاريخ ميلاده فقد اختلف الناس فى مولد الشيخ محمد عبده فى مصر مع أنه

(١) حدّثنا بذلك المسيو ماسينيون وهو يناقش الرسالة فى السوربون . ولم نستطع مع الأسف أن نجد نسخة فى مصر

نشأ في عصر مغمور بأسباب الدقة والنظام . ولهذا الغموض في حياة التوحيدى قيمة في فهم جده العائر، وحظه المنكود، فلو كان رجلا مجدودا في دنياه لثلثت الناس اليه واهتموا بنسبه وعرفوا مسقط رأسه، لكنهم عرفوه شقيا محروما فانصرفوا عنه ، وأغفلوا أمره ، حتى عجب ياقوت من أن لم ير أحداً عني به من كتاب السير والتراجم على كثرة من اهتموا بهم من العلماء والكتاب والشعراء .

٣ — قلت إن نبوغ أبي حيان التوحيدى يرجع إلى حقه وثورته على الحياة والأحياء، فلاذكر أن تلك الثورة ثبت في مفتتح حياته ومستهل صباه، حين سمع بأخبار ابن العميد والصاحب ابن عباد وما كان يحرى بين أيديهما من أسباب الرزق والرغد والطمانينة ، فقصد ابن العميد واستظل بفنائيه حيناً، ثم تحول الى ظلال ابن عباد، ولكنه لم يجد من فيض هذين الجدولين ما ينفع غلته، ويطفىء صده . هنالك انفجر بركان غضبه وتحول إلى أتون متسعٍ يرمى باللهب الماحق والشواط المبيد . وقد حدثنا في كتابه (مثالب الوزيرين) ^(١) أنه لما قدم على الصاحب قدم اليه نجاح بن سلمة ناظر خزانة كتبه ثلاثين مجلدة من رسائله وقال : يقول لك مولانا أنسخ هذا فانه قد طلب منه بخراسان . فارتاع التوحيدى وخاف على بصره من نسخ تلك الرسائل الطوال ، ثم تضجر وتبرم وأشار إلى أنه توجه من العراق إلى باب الصاحب ليتخلص من شؤم حرفة الوراقة التي لم تكن كاسدة ببغداد ، فوصل ذلك إلى الصاحب فحقد عليه ، وكان رجلا لا يقبل أن يعصى له أمر، أو يراجع في قول . ثم كانت أيام التوحيدى عنده أيام إهمال ونسيان، فرحل عنه وأصلاه نيران الفحش والسباب . ولننظر كيف يقول :

”ماذنبى، أكرمك الله، إذا سألت عنه مشايخ الوقت، وأعلام العصر، فوصفوه بما جمعت لك في هذا المكان ! على أنى قد سترت كثيرا من مخازيه، إما هربا من الاطالة، أو صيانة للقلم عن رسم الفواحش ، وبث الفضائح، وذكر ما يسمج مسموعه ، ويكره التحدث به ؛ سوى ما فاتنى من حديثه، فاني فارقته سنة ٣٧٠ هـ“ .

”وماذنبى إن ذكرت عنه ما جرعنيه من مرارة الخيبة بعد الأمل، وحملنى عليه من الاخفاق بعد الطمع، مع الخدمة الطويلة والوعد المتصل، والظن الحسن، حتى كأنى خُصِصت بخساسته وحدى، أو وجب أن أعامل بها دون^(١) غيرى“.

٤ — وقد ختم التوحيدى بكتابه مثالب الوزيرين بكلمة تدل على أنه كان يفهم أن الأدب باب من أبواب الرزق وسبيل من سبل الغنى، إذ صرح بأنه يحسد الذى يقول :

أعدّ خمسين حولاً ما على يدٍ لأجنبى ولا فضل لذى رحم
الحمد لله شكراً قد قنعت فلا أشكولثيا ولا أطرى أخا كرم

ثم صرح بأنه كان يمتنى أن يكون ذلك الرجل، ولكن العجز فى رأيه غالب لأنه مبذور فى الطينة، ثم استحسن قول الآخر :

ضيق العذر فى الضراعة أنا لو قنعنا بقسمنا لكفانا
مالنا نعبد الأنام إذا كا ن الى الله فقرنا وغنانا
ثم دعا بما دعا به بعض النساك :

”اللهم صن وجوهنا باليسار، ولا تبذلها بالإقتار، فنسترزق أهل رزقك، ونسأل شر خلقك، ونُبْتلى بحمد من أعطى، وذم من منع، وأنت من دونهم ولى الإعطاء، وبيدك خزائن الأرض^(٢) والسماء“.

وهذا نص فى أنه كان مشغولاً برزقه، وأنه كان لذلك معنيا بحمد الكرماء، وذم البخلاء، دفعا للفقر وطلباً للآل، فدرجت نفسه على الحرص والطمع، وألف الحقد على الأغنياء الباخلين، وكان مثله مثل المتنبي الذى تفجر شعره بالحقد على العالم والثورة على الوجود : لأنه لم يجد من يناصره فى طلب الغنى والجاه والمالك، ومن هنا قلت فى شعر المتنبي عواطف الحب والإخاء والوفاء : لأن مطامعه المادية حولته إلى رجل لا يدرك غير معانى الأثرة والشح والظعن والجحود .

٥ — وما زال التوحيدى يقدم إلى نفسه وقود الغيظ والحفيظة حتى غلبه طبعه الجاح في أخريات عمره ، فقدم كتبه طعمة للنار ، حتى لا يكون بينه وبين العالم وشيجة من علم أو أدب أو دين ، ثم كتب في ذلك رسالة مطولة تفيض بالألم اللاذع والحزن الوجيع . وقد حدثنا في تلك الرسالة بما يؤيد مذهبنا اليه من أنه كان يتخذ العلم وسيلة إلى الغنى والجاه إذ قال في وصف الغرض من كتبه :

«على أنى جمعت أكثرها للناس ، ولطلب المثالة منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ، ولمد الجاه عندهم ، فخرمت ذلك كله» .

وفي تلك الرسالة فقرات مُرّة موجعة تثير العطف على ذلك الرجل الذى سقى كل الشقاء بما رزق من رقة الحس ، ودقة الفهم ، وقوة الإدراك . ولقد صور بلواه بالناس أصدق تصوير حين قال :

« فإن قلت ولم تسهم بسوء الظن ، وتقرع جماعتهم بهذا العيب ؟

”بغوابى لك : أن عياني منهم في الحياة هو الذى حقق ظنى بهم بعد المئات . وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لى من أحدهم وداد ، ولاظهر لى من إنسان منهم حفاظ ، ولقد اضطرت بينهم بعد العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء ، وإلى التكفف الفاح عند الخاصة والعامة . وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاظم الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح في قلب صاحبه الألم ، وأحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسائك وصباحك ، وليس ما قلت بخاف عليك مع معرفتك وقطعتك ، وشدة ثبعتك وتفرغك ، وما كان يجب أن ترتاب في صواب ما فعلته وأتيت به بما قدمته ووصفته ، وبما أمسكت عنه وطويته ، إما هربا من التطويل ، وإما خوفا من القال والقيل “ .

٦ — وهذه الكلمة تعطينا صورة واضحة من التزاع الدائم الموصول الذى كانت تشور محرجاته بلا انقطاع بين التوحيدى وبين معاصريه ، فذلك رجل يعرف ما هو الضمير ، وما هي

متانة الخلق، وماعنى الكرامة، وماملول الإباء، ولكن أحداث دهره قهرته على المشى فوق تلك الأشواك : أشواك الملقى والمداهنة والرياء ، فمضى مجروح القلب ، مقتول النفس ، مطعون الوجدان . وكان اقترافه لمخزيات الضعة والهوان والصغار مما يضرهم فى نفسه ثورة الحقد على الرؤساء المسعودين الذين لا ينال فيض ما لديهم بغير أسباب الخسة والدناءة والإسفاف .

٧ - وفى تلك المعركة الدامية التى خرج منها التوحيدى وهو بين الكتاب أهجى وأخش من ابن الرومى بين الشعراء ، لا نجد بدا من الحكم عليه بأنه كان رجلا ظاهر الطمع والجشع والحرص ، قبل فى جمع المال عن طريق الأدب أن يبيع دينه ومروءته وأن يقترب مالا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم : فى حين أنه كان يستطيع أن يدوس بقدميه ما يملك أصحاب التيجان ويُقبل بنفس حازمة غنية على استدرار إحدى الصناعات ليعيش ، ثم يلقي العالم إن شاء بمثل قول أبى هلال :

جلوسى فى سوق أبيع وأشتري دليلى على أن الأنام قرود

ولا خير فى قوم يذل كرامهم ويعظم فيهم نذلهم ويسود

ولكنه أخذ يلوم الناس ويؤاخذهم بما لا يؤاخذ به نفسه ولا يتورع هو عن الوقوع فيه .

ودليل ذلك ما حكاه فى كتاب مثالب الوزيرين إذ قال :

”جرى بينى وبين ابن مسكويه شئ : قال لى مرة أما ترى الى خطأ صاحبنا - يعنى ابن العميد - فى إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة؟ لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق . فقلت بعد ما أطل الحديث وتقطع بالأسف : أيها الشيخ ! إني أسألك عن شئ واحد فأصدق فانه لا مدب للكذب بينى وبينك ، لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضعافه ، أكنت تخيله فى نفسك مخطئا ومبذرا ومفسدا أو جاهلا بحق المال ؟ أو كنت تقول : ما أحسن ما فعل ! وليته أربى عليه ! فان كان الذى تسمع على حقيقة فاعلم أن الذى يرد ورد ممالك إنما هو الحسد ، أو شئ آخر من جذسه ، وأنت تدعى

الحكمة وتكلف فى الأخلاق ، وتزيف الزائف وتختار منها المختار ، فأفطن لأمرك ، وأطاع على شرك وشرك^(١) .

ولو أنه حاسب نفسه بمثل ما حاسب به ابن مسكويه لرأى ثورته على أهل زمانه تأخذ وقودها من قلب حاسد حقود ، وهو مع هذا يدعى الحكمة ويتكلف الأخلاق .

ويظهر مع الأسف أن الاندان يبالغ فى درس الغرائز ونقد الطباع ، فاذا وصل الى نفسه خلا درسه من القرة وخلا نقده من العمق ، وأسبع على خصاله وشمائله أنواب الرضا والاعجاب .



٨ — هذا الذى قدمناه عن التوحيدى جعل لنا منه شخصيتين مختلفتين بعض الاختلاف : الشخصية الأولى شخصية الأديب الذى يتحدثنا عن نفسه وعن أشجانه وعن عتبه على الناس وتبرمه بالحياة . والشخصية الثانية شخصية الباحث الذى ينقل الصور المختلفة لما يفهم معاصروه من صروب العلوم والآداب والفنون . وهذه الشخصية الثانية شخصية الباحث تقدمه اليها رجالا فهم النزعات الفلسفية والأخلاقية والأدبية ، ثم صورها لنا تصويرا يقرب من الإتيقان فى كتاب المقابسات . وكتاب المقابسات هذا كتاب عظيم ، طبع أولا بالهند ، ثم طبع أخيرا فى مصر طبعاً متقناً معنياً به من بعض الوجوه . وكتاب المقابسات لا ينفع المبتدئين إلا قليلاً ، ولكنه نافع كل الدفع لمن وقفوا على معضلات الفاسفة الإسلامية . ولعل أهم ما فيه أنه يعطينا صورة من الكتابة الفلسفية لعهد ، وإن كنا نرى فى ذلك بعض البعد عن الصواب ، لأنه يحاكي الجاحظ فى أسلوبه الفلسفى والأدبى فيترك السجع ويقبل على الازدواج ، غير أنه على كل حال لون من الكتابة الفلسفية التى تقبلها الناس فى ذلك الحين . وأدق ما يلاحظ على كتاب المقابسات أنه يطلعنا على ناحية خطيرة من عقلية الباحثين فى ذلك العهد ، فهم يعرفون كيف تثار المشاكل وكيف تبذر بذور الخلاف ، فاذا حاولوا

الاجابة والتعليل ظهورا ضعفاء عاجزين. وهذه ظاهرة تجدها حيث تتصفح كتاب المقابسات ولعل السبب في ذلك أنهم كانوا يعانون أزمة عقلية خطيرة لم يتح لهم التغلب عليها، وكان من أثرها أن كثر الشك والارتباب والاحاد بين طبقات المفكرين .

ومن طريف ما أثاره أبو حيان التوحيدي في إحدى المقابسات ما أنطق به أبا إسحاق النصيبي إذ قال :

”ما أعجب أمر أهل الجنة ! قيل وكيف ؟ قال لأنهم يبقون أبدا هناك ، لا عمل لهم إلا الأكل والشرب والنكاح ؟ أما تضيق صدورهم . أما يملكون . أما يربأون بأنفسهم عن هذه الحال الخبيسة التي هي مشكلة لحال البهيمة ؟ أما يأنفون ؟ أما يضجرون ؟^(١)

وفي الجواب على هذا السؤال الخطر أطل أبو حيان إطالة مملة لا تقنع ولا تفيد ، لأنه افترض أن نعيم الجنة بالعقل لا بالحس ، وأن العقل لا يعتريه الملل ، ولا تصيبه الكلفة ، ولا يمسه اللغوب . وعلى ذلك بقى الاعتراض حيث وقع : لأن القرآن أعطى للذات الحسية شأنا غير قليل ، وجعلها من الغايات التي يسمو اليها المؤمنون .

٩ — أما الشخصية الأولى شخصية الأديب فهي الجانب الأقوى من نفسية التوحيدي . وتمثل هذه الشخصية الرائعة في رسائله الوجدانية ، وفي استطراداته الممتعة التي جرى بها قلمه في كتاب الصداقة والصديق . والجانب الوجداني من التوحيدي تكون ونشأ في هجر الفاقة والبؤس ومعاناة الأيام . ولا تراه يبيد إلا حيث يتحدث عن نكد دنياه وسواد لياليه . وآنك لترثي له وتبكي لشكواه حين تراه يطالعك بأمثال الكلمة الآتية :

”وسمعت الخوارزمي أبا بكر محمد بن العباس الشاعر البليغ يقول : (اللهم نفق سوق الوفاء فقد كسدت ، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت ، ولا تمنني حتى يبور الجهل ، كما بار العقل ، ويموت النقص كما مات العلم ” وأقول : ” اللهم اسمع واستجب ، فقد برح الخفاء ، وغلب الجفاء ، وطال الانتظار ، ووقع اليأس ، ومرض الأمل ، وأشفي الرجاء ” والخوارزمي

هذا الذي يعجب به التوحيدي ويتحدث عنه ويتأسى به رجل عانى في دهره مرارة الجور والحيف، ورأى الناس يقدمون عليه بديع الزمان وهو لدن العود غض الالهاب، فلا عجب أن يردّد "التوحيدي" شكاته وأينته وهو الذي رأى كيف تقدم عليه الأقدار أمثال ابن عباد.

١٠ - ولقل هنا كلمة عن كتاب الصداقة والصديق قاله يرجع الفضل في تصوير الجانب الوجداني من التوحيدي رحمه الله . ابتدأ هذا الكتاب بزفرة وانتهى بزفرة . ابتدأ بالكلمة التي نقلناها آنفا عن الخوارزمي، وانتهى بقوله في الاعتذار عن طول تلك الرسالة "فأقبل حاطك الله هذا القدر الذي قد بداؤه وأعدته، ونشرته وطويته، على أنك لو علمت في أي وقت ارتفعت هذه الرسالة، وعلى أي حال تمت، لتعجبت، وما كان يقل في عينك منها يكثر في نفسك، وما يصغر منها بنقلك يكبر بعقلك . والله أسأل خاتمة مقرونة بغنيمة، وعاقبة مفضية الى كرامة، فقد بلغت تسمى رأس الحائط، والله أستعين على كل ماهم النفس، ووزع المكر، وأدنى من الوسواس " .

وكتاب الصداقة والصديق كتب في أدق وقت من حياة التوحيدي، كتب حين بلغت شمسه رأس الحائط كما قال، كتب بعد كتابه مثالب الوزيرين بمدة قد تكون طويلة، فهو أنضج نمرة من أدب التوحيدي . وليس يهمننا في هذا المقام ما أشتمل عليه من الفقرات الجميلة، والمقطوعات البديعة، والأخبار الطريفة، إنما يهمننا بنوع خاص ما مر فيه من الصور الفنية الرائعة التي جرى بها قلمه البليغ، فقد ترك لنا ذلك الرجل الفحل طائفة من النماذج العالية في صور الحواطر والأفكار والتأملات، ومشى بنا في أودية من الخيال ضاحكة الأزار خفاقة النسبات .

١١ - والصور التي يقدمها التوحيدي تمر غالبا على أنها أحاديث . فهو يصور خواطر الناس وآراءهم في فهم الحياة تصويرا عجيبا يفصح عن قدرته أتم إفصاح، وهو يظهر في ثنايا كلامه غنى اللغة قوى الخيال يحيط بالمعنى من جميع أقطاره إحاطة بالغة لا يتد منها شيء . ولننظر كيف يقول في تشعب أنفاس الناس في الحب والبغض :

”وما من أحد إلا وله في هذا الفن حصّة : لأنه لا يخلو أحد من جار أو معامل أو حميم أو صاحب أو رفيق أو سكن أو حبيب أو صديق أو أليف أو قريب أو ولي أو خليف . كما لا يخلو أيضا من عدوّ أو كاشح أو مداح أو مكاشف أو حاسد، أو شامت، أو منافق أو مؤذ أو منابذ أو معاند أو منزل أو مضل أو مغل^(١)“ .

ومثل هذه الفقرة يدل على بصر ذلك الرجل باللغة وقدرته على تصوير ما يشاء من المعاني النفسية والوجدانية التي تعجز أكثر الكتاب . وقد أعطانا التوحيدى عدّة صور في الصداقة والحب . من ذلك قوله في التفرقة بين الصداقة والعلاقة : ”الصداقة أذهب في مسالك العقل ، وأدخل في باب المروءة ، وأبعد من نوازى الشهوة ، وأنزّه عن آثار الطبيعة ، وأشبه بذوى الشيب والكهولة ، وأرمى الى حدود الرشاد ، وأخذ بأهداب السداد ، وأبعد من عوارض الغرارة والحدائث . فاما العلاقة فهي من قبيل العشق والمحبة والكف والشغف والتئيم والتهم والهوى والصبابة والتدائف والتشاجى . وهذه كلها أمراض أو كلالأمراض ، بشركة النفس الضعيفة والطبيعة القوية ، وليس للعقل فيها ظل ولا شخص . ولهذا تسرع هذه الأعراض الى الشباب من الذكران والإناث وتنال منهم وتملكهم وتحول بينهم وبين أنوار العقول وآداب النفوس وفضائل الأخلاق ، ولهذا وأشباهه يحتاجون الى الزواجر والمواظ ليفيئوا الى ما فقدوه من اعتدال المزاج والطريق الوسط“^(٢) .

ونقل في موضع آخر أنه سمع ابن مانويه القمى يروى عن جعفر بن محمد أنه قال :
مناغة الصديق أعبت بالروح وأندى على الفؤاد من مغازلة المعشوق ، لأنك تنزع بحديث المعشوق الى الصديق ولا تنزع بحديث الصديق الى المعشوق^(٣) .

١٢ — وقد علل التوحيدى ميل الرجل الى أهله وأحبابه فذكر أنه يحن الى والده للتعز به ، لأن الوالد عضد وركن يعاذ به ، ويؤوى اليه ، ويترع الى الوالدة لشفتها ودعائها الذى لا يعرج الى الله مثله ، ويشتاقي الى أخته للصيانة لها والترقح اليها ، وإلى ابن عمه للانتصار به ،

ولابنة عمه لأنها كُحِمت على وضم؛ ويصبو إلى عشيقه لأن ذلك شيء يجده بالقطرة والارتياح الذي قلما يتخومنه كريم له في الهوى عرق نابض، وفي انجون جواد راكض. ثم قال: أما الصديق فوجدني به فوق شوق إلى كل من نعتك لك، لأنني أبائته بما أجل أبي عنه، وأجبا من أمي فيه، وأطويه عن أختي نجلا منها، وأداجي ابن عمي عليه خوفا من حسد يفتأ ما بيني وبينه. فاما العشيقه فقصاراى معها أن أشوب لها صدقا بكذب وغلظة بلين لأفوز منها بحظ من نظر، ونصيب من زيارة، وتحفة من حديث. وكل هؤلاء مع شرف موقعهم منى وانتسابهم إلى دون الصديق الذي حريمي له مباح، وسارحي عنده مراح، أرى الدنيا بعينيها إذا رنوت، وأجد فائتي عنده إذا دنوت، إذا عززت له ذل لي، وإذا ذلت له عز بي، وإذا تلاحظنا تساقينا كأس المودة، وإذا تصامتنا تاجينا بلسان الثقة، لا يتوارى غنى إلا حافظا للغيب، ولا يترأى لي إلا ساترا للغيب^(١).

وقد عرض التوحيدي للصدقة والحب والعشق في آخر كتاب المقابسات بتفصيل واف فليرجع إليه من شاء.

١٣ — ولم أجد فيما قرأت من كتب الأدب صورة فنية تمثل اتحاد القلوب والنفوس كالصورة التي قدمها إلينا التوحيدي حين قال:

”قلت لأبي سليمان محمد بن طاهر السجستاني: إني أرى بينك وبين ابن سيار القاضي ممازجة نفسية، وصدقة عقلية، ومساعدة طبيعية، ومواناة خلقية، فمن أين هذا؟ وكيف هو؟ فقال: يا بني! اختلطت ثقتي به بثقته بي فاستفدنا طمأنينة وسكونا لا يرثان على الدهر، ولا يحولان بالقيهر. ومع ذلك فيننا بالطالع ومواقع الكواكب مشاكلة عجيبية ومظاهرة غريبة، حتى أنا نلتقي كثيرا في الإرادات، والاختيارات، والشهوات، والطلبات. وربما تراورنا فيحدثني بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل فأجدها شبيهة بأمور حدثت لي في ذلك الأوان حتى كأنها قسائم بيني وبينه، أو كأنني هو فيها أو هو أنا. وربما حدثته برؤيا فيحدثني بأختها فتراها في ذلك الوقت أو قبله بقليل، أو بعده بقليل“.

وقال بعد كلام: فقلت هل تجد عليه في شيء، أو يجد عليك في شيء؟ فقال: وجدى به في الأول قد حجبني عن موجدتى عليه في الثانى، على أنه يكتفى منى فيما خالف هواى بالبلحة الضئيلة، واكتفى أنا أيضا منه في مثل ذلك بالإشارة القليلة. وربما تعاتبنا على حال تعرض على طريق الكناية عن غيرنا كأننا نتحدث عن قوم آخرين، ويكون لنا في ذلك مقنع، واليه مفرع، وقلما نجتمع إلا ويحدثنى عنى بأسرار ما سافرت عن ضميرى الى شفتى، ولا نذت عن صدرى الى لفظى، وذلك للصفاء الذى نتساهمه، والوفاء الذى نتقاسمه، والباطن الذى نتفق عليه، والظاهر الذى نرجع اليه، والأصل الذى رسوخنا فيه، والفرع الذى تشبثنا به. والله ما يسرنى بصداقة حُرِّ النعم. وإذا كنت أعشق الحياة لاني بها أحياء كذلك أعشق كل ما وصل الحياة بالحياة وجنى لى ثمرتها، وجلب لى روحها، وخلط بى طيها وحلاوتها^(١).

والقارئ الذى ألف تذوق العبارات البليغة فى غنى عن تحليل مثل هذا الحديث السائق الخلاب، وما عسانا نجد فى الإفصاح عن جمال التعبير فى مثل قوله "وقلما نجتمع إلا ويحدثنى عنى بأسرار ما سافرت عن ضميرى الى شفتى، ولا نذت عن صدرى الى لفظى".

هيمات هيمات، فتلك لمحات من سحر البيان لا يوفق إليها إلا الملهمون.



١٤ — وينبغى أن نشير الى أن التوحيدى كان من أنصار إخوان الصفا، ولكنه كان يستتر اتقاءً لسخط الجمهور، وكانت طريقته فى تأييدهم أن ينطق الأشخاص بعبارات مريبة، كقوله: "الشريعة طب المرضى، والفلسفة طب الأصحاء، والأنبياء يطبون للرضى حتى لا يترايد مرضهم، وحتى يزول المرض بالعافية فقط، وأما الفلاسفة فانهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعتريهم مرض أصلا. وبين مدبر المريض ومدبر الصحيح فرق ظاهر وأثر مكشوف لأن غاية تدبير المريض أن ينتقل به الى الصحة — هذا اذا كان الدواء ناجعا والطبع قابلا والطبيب ناصحا — وغاية تدبير الصحيح أن يحفظ الصحة واذا حفظ الصحة فقد أفاده كسب

الفضائل وفرغها لها وعرضه لاقتنائها، وصاحب هذه الحال فائز بالسعادة العظمى، وقد صار مستحقاً للحياة الآلئية، والحياة الآلئية هى الخلود والديمومة^(١) .

١٥ — وبهذه المناسبة نذكر أن رسائل إخوان الصفا ظهرت فى القرن الرابع وهى من أهم المصادر للفلسفة الإسلامية، ولا تُعرف أسماء مؤلفيها بالضبط، ولكن يرجح أن التوحيدى كان بينهم . أما لغتها فليست من النثر الفنى الذى كلف به مشاهير الكتاب فى ذلك العصر، ولكنها لغة وسط بين لغة الكتابة ولغة التأليف، لأن كتابها أرادوا أن يفهموا الجماهير ما يرمون إليه من الأغراض السياسية والدينية، وذلك لا يتم فى مثل لغة الصابى وابن العميد . فلم يكن لهم بد من أن يتخيروا تلك اللغة الخالصة من شوائب البديع كالسجع والتورية والجناس، ولكن غلبت عليهم النزعة العامية فى بعض الأحيان^(٢) .

(١) ص ١٥ مقدمة المقابسات . (٢) كانت رسائل إخوان الصفا حليقة بأن تدرس درسا مفصلا فى هذا الكتاب . ولتأريتنا الباحثين أطالوا فيها القول قديما وحديثا ، رأينا من ناحية ثانية أن النثر الفنى فيها قليل . على أناس لم نغفلها جملة ، بل كتبنا فصلا عن بعض اتجاهاتها الفلسفية فى باب (الأخبار والأقاصيص) — راجع « الإنسان والحيران أمام محكمة الجنح » فى الجزء الأول . وراجع كذلك الشواهد التى أثبتناها هناك فى فصل (السجع والازدراج) .

٢ - أبو علي بن مسكويه

١ - لما أصل الى التثبت من لقب الكاتب المفكر أحمد بن محمد بن يعقوب ، فهو تارة "مسكويه" وتارة "ابن مسكويه" وقد حدث ياقوت أنه "كان مجوسيا وأسلم" فظن صديقنا الأستاذ الزركلى صاحب "الأعلام" أن هذا صحيح ، فأثبت كذلك أنه كان مجوسيا وأسلم ، وهذا غير معقول ، فإن الرجل "اسمه أحمد بن محمد" والأرجح عندى أن عبارة ياقوت سقطت منها كلمة ، وأن الأصل "وكان جده مجوسيا وأسلم" وقد يكون هذا الترجيح هو الصواب .

٢ - اتصل ابن مسكويه فى شبابه بابن العميد واختص به ، ثم ساعده زمانه فاختص بأعلام بنى بويه وتولى مكتبة عضد الدولة فلقب بالخازن ، وكانت دار الكتب فى ذلك العهد تسمى "الخزانة" وظل متصلا بأولئك المملوك الى أخريات عمره . يدانا على ذلك قوله يهنئ عميد الملك باتفاق الأضحى والمهرجان فى يوم واحد :

قل للعميد عميد الملك والأدب	اسعد بعيدك عيد الفرس والعرب
هذا يشير بشرب ابن الغمام ضحى	وذا يشير علينا بابنة العنب
خلائق خيَّرت فى كل صالحة	فلودعاها لغير الخير لم تجب
أعدت شرخ شباب لست أذكره	بعدا ، ورُدَّ على العمر من كُثب
فطاب لى هرمى والموت يلحظنى	لحظ المريب ولولا أنت لم يطب
فإن تمرَّس بى خصم تعصب لى	وإن أساء إلى الدهر أحسن بى
وقد بلغت الى أقصى مدى عمرى	وكُلَّ غربى واستأنست بالنوب
إذا تملاَّت من غيظ على زمنى	وجدتنى نائفا فى جذوة اللهب

٣ — شغل ابن مسكويه مدة طويلة بالكيمياء، ولكنه لم يكن فيها من الموفقين وكان اخفاقه مثارا لسخرية أبي حيان التوحيدي، فقد غمزده في كتاب الإمتاع ووصفه بأنه "فقير بين أغنياء، وغنى بين أنبياء" ^(١) واتهمه بالجهل وقلة المحصول، وأنطق بعض محادثة بهذه الجملة "يا عجبا لرجل صحب ابن العميد أبا الفضل، ورأى ما عنده وهذا حظه! ثم أجاب: قد كان هذا! ولكنه كان مشغولا بطلب الكيمياء مع أبي الطيب الكيمياء الرازي مملوك الهمة في طلبه، والحرص على إصابته، مفتونا بكتب أبي زكريا وجابر بن حيان، ومع هذا كان إليه خدمة صاحبه في خزنة كتبه. هذا مع تقطيع الوقت في الحاجات الضرورية والشهوية، والعمر قصير، والساعات طائرة، والحركات دائمة، والفرص بروق تأتلق، والأوطار في عرضها تجتمع وتفترق، والنفوس عن فوائدها تذوب وتحترق. ولقد قطن العامري الرى خمس سنين ودرس وأملى وصنف وروى فما أخذ عنه مسكويه كلمة واحدة، ولا وعى مسأله، حتى كأنه كان بينه وبينه سد. ولقد تجرع على هذا الصاب والعلقم، ومضغ لقمة حنظل الندامة في نفسه، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه، حين لم ينفع ذلك كله. وبعد هذا فهو ذكي حسن الشعر نقي اللفظ.

وقد أولع التوحيدي بمهاجمة ابن مسكويه ورماه بمدح الجود باللسان وإيثار الشح بالفعل، وادعاء الحكمة والتكلف في الأخلاق. ولننظر كيف يقول في كتاب الوزيرين.

"جرى بيني وبين أبي علي مسكويه شيء: قال لي مرة: أما ترى إلى خطأ صاحبنا— وهو يعني ابن العميد — في إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة! لقد أضاع هذا المال الخطير فيسن لا يستحق. فقلت بعد ما أطل الحديث وتقطع بالأسف: أيها الشيخ! أسألك عن شيء واحد، فاصدق فإنه لا مدب للكذب بيني وبينك: لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضعافه أكننت تخيله في نفسك مخطئا ومبذرا ومفسدا أوجاهلا بحق المال؟ أو كنت تقول: ما أحسن ما فعل، وليته أربى عليه! فان كان

الذى تسمع على حقيقته فأعلم أن الذى يرد ورد مقالك إنما هو الحسد أو شيء آخر من جنسه، وأنت تدعى الحكمة، وتكلف فى الأخلاق، وتزيف الزائف وتختار منها المختار، فافطن لأمرك وأطلع على شرك^(١) وشرك^(١) .

٤ — ونحن نفهم سر هذا التحامل من جانب التوحيدى ، فقد كان شديد الحقد على المجذوبين من أهل زمانه ، وخاصة من اتصلوا بالملوك والرؤساء ، ولنا أن نضيف إلى ذلك نجاح ابن مسكويه فى حياته العملية فقد كان الرجل فيما يظهر متين الأخلاق ، ومثانة الخلق قوة مرعبة يُرعد لها الأدباء المساكين الذين أبطلوا بالطمع فى هدايا الملوك والوزراء ، وألفوا الترف والتودد الى أقطاب الجاه والمال . والأديب الذى يعتمد على نفسه وعلى خلقه وعلى كفايته الذاتية يعيش فى الأغلب غربيا بين معاصريه من الأدباء ، فليس عجيبا أن يتحامل أديب متشرد أفاق كالتوحيدى على أديب موفى مطمئن العيش كابن مسكويه . ولو شئنا لأضفنا أيضا نزعة ابن مسكويه الفلسفية فهى كذلك من أسباب حقد التوحيدى عليه ، فقد كان التوحيدى واسع الثقافة إلى حدّ مدهش وكان يطمح فى التفرد بالسمعة العلمية والأدبية والفلسفية بين رجال ذلك الجيل ، ولهذا نراه حين يستتر تحامله على ابن مسكويه لا يجد غير هذا الشاء الهزيل إذ يقول :

”وبعد هذا فهو ذكى حسن الشعر نقى اللفظ“^(٢) .

٥ — ومن دلائل النعمة التى ظفر بها ابن مسكويه فى حياته أن نراه ممدحا يتملقه لثام الشعراء والكتاب ، فقد كتب إليه بديع الزمان الهمداني رسالة عتاب تكلف فيها الود والإخلاص ؛ وكان بديع الزمان وقاح الوجه سليط اللسان ، لا يعترف لأحد بفضل ، ولا تصدر عنه كلمة الإنصاف إلا مدفوعة برغبة أو رهبة ، ويود لو أمكته المقادير من طمس معالم النباهة والصيت فيما يتربه من مختلف البلاد : حتى لا يذكر بالعلم والنبيل إنسان سواه . وتكاد رسائله وقصائده تُقصر على بث ما كان يعتلج فى صدره من حزازات وعداوات

وأضغان وأحتاد، وقد اتصل بابن مسكويه حيناً، ثم سعى بينهما الواشون فكدرُوا ما كان ينتظره البديع من طيب الصلوات، فكتب إلى صاحبه الرسالة الآتية :

وباعز أن واش وشى بى عندكم فلا تمهليه أن تقولى له مهلاً
كما لو وشى واش بعزة عندنا لقلنا تزحج لا قريبا ولا أهلاً

بلغنى — أطل الله بقاء الشيخ — أن قيضة كلب وافته بأحاديث لم يعرها الحق نوره ، ولا الصدق ظهوره ، وأن الشيخ أذن لها على حجاب أذنه ، وفسح لها فناء ظنه ، ومعاذ الله أن أقولها ، وأستجيز معقولها . بلى قد كان بينى وبينه عتاب لا يتزع كنفه ، ولا يجذب أنفه ، وحديث لا يتعدى النفس وضميرها ، ولا تعرفه الشفة وسميرها ، وعريضة كعريضة أهل الفضل لا تتجاوز الدلال والإدلال ، ووحشة يكشفها عتاب لحظة ، كغناء بحظة ، فسبحان من ربي هذا الأمر حتى صار أمراً ، وتأبط شراء ، وأوحش حراً ، وأوجب عذراً ، بل سبحان من جعلنى فى حيز العذر أستم بارفته ، وأستخيل صاعقته ، أنا المساء إليه ، والمجنى عليه ، والمستخف به ، لكن من بلى من الأعداء كما بليت ، ورمى من الحسدة بما رميت ، ووقف من الوجد والوحدة حيث وقفت ، واجتمع عليه من المكاره ما وصفت ، إعتذر مظلوماً ، وأحسن ملوماً ، وصحك مستوماً . ولو علم الشيخ عدد أبناء الحدد ، وأولاد العدد ، بهذا البلد ، ممن ليس له همة إلا فى شكاية أو حكاية أو سعاية أو نكاية ، لضن بعشرة غريب إذا بدر ، وبعيد إذا حضر ، ولصان مجلسه عن لا يصونه عما رقى إليه . فهبنى قلت ما حكى له ، أليس الشاتم من أسمع ؟ أليس الجانى من أبلغ ؟ فقد بلغ من كيد هؤلاء القوم أنهم صادفوا من الأستاذ نفساً لا تستفز ، وجبالاً لا يهز ، وشوا إليه بما أرثوا به نارهم . ورد على ما قالوه فما لبثت أن قلت :

فان يك حرب بين قومى وقومها فانى لها فى كل نائبة سلم

فليعلم الشيخ الفاضل أن فى كبد الأعداء منى بحجرة ، وأن فى أولاد الزنا عندنا كثرة ، وقصاراهم نار يشبونها ، أو عقرب يديبونها ، أو مكيدة يطلبونها ، ولولا أن العذر إقرار بما

قيل، وأكره أن أستقيل، بسطت في الاعتذار شاذروانا، ودخلت في الاستقالة ميدانا، لكنه أمر لم أضع أوله فلا أندارك آخره .

وقد ختم بديع الزمان رسالته بهذه الآيات :

مولاي إن عدت ^٢ ولم ترض لي	أن أشرب البارد لم أشرب
إمتط خدى وأنتعل ناظري	وَصِدُّ بكنى حمة العقرب
بالله ما أنطق عن كاذب	فيك ولا أبرق عن خُلب
فالصفو بعد الكدر المفترى	كالصحو بعد المطر الصيب
أن أجتن الغلظة من سيدي	فالشوك عند الثمر الطيب ^(١)

ثم انتظر من ابن مسكويه ان يعتذر عن إعراضه عنه، فأجابه بما نصه بعد الديباجة :
 ” أما البلاغات التي أوما إليها فوالله ما أذنت لها ولا أذنت فيها ، وما أذهبنى عن
 هذه الطريقة وما أبعدنى عنها ! وقد نزه الله لسانى عن الفحشاء، وسمعى عن الإصغاء ،
 وما يتخذ العدو بينهما مجالا^(٢) “ .

ومثل هذا الجواب يشعر بأن موقف بديع الزمان من صاحبه كان موقف التابع من
 المتبوع . والمصادر لا تعيننا على تحديد ما كان بينهما من ألوان الصلات، وان كانت عبارة
 ياقوت صريحة في أنه كان بينهما قبل هذا العتب وداد .

٦ — شغف ابن مسكويه شغفا بالغا بالفلسفة اليونانية وأطلع على أكثر ما عرف
 العرب من مؤلفات اليونان، ويرى القارئ في آثاره ظلالات كثيرة لآراء سقراط وجالينوس
 وأرسططاليس . ويظهر أن الفلسفة اليونانية وصلت الى أعماق نفسه في وضوح وجلاء
 فاقنتى مناهج اليونان في عرض الآراء وتقصد مظاهر الحياة العقلية والسياسية والاجتماعية .
 وكذلك لم يقف في دراسة الأخلاق عند الحدود الدينية التي كان يكتفى بها الصوفية

والناسكون والزاهدون، بل سائر العقل وصاحبه وأنس به واطمان إليه، ثم اتخذها أساسا للأخلاق، فصار العقل عنده نظيرا للوحى فى عرف المتبتلين، وما زال يدور حول المعقولات فى نظام السلوك حتى صار الخلق المعقول أحب إليه وأقرب إلى نفسه من الخلق المنقول : فهو لا يفعل الخير لأنه أمر به ولا يجتنب الشر لأنه نهى عنه ، وإنما يفعل ما يفعل ويترك ما يترك وفقا لاطمان إليه عقله وأمر به وجدانه فى حدود النفع والمنطق والذوق . وإلى القارئ وصيته — أو دستوره إن شاء — فى نظام السلوك :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا ما عاهد عليه أحمد بن محمد ربّه وهو يومئذ آمن فى سربه ، معافى فى جسمه ، عنده قوت يومه ، لا تدعو إلى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن ؛ ولا يريد بها مراعاة مخلوق ولا استجلاب منفعة ، ولا دفع مضرة : عاهد على أن يجاهد نفسه ويتفقد أمره ، فيعف ويشجع ويحكم . وعلامة عفته أن يقتصد فى مأرب بدنه حتى لا يحمل الشرة على ما يضر جسمه أو يهتك مروءته ؛ وعلامة شجاعته أن يحارب دواعى نفسه الذميمة حتى لا تقهر شهوة قبيحة ولا غضب فى غير موضعه ، وعلامة حكمته أن يستبصر فى اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شىء من العلوم والمعارف الصالحة ، ليصلح أولا نفسه ويهذبها ويحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التى هى العدالة ، وعلى أن يتمسك بهذه التذكرة ويجتهد فى القيام بها والعمل بموجبها وهى خمسة عشر بابا :

إيثار الحق على الباطل فى الاعتقادات ، والصدق على الكذب فى الأقوال ، والخير على الشر فى الأفعال ، وكثرة الجهاد الدائم لأجل الحرب الدائم بين المرء وبين نفسه ، والتمسك بالشرعية ولزوم وظائفها ، وحفظ المواعيد حتى ينجزها ، وأول ذلك ما بينه وبين الله عز وجل ، وقلة الثقة بالناس بترك الاسترسال ، ومحبة الجميل لأنه جميل لا لغير ذلك ، والصمت فى أوقات حركات النفس للكلام حتى يستشار فيه العقل ، وحفظ الحال التى تحصل

في شيء شيء حتى تصير ملكة ولا تفسد بالاسترسال ، والاقدام على كل ما كان صوابا ،
والاشفاق على الزمان الذي هو العمر ليستعمل في المهم دون غيره ، وترك الخوف من
الموت والفقر لعمل ما ينبغي ، وترك التواني ، وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد
لئلا يشتغل بمقابلتهم ، وترك الانفعال لهم ، وحسن احتمال الغنى والفقر والكرامة والهوان ،
وذكر المرض وقت الصحة ، والهم وقت السرور ، والرضا عند الغضب ليقبل الطغي والبغي ،
وقوة الأمل وحسن الرجاء ، والثقة بالله عز وجل وصرف البال ^(١) إليه .

(١) معجم الأدباء ص ٩٥ و ٩٦ ج ٢

٣ - الفرق بين ابن مسكويه

١ - الخلق - كما عرفه ابن مسكويه - حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية . فهو بهذا غير التخلق : لأن التخلق يقتضى شعورا بالكلفة عند إرادة العمل الحسن وعند تجنب العمل القبيح . وقد عرض ابن مسكويه لآراء القدماء في أصل الخلق ، فبين أن منهم من ظنوا " أن الناس كلهم يخلقون أخيارا بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون أشرارا يجالسة أهل الشر والميل الى الشهوات الرديئة التي لا تقمع إلا بالتأديب ^(١) " وأن منهم آخرون " ظنوا أن الناس خلقوا من الطينة السفلى وهي كدر العالم فهم لأجل ذلك أشرار بالطبع وإنما يصيرون أخيارا بالتأديب والتعليم ^(٢) " وهناك رأى ثالث اختاره ابن مسكويه وهو الرأى الذى يقول بأنه " ليس شئ من الأخلاق طبعيا للانسان " وإنما طبع الانسان على قبول الخلق فهو يتحول وفقا لما يؤثر فيه من أعمال الأخيار والأشرار . وليس لابن مسكويه فى أصل الخلق رأى خاص ، وإنما يتخير من بين الآراء ، وضرته أنه يعتمد على المشاهدة والاختبار ، فيقول مثلا " وهذا الرأى هو الذى نختاره لأننا نشاهده عيانا " وحين يشرع فى بيان مراتب الناس فى قبول الآداب يذكر أنها كثيرة ثم يقول : وحى تشاهد وتعاين فيهم وخاصة فى الأطفال ، فان أخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم ، ولا يسترونها بروية ولا فكرا كما يفعله الرجل التام الذى انتهى فى نشوئه وكاله الى حيث يعرف من نفسه ما يستقيح منه فيخفيه بضروب من الحيل والأفعال المضادة لما فى طبعه ، وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الأدب أو نفورهم عنه ، أو ما يظهر فى بعضهم من القحة وفى بعضهم من الحياء ، وكذلك ما ترى فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وضده ، ومن الأحوال المتفاوتة ما تعرف به مراتب الانسان فى قبول الأخلاق الفاضلة وتعلم معه أنهم

ليسوا على رتبة واحدة وأن فيهم المتوانى والمتنع ، والسهل السلس ، والفظ العسر ، والخير^(١) والشرير .

٢ - والواقع أنه ليس لابن مسكويه غير هذه المزية وهى محاولة الانتفاع من المشاهدات والاختبارات . ولكن هذه المزية نفسها تكررت عليه بسبب حيرته فى تعليل ما يعرض له من مختلف الآراء : فهو تارة مع جالينوس وتارة مع ارسططاليس ، وطورا مع العقل وطورا مع الشرع ، بحيث تصطدم فى كتبه معالم المعقول والمنقول ، ولذلك تراه يربأ أقوال الحكماء ترتيبا سيئا فى أكثر الأحوال ، لأنه لا يمشى الى غاية معينة يسوق فى سبيلها الحجج والبراهين . وقد يحتطب أحيانا فى ليل من الظنون والأوهام فيجمع بين الجيد والردى والطيب والخبيث . ولهذا الخبط قيمته عند من يريدون تبين ما فعلت الفلسفة اليونانية بالعقلية العربية ، فقد كانت فى أذهان كثير من الناس صورة للغبار الذى يشور عند هبوب الرياح ، وكانت الأذهان العربية هادئة مطمئنة بخفاءتها فلسفة اليونان بزواجر وأعاصير أطارت ما كان آستقر فيها من أمن وسكون . وقد آن أن يعرف الناس أن الآراء التى تأتى من أقطار أجنبية لا تنفع من يتلقونها إلا بعد أن يهضموها ويسلموها من الافتتان بما فيها من طرافة وبريق ، ومثلهم فى ذلك مثل من يشرب الدواء لا تصفو نفسه ولا تذكو قريحته ولا يعتدل مزاجه إلا بعد أن يزول ما أحدث الدواء بأعصابه وحواسه من قلق واضطراب ، وكذلك وقع لمفكرى العرب حين غزتهم الفلسفة اليونانية . فكان منهم المفتون بكل ما (نقل) عن سقراط وأفلاطون وأرسططاليس ، وكان منهم من هضم تلك الفلسفة واستبقى لعقله وروحه ما فيها من تثقيف للعقل وتهذيب للحس وتقويم للوجدان . ونحن نشهد فى عصرنا شواهد لذلك ، ففى رجال اليوم من له فى كل صباح رأى جديد ، لأنه لا يأخذ عن نفسه وإنما يتلمذ لعدد من الفلاسفة والمفكرين قد يتواءمون وقد يتناقضون ، وهو لهم فى توافقهم وتناقضهم تابع أمين ، وقد يكون فى المساء صدى لكتاب قرأه فى الصباح ، وكذلك يفعل فلان وفلان !

ومن معاصرينا من خلص من قيود ما قرأ وعاد يفكر ويتذوق ويحس وهو حر العقل والذوق والاحساس .

٣ - رسم ابن مسكويه لنفسه خطة تجدر بمثله وهي القصد إلى تثقيف الخواص : فهو لا يكتب في الأخلاق للناس أجمعين ، وإنما يتوجه بأرائه وأبحاثه إلى من درسوا المنطق وعرفوا كيف يكون القياس والبرهان . وكان يشعر - فيما يظهر - بأن خواص زمانه كانوا على حافة الشك والارتياب ، لهذا زاد بهم أولا وقبل كل شيء بإثبات وجود النفس وجودا مستقلا عن الجسم أتم استقلال ، بحيث لا تضعف حين يضعف ولا تزول حين يزول . ولم يضطره إلى مواجهة هذا البحث الشائك إلا اهتمامه كما قلنا بتقويم الخواص ، ولو كان يكتب للعوام لأراح نفسه من آصار هذه المخاطرة العقلية ، لأن العوام مطشئون أو كالمطحنيين إلى خلود الروح وعودتها يوم البعث إلى بقايا جسمها في التراب . وإقناع الخواص بوجود النفس واستقلالها وخلودها هو حجر الزاوية في جذبهم إلى جمال الأخلاق ، لأنه لا يخشى على الخواص إلا شر الريب وعدم الاكتراث . وهم لا يضلون - وما أكثر ما يضلون ! - إلا لياسهم من خلود النفس الانسانية . وقولهم مع سائر الدهريين "إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين" .

٤ - وابن مسكويه واثق بالمنطق ثقة مطلقة ، ومن أجل ذلك يعتمد عليه في جميع الأحوال ، مطمئنا إلى أنه متى صحت المقدمات حقت النتائج . فلنختبر ما صنع في بيان وجود النفس لنعرف مبلغ ما وصل إليه في إثبات ما يريد ، وهو يذكر "أنا لما وجدنا في الانسان شيئا ما يضاد أفعال الأجسام بحته وخواصه وله أيضا أفعال تضاد أفعال الجسم وخواصه حتى لا يشركه في حال من الأحوال ، وكذلك نجد بين الأعراض وبيضاها كلها غاية المباينة ثم وجدنا هذه المباينة والمضادة منه للأجسام والأعراض إنما هي من حيث كانت الأجسام اجساما والأعراض أعراضا حكما بأن هذا الشيء ليس بجسم ولا جزء من جسم ولا عرضا ، وذلك أنه لا يستحيل ولا يتغير ، وأيضا فإنه يدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقه فتور ولا كلال ولا نقص^(١)" .

ومعنى هذا أن الانسان مركب من شيئين : أحدهما الجسم ، وثانيهما النفس . والجسم محسوس ملموس لا يختلف في تقديره اثنان ، فلم يبق موضعا للتزاع إلا النفس وحى عنده تضاد الأجسام في الحدود والخواص .

” وبيان ذلك — كما شرح فى كتاب تهذيب الأخلاق^(١) — أن كل جسم له صورة ما فانه ليس يقبل صورة أخرى من جنس صورته الأولى إلا بعد مفارقة الصورة الأولى مفارقة تامة . مثال ذلك أن الجسم اذا قبل صورة وشكلا من الأشكال كالتثليث مثلا فليس يقبل شكلا آخر من التربيع والتدوير وغيرهما إلا بعد أن يفارقه الشكل الأول ، وكذلك إذا قبل صورة نقش أو كتابة أو أى شىء كان من الصور فليس يقبل صورة أخرى من ذلك الجنس إلا بعد زوال الأولى وبطلانها البتة . فان بقى فيه شىء من رسم الصورة الأولى لم يقبل الصورة الثانية على التمام بل تختلط الصورتان فلا يخلص له إحداها على التمام . مثال ذلك إذا قبل الشمع صورة نقش فى الخاتم لم يقبل غيره من النقوش إلا بعد أن يزول عنه رسم النقش الأول“ .

هذا هو الجسم ، أما النفس فتقبل صور الأشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات ”على التمام والكمال من غير مفارقة للأولى ولا معاقبة ولا زوال رسم ، بل يبقى الرسم الأول تاما كاملا وتقبل الرسم الثانى أيضا تاما كاملا ؛ ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة أبدا دائما من غير أن تضعف أو تقصر فى وقت من الأوقات عن قبول ما يرد ويطرأ عليها من الصور“ .

٥ — تلك إحدى محاولات ابن مسكويه فى استقلال النفس ، وكلامه فى هذا الباب كلام الواثق من صحة ما يقول ، وليته تذكر أننا حين نؤمن بوجود شىء لا ينهض إيماننا حجة على وجود ذلك الشىء على النحو الذى نتصوره ونراه ، فليس اطمئنان ابن مسكويه إلى أن النفس موجودة مستقلة خالدة بكاف فى محو ما يحيك فى الصدور من الريب فى استقلالها

عن الجسم وتفردها دونه بالخلود . وأخشى أن يقف قوم في وجه ابن مسكويه فينكروا عليه ما آدعاه من أن النفس "تدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقها فتور ولا كلال ولا نقص" فقد شاهد ناس أن النفس تتبع الجسم في الصحة والمرض والقوة والضعف والنشاط والخمول، وإن الإنسان يرى المعنويات والمحسوسات بأشكال مختلفة في وجوه متباينة تبعاً لاختلاف الذوق والحس والمزاج . ولاحظ ناس كذلك أننا عبيد لحواسنا وأعصابنا وأن جمهورنا مدين في تكوين ذوقه وحسه وعقله إلى ما يأكل وما يشرب وما يلبس وما يرى وما يذوق ، وأنه كذلك مدين إلى من يصادق ويخاصم في تكييف ما يعتلج بصدره من ألوان المودات والعداوات . وقد راعى ذلك فقهاء الشريعة الإسلامية حين وضعوا آداب القضاء ، واستجوبوا للقاضي أن يمتنع عن الحكم إذا شعر ببعض عوارض المرض أو الظمأ أو الجوع ، فليس من السهل الاقتناع بأن النفس معصومة من التحول والتغير والفساد ، كما ظن ابن مسكويه وكما توهم متابعوه .

إن حلول النفس مشكلة قديمة تعبت في حلها العقول ، والقول الفصل هو كلمة القرآن "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً" ولو سكنت عنها ابن مسكويه لأراح واستراح . ولكنه ظن المنطق والفلسفة يغنيان في كشف ذلك السر الذي لم يحاول كشفه القرآن .

٦ — فإذا تركنا الجوانب النظرية في أساس الأخلاق ومضيها نتعقب جهود ابن مسكويه في شرح الجوانب العملية رأيناه في أكثر الأحوال من الموفقين ، من ذلك أنه عرض لشرح القاعدة التي تقول "الإنسان مدني" بالطبع" فأخذ يفصلها بأن ذلك معناه "أنه لم يخلق الإنسان خلق من يعيش وحده ويتم له البقاء بنفسه كما خلق كثير من الوحش والبهائم والطيور وحيوان المساء ، لأن كل واحد من تلك خلق مكتفياً بنفسه غير محتاج في بقائه إلى غيره ، بل قد أزيحت علته في جميع ما تتم به حياته خلقه وإلهاماً . أما الخلقة فلا أنه مكتسب بما يوافقه من وبر وصفوف وشعور ريش وما أشبه ذلك ، وذو آلة يتناول بها حاجته : إن كان لا قط حب

فبتقار، وإن كان آكل عشب فشفير وأسنان موافقة للقطع والقلع ، وإن كان سبعا أو آكل لحم فأنياب أو مخالب أو مناسر ... وأما الإلهام فلا نه يتناول من الأغذية ما يوافقه ويتجنب ما يضره ، وينتقل من مصيفه إلى مشاده ، ويعتد مصالحه كلها من القوت ولكن بغير تعليم ولا تدبير، بل بالإلهام المولود معه ، فكل واحد منها مكتف بذاته في حياته التي قدّرت له . فأما الإنسان فإنه خلق عاريا غير مهتد لشيء من مصالحه إلا بالمعانة والتعليم ، ولا يكفيه القليل من معاونين حتى يكونوا عدّة كثيرة وجماعة وافرة، وإذ كان هذا على هذا وكان سبيل الإنسان في حياته وحسن عيشته على خلاف الحيوان كله قيل إنه مدنى بالطبع : أى محتاج إلى ضروب المعاونات التي تتم بالمدينة واجتماع الناس . وهذا الاجتماع للتعاون وهو التمدن سواء كان ذلك في الناس وبراً ومدراً أو على رأس جبل^(١) .

٧. — ويخلص ابن مسكويه من ذلك إلى نتيجتين عظيمتين :

الأولى : أنه من العدل أن نعين الناس بأنفسنا كما أعانونا بأنفسهم ونبذل لهم عوض ما بذلوه لنا .

الثانية : أن الذهاب إلى التزهّد وتحريم المكاسب ظلم : لأن الزاهد مضطر لا محالة إلى استنجاد الناس في ضرورات بدنه وحاجاته إلى ما يقيم أوده ، فهو يطلب معاوتهم ثم لا يعاونهم ، وذلك ظلم وعدوان . فان ظن أحد من المتزهدين أن مقدار حاجته إلى معونات الناس قليل فليعلم أن ذلك القليل يحتاج فيه إلى استخدام عالم كثير من الناس لا يحصون^(٢) وإن كان لا يشعر بذلك^(٢) .

وهذه دقة في فهم الأخلاق ، لأننا قد نحسب أننا نحسن إلى الناس على حين لا نعمل غير قضاء ما علينا لهم من ديون . وكل إنسان في الواقع مدين إلى إخوانه في الإنسانية من قرب أو من بعد ، فالمصباح الذي نقرأ في ضوئه ، ونظام البيت الذي نأوى إليه ، والكتاب الذي نهتدى بهديه ، والشرائع التي نعيش في حماها ؛ كل أولئك جزء من جهود انسانية عديدة

منها القريب ومنها البعيد، وتلك الجهود تظلم ونحن أجنة في بطون أمهاتنا ، وترعانا حين نولد، ثم تظل تلاحقنا ببرها طول الحياة ، إلى أن تشمل أجسامنا بالكرامة والرعاية يوم نموت . فانه عرف بعض ما أسدته إلينا الإنسانية؛ ولندكر أن أفضلنا وأكرمنا هو من آمن حق الإيمان بأن الحياة تعاون وتساند وأن المرء بنفسه قليل .

٨ — ولعل أفضل ما كتب ابن مسكويه هو الفصل الذي عقده للكلام عن آداب الصداقة ورعاية الصديق، وهو في هذا مسبق بعدد عظيم من الكتاب والمفكرين، ولكنه بسط القول في الصداقة بسطا شافيا ينساب إلى النفس انسياب الماء إلى الأشجار الظماء ، وهو في ذلك الفصل خاصة يتكلم كلام المفكر المجرب الذي صادق وعادى وعرف كيف تكون مرارة العداوات وحلاوة الصداقات، وهو يشعرنا بأن الاحتفاظ بالصداقة ليس من الأمور الهينة كما يتوهم الأكثرون . وقد تقتنع بعد قراءة ما كتب بأن تألف العدو أيسر من الاحتفاظ بالصديق . وتلك مسألة في غاية الدقة : فطالما ضيعنا أصدقاءنا حين ظننا بأن في الصداقة ما يغني عن التلطف والتودد ورعاية الحقوق .

٤ - ابنه نباتة الخطيب

١ - اشتهر بابن نباتة في الأدب العربي ثلاثة رجال : أولهم عبد الرحيم بن محمد بن نباتة الخطيب الذي ولد في ميفارقين بديار بكر سنة ٣٣٥ ودفن بها سنة ٣٧٤، والثاني محمد بن محمد بن نباتة المصري الشاعر وصاحب "سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون" وهو من ذرية ابن نباتة الخطيب كما أشار إليه في آخر إجازته للصلاح الصفدى وهى مذكورة في خزانة الأدب (٦٨٦ - ٧٦٨)^(١) والثالث عبد العزيز بن نباتة السعدى أحد الشعراء المجيدين الذين مدحوا سيف الدولة ابن حمدان .

٢ - وابن نباتة الخطيب الذى نحن بصدده رجل موفق رزق ما لم يرزق أحد من الشهرة العريضة بين الخطباء الواعظين . وقد ذكر ابن خلكان أن الاجماع وقع على أن خطبه ما عمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته . وقد اهتم النقاد بتعقب خطبه ومناقشتها ، فعرض له ابن أبى الحديد في شرح نهج البلاغة وعرض له ابن الأثير صاحب المثل السائر في عدة مواطن في آتاه ، واهتم بشرح ديوانه جماعة من المشاهير منهم عبد الله العكبرى (٥٣٨ - ٦١٦) وعبد اللطيف بن يوسف البغدادى (٥٥٧ - ٦٢٩) وعثمان بن يوسف القاويى المتوفى سنة ٦٤٤

ويظهر مما كتب عنه أن الرجل كان قد فنى في الوعظ فناء تاما ، وكان مستغوبا بما يطمئنه على مصيره ومصير عمله ، فكان لذلك يتقن لو يرى الرسول في المنام ، وقد صحت له هذه الأمنية . نقل ابن خلكان عن تاج الدين الكندى باسناده المتصل الى الخطيب بن نباتة أنه قال : لما عملت خطبة المنام وخطبت بها يوم الجمعة رأيت ليلة السبت فى منامى كأنى بظاهر ميفارقين

(١) ص ١٨ مقدمة ديوان ابن نباتة لطاهر الجزائرى ومقدمة ديوان ابن نباتة للبشتكى . (٢) ص ٥٠٧ ح ١

(٣) ص ١٤٢ ج ١ (٤) ص ١١٨ و ١٦٢ و ٤٦٠

عند الجبانة فقلت : ما هذا الجمع ؟ فقال لى قائل : هذا النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه فقصدت إليه لأسلم عليه فلما دنوت منه التفت فرآنى فقال : مرحبا يا خطيب الخطباء ! كيف تقول — وأوما إلى القبور — قلت : لا يخبرون بما إليه آلوا ، ولو قدروا على المقال لقالوا ، قد شربوا من الموت كأسا مرة ، ولم يفقدوا من أعمالهم ذرة ، وآلى عليهم الدهر أليسة برة ، أن لا يجعل لهم الى دار الدنيا كرة ، كأنهم لم يكونوا للعيون قرة ، ولم يعدوا في الأحياء مرة ! أسكتهم والله الذى أنطقهم ، وأبادهم الذى خلقهم ، وسيجدهم كما أخلقهم ، ويجمعهم كما فرقهم ، يوم يعيد الله العالمين خلقا جديدا ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودا ، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا — وأومات عند قولى تكونون شهداء على الناس الى الصحابة ، وبقولى شهيدا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم — يقوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا . فقال لى : أحسنت ، ادن ، فدنوت منه صلى الله عليه وسلم فأخذ وجهى وقبله وتفل فى فمى وقال : وفقك الله !

٣٥ — ومثل هذه الرؤيا يدل على منجى ابن نباتة وفهمه لواجبات الخطيب ، ورؤيا الرسول لا تدل على شيء أكثر من شغل الرأى واتجاهاته الفكرية ، فالرسول حين تراءى له فى نومه لم يحدثه إلا بما يجب هو أن يتحدث به ، وكان ابن نباتة مغربا بالكلام على الموت والمعاد ، وكذلك وجه الرسول اهتمامه فى المنام إلى سؤاله عن مصير أهل القبور . وملحقات الرؤيا تعطينا صورة من عقلية الواعظين ، ولا تزال تلك الصورة موجودة الى اليوم ، فاجتذاب الرسول لوجه الخطيب وتقبيله إياه ثم تفلته فى فمه ، وبقاء الخطيب بعد هذا المنام ثلاثة أيام لا يطعم طعاما ولا يشتهي مع غلبة ريح المسك على فيه وبموته بعد ذلك المنام بقليل : كل هذا من الصور العقلية التى ترد كل يوم بين طبقات الواعظين من الخطباء .

ويظهر أن صيت ابن نباتة وسمعته دفعت من بعده الى تلمس أخباره عن طريق المنام ، فقد قال ابن خلكان : رأيت فى بعض المجاميع ، قال الوزير أبو القاسم بن المغزبى : رأيت

٥ — ولكن ما هي قيمة ابن نباتة الذي حدثنا صاحب المثل السائر أن خطبه كانت منشورة بين أيدي الناس يغرمون بها ويكون عليها ، وأنها كانت في أنفسهم تساوي مقامات الحريري ؟

من الوجهة الفنية يعدُّ ابن نباتة من أعرف الناس بصياغة الكلام ، وهو يراعى فنون البديع مراعاة تامة ، وسجعه حسن مقبول . وربما كان السجع أقرب فنون البديع إلى لغة الخطباء ؛ فهو أسرع تأثيراً في الجماهير التي لا تفتن إلا إلى الظواهر البراقة من حلية البلاغة والبيان . وربما كان في اختيار الواعظين للسجع اتصال للتقاليد القديمة التي عرفت عن الكهان ، والكهان هؤلاء كانوا رجالاً يؤدّون في البيئات الجاهلية مناسك عند قبض الواعظين في البيئات الإسلامية ، والجمهور واحد أمام الفريقين : فهو دائماً الله عليه وسلم الذي يوم تجد فيما تحتوي السجعات من الألحان والأنغام والأوزان مثيراً لما لا ينسى وينته أمداء بعيداً .

الإنسانية الكامنة التي يهيجها النغم والإيقاع .

٦ — وابن نباتة يجمع بين السجع والموازنة ، وذلك مما لواجبات الخطيب ، ورؤيا في الصنعة اللفظية ، ولنضرب المثل بقوله :

” حتى إذا استحكت فيهم طاعية التخليد ، واستولت به فالرسول حين تراءى له في يومه وهو في هذه الكلمة قابل بين ” طاعية “ و ” رذائية “ وبين ما بالكلام على الموت والمعاد ، ولكن صال عليهم القضاء فاطرقوا ، وطال بهم العناء فأنتم القيور . وملحقات الرؤيا فقد قابل بين ” صال “ و ” طال “ وبين ” انقضاء “ و ” العفو “ اليوم ، فاجتذاب و ” أخلقوا “ .

وكذلك قوله : ” فيعلم عباد الله إلى محاسبة النعم ”

الرموس ، ومعينة اليوم العيسوس ، يوم غص الرء

والموازنة في هذه الفقرات ظاهرة لا تحتاج بعدد إلى تلمس أخباره عن طريق المنام ،

الوزير أبو القاسم بن المغيرة : رأيت

”خواضا بلج الرمضاء“ فيه أيضا خيال جميل ، وإن كنت لا أستجيد إضافة اللج إلى الرمضاء ، لأن أيام اللج لا تكون دائما في القيظ الشديد .

وقد يسمو به التخيل إلى بعض الصور الطريفة كقوله في بعض خطب الجهاد .

”قد دخلت علينا الفتنة من كل باب ، وأطمعنا الدنيا إطماع السراب ، تهارش حطامها تهارش الكلاب ، وتلبس فيها جلود الضأن على قلوب الذئاب ، ننظر إلى المعرورين نظر الخزر الغضاب ، ونسكن إلى المنكر سكون الباني بالحدود الكعاب ، وقد أظنا من العبد سحاب ممتدة الأطناب ، ودبت في ديارنا منه عقارب الخراب“ (١)

وقوله في خطبة أخرى : ”إن للجنة بابا حدوده تطهير الله عليه وسلم الذي يوم تجد وساحته زحف الرجال إلى الرجال ، وطريقه عمجمة الأبطال“ (٢)

القتال ، ومدخله من مشرعة الصوارم والنبال“ .

٨ — أما من الوجهة العقلية فإن نباتة يقف دائما في وجه

ويعيد في ذكر الموت والمعاد ، ويتكلم على فضائل المواسم

ويبين فصل يوم عاشوراء ، ثم يخطب في فضل رجب ، ولواجبات الخطيب ، ورؤيا

شعبان ليستقبل رمضان ، وهكذا دواليك من الشؤون

الوجهة المعنوية خطب الجهاد ، ولكنها أيضا خطب

الملتب والرأي السديد . وهي دائما دون خطب على

ابن نباتة ويتأثرها في جميع مواقف الخطابية . ومن الضعف

تستحق الخلود ، أو تدل على عمق في الفكر أو سمو في

”فقدّموا مجاهدة القلوب ، قبل مشاهدة الجوارح“

وقوله : ”واستشعروا السكينة إذا كشفت

اللطام ضرابها ، وأمر الحمام شرايبها ، و

الوزير أبو القاسم بن المغزني : رأيت

٥ - أبو محمد بن حزم

١ - كان الناس يعرفون عن ابن حزم أشياء قليلة من حياته الخاصة. ولم يعرف الجمهور أكثر من أنه كان أكبر علماء الأندلس في عصره ومن أشهر أئمة الإسلام وأعرفهم بالمشافهة الفلسفية والدينية التي تأصلت جذورها عند علماء المسلمين. وكتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل" كان ولا يزال من أهم المراجع لعلوم الفلسفة ومذاهب التوحيد.

ويعد ابن حزم أفصح كاتب عرفته اللغة العربية في الفقه. مات عند قبة ركن ولكن تبين أخيراً أنه كان لذلك الامام قلب خفاق. الله عليه وسلم الذي تجمد واستهدف على عظمته للقليل والقال. وأقول ما عرفنا من بينه أبداً بعيداً.

طبع كتابه "طوق الحمامة" في لندن سنة ١٩١٤ بعناية المملى وأحدث ذلك الكتاب رجة عنيفة جداً في أوروبا وشمال أفريقيا. وكان موجب تلك الضجة أنه لم يثبت أن كتاباً فضائل المواس لا في اللغات القديمة ولا في اللغات الحديثة، بل رجب، لواجبات الخطيئة، ورؤيا قليلة جداً في الشؤون الوجدانية. فكان من من الشئور بالرسول حين تراءى له في نومه في ذلك العصر كاتب عربي يتناول حديث خطيباً بالكلية على الموت والمعاد، هو آية الآيات في فهم أسرار الأهواء والشهوات خطيب على أي شيء. فاجتذاب إماماً من أئمة الدين، ومثلاً يُحتذى في أليسة. ومن الضعف بعد هذا المنام ثلاثة أيام

(١) كان ابن حزم خليفاً بأن يكتب في ترجمة حياة أو سموة في يوموته بعد ذلك المنام بقليل: كل أن تكون أدبية، ولو لا كتابه في الحب لما عرضنا لنشره في قرطبة. وتوفي سنة ٤٥٦ هـ ومن حيد شعره:

وان مكنا ضاق عني لصيق
وان رجلاً ضيعوني لضيق
بعده إلى تلمس أخباره عن طريق المنام،
الوزير أبو القاسم بن المغزني: رأيت

واستطاع بحزمه وقوة نفسه أن ينظم الأمور وبضبط الأعمال "وبسط عدله وأقام هيئته في صدور الجند والرعية حتى كان يكفيه رفع الطرف إلى أحدهم على طريق الإنكار فترعد الفرائص وتضطرب الأعضاء، وتسترنى المفاصل" كما عبر ابن مسكويه، وهو عندنا صادق فيما وصف به ابن العميد.

٦ - وكان ابن العميد من الوزراء المدحجين، فقصده الشعراء من كل صوب، وساقوا إليه جياذ المدائح، وللتنبى فيه قصيدة رائية يحفظها أكثر الناس.

ولنشرها إلى أن ابن نباتة السعدي ورد عليه وهو بالري وأتمدحه بقصيدته التي أ

برح أشتياق وادكار
ومدامع عبراتها
لله قلبي ما يحين
لقد آتقضى سكر الشبا
وكبرت عن وصل الصفا
سقى لتغليسي إلى
أيام أخطر في الصبا
سجى إلى حجر الصرا
ومواطن اللذات أوطا
لم يسقى لي عيش يلد
أحيا بالخان قمر
وإذا استهل ابن العميد
خرق صفت أخلاقه
فكأنما زفت موا

ولبيب أنفاس
ترفض عن الله عليه وسلم الذي
من ذا سنيار وبننه أمدا بعيدا
ب وما
ر وما
باب
ت الش
خط
في
تطب
ومن
ت
تضاء
صف

ب إلى تلمس أخباره عن طريق المنام،
زير أبو القاسم بن المغزني : رأي

الصبر، هذا وما استقدمتك بكتاب، ولا استدعيتك برسول، ولا سألتك مدحى ولا كلفتك
تقرىظى !

فقال ابن نباته : صدقت أيها الرئيس ! ما استقدمتني بكتاب ، ولا استدعيتني برسول ، ولا سألني مدحك ، ولا كلفتنى تقريرك ، ولكن جالسيت فى صدر ديوانك بأبهتك ، وقلت لا يخاطبني أحد الا بالرياسة ، ولا ينازعنى خلق فى أحكام السياسة ، فأنى كاتب ركن الدولة ، وزعيم الأولياء والحضرة ، والقيم بمصالح المملكة ، فكأنك دعوتنى بلسان الحال ، ولم تدعنى بلسان المقال !

فتار ابن العميد مغضبا وأسرع في صحن داره الى أن دخل حجراته، وتقوض الحجر
وماج الناس، وسمع ابن نباته وهو في صحن الدار ماراً يقول: ^{فما الذي} عليه وسلم الذي ^{يتم} تجد
على الجمر أهون من هذا! فلعن الله الأدب اذا كان بائعه مهيباً ^{سنداً} وبينه أمداً بعيداً.

فلما سكن غيظ ابن العميد وثاب إليه حامله ألتصه من وجهي وقبله ونقل ما كان منه : فكأنما غاص في سماع الأرض وبصرها ، فلا في جنة الواسع إلى أن مات .

وقد نقلنا هذا الخبر على طوله لأهمية خاصة ،
وهو ابن خلكان عاد فحدثنا انه وجد هذه الاشياء
ابن نباته ، وانه كشف ديوان ابن نباته فلم يرفيه ،
الوزيرين) للتوحيدى منسوبة لأبى محمد عبد الرزاق
الشاعر من أهل الكرخ .

ونحن نأسف مر الأسف على أن لم نتمكن من الاطلاع بعد ذلك المتنام بقليل : كل ونخشى أن يكون ضاع أبد الآبدين ، مع أنه كان موثوقاً من الخطباء .

ولو أتيح لنا الاطلاع على هذا الكتاب لاستغنينا تخطي تلمس أخباره عن طريق المنام، بأن هذا المجلس الذي نقلناه آنفا من صنع التوحيدى،

الأستاذ الرئيس ولا يرضاه لسيرته ، وكان يعظه وينهاه عن هذه السيرة ، ويعلمه أن ذلك لو كان مما يترخص فيه لكان هو بنفسه قد سبق إليه .

قال ابن مسكويه : « ولقد سمعته في كثير من خلواته يشرح له صورة الديلم في الحسد والجشع ، وأنه ما ملكهم أحد قط إلا بترك الزينة وبذل ما لا يبطرهم ولا يخرجهم إلى التحاسد ، ولا يتكبر عليهم ، ولا يكون إلا في مرتبة أوسطهم حالا ، وإن من دعاهم واحتشد لهم وحمل على حالة فوق طاقته لم يمنعهم ذلك من حسده على نعمته والسعى على إزالتها وترقب أوقات الغرة في آمن ما يكون الإنسان على نفسه منهم فيفتكون به في ذلك الوقت^(١) .

ولكن تلك العظات لم تكن شيئا في تقويم ذلك الفتى ، فكان أبوه يأخذه معه في الزمان حتى لا تكون سيرته سببا في تغيير ركن الدولة على وزيره . واتفق ابنه عليه ، وأسأل الله أن يوفقهم في سفراته واستصحب معه ابنه أبا الفتح ، فلما كان في بعض الطريقين وبينه أمدا بعيدا .

ولا يستقل على ظهور الدواب لإفراط علة القرس وغيرها عليه .

أحدا ، وسأل عن الخبر فلم يجد حاجبا يخبره ولا من جرت أفعاله .

فسأله فأخبره أن الجند بأسرهم مالوا مع أبي الفتح إلى مصر .

من ذلك وساء أن يجري مثل هذا ولا يستأذن فيه .

حرب ، ولم يأمن أن يستمر هذا التشتت من المعسكر .

بأن يحجب عنه ابنه أبا الفتح ، وأن يوصى النقباء بمنع خطه .

هذا المبلغ من الإنكار سيغض منه وينهى العسكر من اتباعه .

وعاد الفتى إلى عادته واتبعه العسكر ومالوا معه إلى اللعب .

لا يخلجهم من الخلع والالطاف ، فشق ذلك على الأستاذ الرئيس .

نفسه بإظهار ما في قلبه ، ولا أن يبالغ في الإنكار وهو في سن الخطباء .

ويطمع فيه عدوه ، فدارى أمره ، وتجرع غيظه ، وأداه .

فأسس أخبارا عن طريق المنام ،

بهذان وهو يقول في مجلس خلواته : ما يهلك آل العميد ولا يمحوا آثارهم من الأرض إلا هذا الصبي (يعني ابنه) ويقول في مرضه : ما قتلتى إلا جرع الغيظ التي تجرعتها منه^(١) .

وكانت وفاته رحمه الله بالرى سنة ٣٥٩ بعد أن عانى ما عانى من القولنج والنقرس يعاودانه صباح مساء . ويقال إنه رأى اكارا في بستان يأكل خبزا يبصل ولبن وقد أمعن فيه فقال : وددت لو كنت كهذا الاكار آكل ما أشتهى ! وكذلك كانت العافية أنفع وأجمل من الملك والجاه والمال . وهل تبسم الدنيا لانسان عليل ؟

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٧٣

٢ - ثمر ابن العميد

١ - كان رجال القرن الرابع يقولون : "بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد"^(١)، وهي مبالغه تذكر بما قيل في ذلك العهد : "بدى الشعر بملك، وختم بملك" يريدون أنه بدى بامرئ القيس وختم بأبي فراس . وهذه وتلك من المبالغات التي تجري على السنة المتتلفين من الحواشي والأتباع ، فقد كان لابن العميد أشياح يقولون بإمامته في الشعر كما كان لأبي فراس أشياح يقولون بإمامته في الشعر . وكلتا الكلمتين على ما فيهما من مبالغة ظاهران ترجعان الى أصل من الحق أصيل : فقد كان ابن العميد وأبو فراس عليهما أقدار في يوم تجد منهما روح قوى قهار يعز على من رامه ويظون .

والقارئ يعرف أننا نشكر أن تكون الكتابة بدئت بعبد الحميد، وجهي وقبله ونقل كان إماما لأهل عصره ، وأنه أدخل في الكتابة أساليب الأولون ، وكذلك كان ابن العميد إماما لكاتب القرن الرابع لواجبات الخطيب ، ورؤيا الكتابة ما أدخله عبد الحميد ، ولكنه يمتاز بميزة عجيبة : رؤية فالرسول حين تراءى له في نومه الدرجات : فإننا حين نقرأ نثره نجد أنفسنا أمام عظم نخبها بالكلام على الموت والمعاد، حين يكتب لا يطالعك بفنه، كما كان يفعل معاصروه، وإنما على القصور . وملحقات الرؤيا بحيث تبدو كل كلمة من كلماته وكأنها قلب يخفق أو روح في اليوم، فاجتذاب العميد زخرفا براقا يلهو به ولا ثروة لغوية يكثر بها الكتاب، ولكن هذا المنام ثلاثة أيام أو وجدانية يرمى بها كما يرمى البركان بأقباس الهلاك ، وقد يرق فتحيس المنام بقليل : كل في هدأة الليل، وهو في رفته وجزالته ، وغضبه وحنانه، عبقري لا المعاد، وإنما يحده بابداع الرأي الصائب والقول الرصين .

٢ - لم تصل إلينا مجموعة الرسائل التي حفظت عن ابن العميد ، ولكن بقيت منها شواهد تعطي عن نثره فكرة قريبة من الصواب . ونثره باعتبار موضوعاته يرجع الى فنين : الأول رسائله الرسمية التي كتبها بصفته وزيرا لركن الدولة ، والثاني رسائله الشخصية التي عبر فيها عن ذات نفسه وهو يرسل أصدقاءه وأحبابه . ولكل من الفنين في نثره لون خاص . ولنسارع فنقرر أن الرسائل التي كتبها على لسان ركن الدولة ليست كالرسائل التي كتبها الصابى مثلا على لسان بعض الخلفاء والوزراء . لا ، فان ابن العميد حين يتكلم عن مليكه يتكلم بقوة وحرية ، ويعبر عن إرادته الذاتية أكثر مما يعبر عن يكتب باسمه . ويرجع ذلك الى أن ابن العميد كان كل شيء في الملك الذي يسيطر عليه باسم ركن الدولة ، وكان الى جانب شخصيا إخلاصا قويا يحول مشا كل الحكم عند أمثاله من الوزراء الى معضلات شخصية وهو لا يقبل أن يحس بها صاحب التاج . ولننظر كيف يخاطب بعض الخوارج : ولا يقف إلا عن أيرى عن غضب أم يصدر عن عقل :

إليه فيقرظها في بخانك ، ولجمع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك الأصديق . ثم خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، "وصل تكلمك الذي في أمانة ، وتبعهما بأنف خلاف ومعصية . وأدنى ذلك يهبط فأرتحت لكل ما أوليت ، ولا جرم أنى وقفت بين ميل إليك ، وميل عليك ، أقدم نظائره التي وكلت بها ذكرك ، وأبسط يدا لاصطلامك واجتياحك ، وأثنى ثانية وبهرنى العبد بصدق وجوب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللب ثم يشوب ، ويذهب وحل وحل أن كنت في كمال صلح ، ويضاع الرأي ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، والعبد الإخو " .

دفة يرى القارئ كيف يتلطف ابن العميد فيستدرج ذلك العاصي ويقفه "ولو لم يثبت من يومه وأمسه ، وحاضره وماضيه ، ثم يعرض عليه وجوه حاله في الطاعة والكف ، فقد ما للبد والعبد " .

”وزعمت أنك في طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها ، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حالها ، وحلبت شطريها ، فنشدتك الله إلا ما صدقني عما سألتك : كيف وجدت ما زُلت عنه ، وكيف تجد ما صرت إليه ؟ ألم تكن من الأول في ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وريح ليليل ، وغذاء غذى ، وماء روى ، ومهاد وطى “ ، وكنت كنين ، ومكان مكين ، وحصن حصين ، عززت به بعد الدلة ، وكثرت به بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة ، وأيسرت بعد المعسرة ، وأثريت بعد المتربة ؟ فقيم أنت الآن من الأمر ؟ وما العوض عما عددت ، والخالف مما وصفت ، وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ، ونقضت منها كفك ، وغمست في خلافها يدك ؟ وما الذي أظلك بعد انحسار ظلها عنك ؟ أظل ذو ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغني من اللهب ؟ قل نعم كذلك ! “.

وابن العميد يعرف قوة نفسه ، وبأس قلمه ، ولذلك يقول وقد بلغ هذا الخطاب : ” تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستكرها . وجهي وقبلة وتقل حل يحس ؟ وأجسس عرقك هل ينبض ؟ وفتش ما حنا عليك “ .

وهذا النمط من الكتابة القوية يمثل قدر البلاغة في لواجهات الخطيب ، ورؤيا فهم يرون رسائل التهديد والوعيد طلائع من الأقلام تتقدم طام متابعة موفقة لذلك العرف الذي سنه كتاب الدولة الأموية . ولما بالكلام على الجوت والمعاد ، أسلوب في الدعاية كان يجري عن طريق الرسائل كما تجري على القصور . وملحقات الرؤيا السياسية . والدنيا هي الدنيا والناس هم الناس ، وإن تغيرت سران هذا المنام ثلاثة أيام وفقا لتغير وسائل النشر والتبليغ .

٤ — أما رسائله الشخصية فهي فن من الشعر الوجداني البليغ ، في موضوعات شعرية ما كان يصلح لها غير القصيد ، وأظهر ما كتب في طريق المنام .

الوجدانيات : هو العتاب . ولكن أى عتاب ! ان الرجل يتحدث اليوم عن مشاعرنا وعواطفنا وبيننا وبينه عشرة قرون . لقد كان هذا الرجل يفهم الصداقة فهما دقيقا جدا ، والظاهر أنها كانت تتحول فى قلبه الى عشق ، لأنه فى عتابه ينتفس عن قلب العاشق أضعاف ما ينتفس عن روح الصديق . وهو فى عتابه مختلف الأشبجان والنوازع : فله أوقات يشور فيها ثورة جارية فيرمى بإخاء من يعاتب فى بحيم النسيان ، كقوله وقد مزج بين العتب والمهجاء :

”وقد ندمت ... ولكن أى ساعة مندم ! بعد إفناء الزمان فى ابتدائك ، وتصفحى حالات الدهر فى اختيارك ، وبعد تضييع ما غرسته ، ونقض ما أسسته ، فان الوداد غرس اذا امتدح اذف ثرى ثريا ، وجوا غديا ، وماء رويا ، لم يرج زكاؤه ، ولم يحرم ماؤه ، ولم تتفتح أزهاره وهو ... وليت شعرى كيف ملك الضلال قيادى حتى أشكل على ما يحتاج اليه المزوجان : ولا يقف ... وهى ممازجة طبع ، وموافقة شكل وخلق ، ومطابقة خيم وخلق ، اليه فيقرظها فى تخان ... ابتلاف ، وحمنا من اختلاف ، ونحن فى طرفى ضدين ، وبين الأصدقاء ... حصلت الأمر وجدت ما بيننا من البعاد ، أكثر مما بين الوهاد ” وصل بكابك الذى ... والسواد ، وأيسر ما بيننا من النفار ، وأقل ما بيننا من التضار ، فأرتحت لكل ما أوليت ، ^(١) إعلان والإسرار “ .

نظائره التى وكلت بها ذكرا طويلا يعاتب بها أبا عبد الله الطبرى ، ولا يتوهم القارئ أن وهرنى التوسيع ... وقدياب وجن ابن العميد خلص قلبه من علاقات ذلك الصديق : وحل وحل ... كان أمثال هذه الثورات : فان المرء لا يغضب مثل هذا والعلى الأحين يهاجم من لا يستطيع الخلاص من أسر وداده ، ودليل ذلك أننا نراه ... معها معاتبة المغلوب فيقول :

”ولو بسيت من الصبر بقية لساوت ، ولو وجدت فى أثناء وجدى مخرجا يتخلله تجلده لأمسكت ، فقدمنا لبست الصديق على علاقته ، وصفحت له عن هنائه ، ولكنى مغلوب على العزاء

مأخوذ على عادتي في الاغضاء، فقد سلّ من جفائك ما ترك احتمالي جفاء، وزهد في نفسي من ظلمك ما أنزف حلمي بفعله هباء، وتولى على قبح فعلك في هجر يستمر على نسق، وصد مطرد متسق، ما لو فض على الوري وأفيض على البشر لامتلاّت صدورهم ... انخ^(١) .

وكان ابن العميد فيما يظهر موصول القلب بأبي عبد الله الطبري هذا، وقد غالب نفسه في وداده أعنف مغالبة، واستطاع أخيراً أن يتوهم أنه تعزى عنه فكتب اليه في جواب خطاب:

”وصل كتابك فصادفتني قريب العهد بانطلاق، من عنت الفراق، ووافقتني مستريح

الأعضاء والجوانح من جوى الاشتياق : فإن الدهر جرى على حكمة المألوف في تحويل الأحوال، ومضى على رسمه المعروف في تبديل الأشكال، وأعتقني من محالّك عتقاً لا تدرك به ولاء، وأبرأني من عهدتك براءة لا تستوجب دركاً ولا استثناء؛ ونزع من يوم مجد^(٢) هذا بعيداً .

الذل في إخائك، بيدي جفائك، ورش على ما كان يضطرم في ضميري وشن على ما كان يلتهم في صدري من الوجد ماء اليأس، ومسح وجهي وقبلة ونقل بجمل الصبر. وتسبب أفلاذ كبدي ولاحم صدوعي بحسن العزاء معوض عن النزاع اليك نزوعاً عنك، ومن الذهاب فيك رجوا أجيال الخطيب، ورؤيا ضبابات ما ألقاه الهوى على بصرى، ورفع عنى غيابات ما أرسلت حين تراءى له في نومه حدر النقاب عن صفحات شيمك، وسفر عن وجوه خليقتك الكلام على الموت والمعاد، إلا مستنكراً، فوليت منها فراراً وملئت رعباً. فأذهمت^(٣) القبور . وملحقات الرؤيا ورددت إليك ذم عهدك !“ .

أليست هذه قصيدة رثاء يسكب دمعها على جدث الود المفقود ؟ المنام ثلاثة أيام . يقليل : كل العميد آقتبس أكثر معانيه في هذه الرسالة من روائع الشعر القديم، ولكن لم اتصلت هذه المعاني بنفسه أشد اتصال، وكيف جرت على أسلة قلمه وكأنه يفيض الفطرة وجود الطبع، حتى ليخفى ما طرزت به حواشيهما من آثار الاقتباس .

٥ — ولكن ابن العميد لا يستطيع في كل مرة أن يلقى حبل من يود على غاربه ويرد إليه ذم عهده، فليس القلب في كل لحظة بمطواع حتى يزهد في كل نافر صدوف، وكذلك نجد ابن العميد على قوة نفسه وسعة ماله ورفعة جاهه يقف وقفة الخاشع الذليل فيعاتب بعض إخوانه بمثل هذا الكلام :

”ما هذا التغالى بنفسك، والتعالى على صديقك؟ ولم نبذتنى نبذ النواة، وطرحتنى طرح القذاة، ولم تلفظنى من فيك، وتمجنى من حلقك، وأنا الحلال الحلو والبارد العذب، وكيف لا تخطرئى ببالك خطرة، وتصيرنى من أشغالك مرة : فترسل سلاما إن لم نتجشم مكاتبة، متبذرنى فيمن تذكر إن لم تكن مخاطبة . وأحسب كتابى سيرد عليك فتكره حتى تثبت ، وهو من اسم كاتبه وتصور شخصه حتى تذكره، فقد صرت عندك من محال النسيان صورته ولا يقف اسمه من صحيفة حفظك . ولعلك أيضا تتعجب من طمعى فيك وقد توليت ، إليه فيقرظها في خانة ، ولا عجب فقد يتفجر الصخر بالماء الزلال ، ويلين من هو أفسى الأصديقاء . وأخر ما أقوله أن ودى وقف عليك، وحبس في سبيلك، ومتى رى ، بخبره في المعاودة فإنه في العود أحمد“ .^(١)

”وصل كتابك الذى رى ، فأرتحت لكل ما أوتيت ، وأتصدر أمثال هذه المكاتبات الرقيقة عن وزير؟ ونجيبه بأننا نرجح نظائره التى وثقت بها ذكركم الغضة في صباه . على أننا لا نستكثر أن تصدر عنه وهو وزير، وبهرنى التمسح بجهنم وقلوب وجدانية تلقى على حياتهم ظلالا من الرفق والحنان، خصوصا وحل وحلى أن كلمة ”وزير“ كان يلحظ فيها دائما معنى ”كاتب“ وكان الإبداع في الكتابة والى الأساسية في الوصول إلى مناصب الوزراء .

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه أن ابن العميد كتب إلى عبد الله الطبرى كتاب نصيح يدل على معرفة وبصر بالشؤون السياسية، كتبه حتما بعد أن اتصل بالملوك والرؤساء . والطبرى

هذا هو صديقه الذى حدثاك آنفا عن معاتبته إياه فى نفحات وجدانية تم عن ود رقيق ،
وفى هذا ما يشعر بأنه ما كان يتورّع وهو فى أوج مجده عن بث نوازع القلب والوجدان .

وأنه ليشرح لصديقه ما يجب أن يتحلى به فى الحياة الرسمية فيقول بعد تمهيد :

”وأركب فى الخدمة طريقة تبعدك من الملل ، وتوسطك فى الحضور بين الإكثار
والإقلال ، ولا تسترسل إلى حسن القبول كل الاسترسال ، فلأن تدعى من بعيد خير من أن
تُقضى من قريب . ولكن كلامك جوابا تتحزّز فيه من الخطل والإسهاب ، ... ولا يستفرك
طرب الكلام على ما يفسد تمييزك . والشقاعة لا تعرض لها فانها مخلقة للجاء ، فان اضطرت
إليها فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها ، وتحصل وزنها ، وتطالع موضعها ، فان وجدت
النفس بالإجابة سمحة ، وإلى الاسعاف هشة ، فأظهر ما فى نفسك غير محقق ، ولا تترك
عليك فى الرد ما يوحشك ، ولا فى المنع ما يغيظك ، ولكن انطلق وجهك إقبلا بعيدا .

حاجتك أكثر منه عند نجاحها على يدك ، ليخف كلامك ولا يثقل على وجهي وقبلي ونقل
وهذا الصديق الذى يوصيه ابن العميد بالرفق فى مصاحبة الأُم

الذى وصفه بالبعد عن الأواصر الغريزية التى توجب المودة : من حبات الخطيئ ، ورؤيا
الشكل ، ومطابقة الخلق . وتلك كما قلنا علالة يوهم بها ابن العميد رسول حين تراءى له فى يومه
الصديق ، وإلا فقد رأيناه فى كلمة ثانية يذكر أنه صنو نفسه فيقول كلام على الهوى والمعاد ،

”لكن ما بقى أن يصفولى عيش مع بعدى عنك ، ويخلو ذرعاً قبور . وملاحظات الرؤيا

لى مطعم أو مشرب مع انفرادى دونك ، وكيف أطمع فى ذلك وأنت جزء من نفسك جاذب
لشمل أنسى ، وقد عدمت رؤيتك ، وحرمت مشاهدتك . وهل تسكن نفس أم ثلاثة أيام
انقسام ، وينفع أنس ميت بلا نظام ؟“ (٢)

٧ — وثما أمتاز به ابن العميد إجادة الرسائل الاخوانية ، وهو فى برع فيه كتاب القرن

الرابع وصبروه سنة يجرى عليها الأصفياء والألاف . وقد تأملت فرأيت معانى ابن العميد صارت

وردا سائفا لمعاصريه كالميكالى والبيغا وبديع الزمان . وليس غريبا أن يصير قدوة في هذا الباب : فقد كان لدين ضلوعه قلب وفي أمين ، وكان يتحدث في الصداقات والمودات عن ود صادق ووفاء صريح . وقد كنا نعجب لخيال ابن زيدون إذ يقول :

يدنى مزارك حين شط به النوى وهم أكاد به أقبل فاك
حتى رأيناه ممثلا أوضح تمثيل في قول ابن العميد :

”قد قرب — أيدك الله — محلك على تراخيه ، وتصاقب مستقرتك على تنائيه ، لأن الشوق يمثلك ، والذكر يخيلك ، فنحن في الظاهر على اقتراق ، وفي الباطن على تلاق ، وفي التسمية متباينون ، وفي المعنى متواصلون . ولئن تفارقت الأشباح ، لقد تعانقت الأرواح^(١) .
وهو معنى جيد آتته البيغا في إحدى رسائله الاخوانية^(٢) .

ولا يقف ابن العميد في ملاطفة إخوانه عند هذا الحد ، بل يتأنق في وصف كتبهم إليه فيقرظها في مخان جو أشبه بالنسيب ، كقوله في وصف خطاب وصل إليه من أحد الأصفياء :

”وصل كتابك الذي وصلت جناحه بفنون صلاتك وتفقدك ، وضروب برك وتعهدك ، فارتحت ليكل ما أزيلت ، وأبتهجت بجميع ما أهديت ، وأضفت إحسانك في كل فصل إلى نظائره التي وكلت بها ذكري ، ووقفت عليها شكرى . وتأملت النظم فلكنى العجب به ، وبهرنى التعجب منه . وقد رمت أن أجرى على العادة : في تشبيهه بمستحسن من زهر جنى ، وحلل وحلى ، وشذور الفرائد ، في نحور الخرائد :

والعذارى غدون في الحلل البيض وقد رحن في الخطوط السود

فلم أره لشيء عدلا ، ولا أرضى ما عدته له مثلا ، والله يزيدك من فضله ، ولا يخليك من إحسانه ، ويلهمك من بر إخوانك ما تتم به صنعك لديهم ، ويرب معه إحسانك إليهم^(٣)“

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ١٨٧ (٢) أنظر صبح الأعشى ج ٩ ص ١٤٤ (٣) ص ١١٢ ج ١

وقد يُغلب على أمره فيختم خطابه بكلمة تعرف منها صراحه أن إعجابه بالمكتوب صورة
لإعزاز له لكتابه، كقوله في خاتمة خطاب :

”وقد قرأت كتابك — جعلني الله فداك — فامتألت سرورا بملاحظة خطك، وتأمل
تصرفك في لفظك، وما أقرضتهم فكل خصالك مقرظ عندي، وما أمدحهما فكل أمرك
ممدوح في ضميري وعقلي : وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديري فيك، فإن كان
كذلك وإلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصري“^(١).

هذا ولابن العميد رسائل في الحب تضارع في روعتها قصائد التشبيب وتتصل برسائله
الإخوانية أوثق اتصال، وله في التهاني رسائل تغلب عليها الصنعة، ولكنها كأكثر نثره قوية
محكمة تدل على صاحبها وتذكر بأدبه البارِع وإطلاعه على ما أنشأ الأقدمون من أفانين البيان،
وما نحسب معاصريه أسرفوا في مجاملته حين لقبوه بالأستاذ الرئيس .

(١) رنر الآداب ص ١٨٠ ج ٤

٣ - أبو حفص بـه برد

١ - أبو حفص أحمد بن برد الأكبر كاتب أندلسي من أقطاب النثر الفنى فى القرن الرابع، توفى بسرقسطة سنة ٤١٨ هـ كما فى الذخيرة وإرشاد الأريب^(٢)، لاسنة ٤٢٨ هـ كما وقع خطأ فى كتاب الدكتور أحمد ضيف عن بلاغة العرب فى الأندلس . وقد عاش ابن برد نحو ثمانين سنة، ولكن أخباره ضاعت فلم يعرف منها إلا القليل ، مع أنه كان من أشهر الوزراء فى الأيام العاصرية .

٢ - ولم نجد على كثرة البحث ما يعين مذاهب ابن برد الأدبية . وقد اكتفى أكثر من عرضوا لترجمته بالعبارات الفضفاضة التى لا تتحدد شيئاً : فذكر ياقوت أنه كان "كاتباً بليغاً"^(٣) وذكر ابن بسام أنه كان فى زمانه "واسطة السلك، وقطب رحى الملك" وأنه "برز على نظرائه وأشكاله" وأنه "كتب عن عدة من الأمراء فأسمع الصم بيانا ، واستنزل العُصم إبداعاً وإحساناً"^(٤) وذكر صاحب المطمح أنه "غذى بالأدب، وعلا الى أسمى الرتب" وأنه "بديع الإحسان، بليغ القلم واللسان" وأنه "مايح الكتابة، فصيح الخطابة"^(٥) ونخر حفيده ابن برد الأصغر بالانتساب اليه فقال :

من شاء خُبرى فأنا ابن برد	حد حسامى قطعة من حدى
وأرفع الناس بناءً جدى	من نظم الألفاظ نظم العقد
ونقد الكلام حق النقد	وكف بالأقلام أيدى الأسد ^(٦)

وهذه كلها صفات تدل على عظمة ابن برد فى أنفـس من قرأوا له ، وكتبوا عنه ، ولكنها لا تعين منحاها فى مذاهب البيان .

(١) ج ١ ص ٤٩ (٢) ج ٢ ص ١٠٦ (٣) ج ٢ ص ١٠٦ (٤) ج ١ ص ٤٩

(٥) أنظر فتح الطيب ج ٢ ص ٣٦٧ (٦) الذخيرة ج ١ ص ٢٥٧

٣ - وعذر من ترجوا لابن برد أن معظم رسائله كان ضاع ، حتى أن مواطنه بن
 بسام على قرب عهده به صرح بأنه لم يجد من رسائله إلا ما لا يكاد يعرب عن فضائله ،
 وربما كان ذلك هو السبب فيما وقع لبعض كتاب التراجم من الخلط بين آثار ابن برد الأكبر
 وابن برد الأصغر . فلذا نجد صاحب المطمح ينسب رسالة السيف والقلم الى ابن برد الأكبر ،
 وينسبها ياقوت الى ابن برد الأصغر - والآيات الآتية :
 (١)

لما بدا في لازور دى الحرير وقد بهر
 كبرت من فرط الجمل ل وقلت ما هذا بشر
 فأجابني لا تتكرن ثوب السماء على القمر

نسبها صاحب المطمح الى ابن برد الأكبر . ونسبها ياقوت الى ابن برد الأصغر .
 (٢)

٤ - تولى ابن برد رئاسة ديوان الإنشاء لمحمد بن عبد الرحمن المستكني ، وكتب
 كذلك لعدد من الأمراء ، فكان لتوليّه رئاسة ديوان الإنشاء أثر قوي في حرصه على أدوات
 الكتابة ، وكانت تلك الأدوات مما شغل كتاب القرن الثالث والرابع : فكتب فريق منهم
 كتباً خاصة فيما يجب أن يراعيه الكاتب ، كما فعل ابن المدبر حين ألف "الرسالة العذراء" وإنا
 لنجد أن برد يكتسب عن المظفر بن أبي عامر رقعة وجهها الى القواد والكتاب فيقول :

"ومن أعجب العجب ما يجترى عليه بنض خدمتنا من نبذ عهدونا . ولا أحسب الذي
 عرهم بما إلا ما وهب الله تعالى لنا مع القدرة من الحلم والكظم ، وقد كانت سببية غالبية ،
 وحليقة لازمة ، فرب شيع تحت نخيل السماء . وكم غصص في شتى الغداء ، ومن شرق في نير
 الماء ... ونصب أعينكم عهد المنصور صدره التوبيخ باستكتاب الجهلة ممن قلت معرفته ،
 وأنضعت همته ، ولم يبلغ أن يحكم الخط فيتقوّم حروفه ، ويراعى المداد فيجيد صنعته ، ويميز
 الرق فيحسن اختياره ، وعزّه العزم النافذ ، والحكم الصادع ، بأن تكون صدور كتب

(١) الصغيرة ح ١ ص ٤٩ (٢) راجع فتح الطيب ص ٣٦٧ ج ٢ (٣) ص ١٠٦ ج ٢

(٤) فتح الطيب ص ٣٦٨ ج ٢ (٥) ص ١٠٦ ج ٢

الاعتراضات وعنوانها وتوارينها والأعداد في رؤوس غصونها بخطوط أيدي القواد والعمال ، من كان منهم كاتباً فليكتب بيده ، ومن لم يكتب فيخط كاتب معروف بالخط عنه ، وأن تكون تسمية طبقات الأجناد فيها قائمة الخطوط ، بينة الحروف ... على أنه إن ورد لأحد منهم بعد وصول العهد إليه كتاب اعتراض عمل في رق ردىء ، أو خط فيه لحن ، أو كتاب على بشرى في عدد ، أو رسم مالم يخف أو يقع في بشر الكتاب ... فيعاجل بعقوبة العزل^(١) .

ولم يكتف بذلك ، بل مضى يقول :

”وإن قوماً منهم عادوا لما نهوا عنه : فكتبوا الخط الرقيق في دنى الرقوق ، رقة من همهم ودناءة في اختيارهم ، وجهلاً بأن الخط جاء الكتاب ، وسلك الكلام : به ينتظم مشوره وتفصل شذوره ، ونبله من نبل صاحبه ، وهجته لاحقة بكتبه ، إلى ما أقترفوه من العصيان ، وأقدموا عليه من خلاف السلطان ، وأنا أعطى الله عهداً لئن ارتفع إلى بعد بلوغ عهدي هذا أقصى حدود المملكة وانتهائه أبعد أقطار الطاعة كتاب على الصفات المذمومة : من رق أو ممداد أو خط لأئين لصاحبه بما قدّم إليه من الوعيد“^(٢) .

وهذه الفقرات تمثل رأى الكاتب قبل أن تمثل رأى من كتبت باسمه ، وهى مظهر من عناية ابن برد بأدوات الكتابة وأدب الكتاب .

هـ — وقد حفظت عن ابن برد رسائل تصوّر ما كان من النزاع بين العرب والبربر في الأندلس . ودراسة ما كان بين هذين العنصرين من الفتن والمنازعات باب من أهم أبواب التاريخ الأندلسي ، ولها كذلك نفع في تحديد الاتجاهات الأدبية في تلك البلاد . والبربر يسمون «العبيد» أحياناً في لغة ابن برد ، ولا نستطيع أن نفترض غير ذلك : لأننا لا نعرف عصبة ناوأت العرب في الأندلس غير عصبة البربر ، وقد كتب ابن برد على لسان سليمان بن الحكم عدة رسائل الى من سماهم ابن بسام «جماعة العبيد» جاء في إحداها :

” ولم تزل الأئمة مقبلة على موالها مختصة لعبيدها تقدمهم في الثقة، وتقربهم بالمودة، وتعدّهم لحوادث الأمور، وتقذف بهم في معضلات الخطوب، فيتولون من اجتهدهم لهم ما أوجب لهم منهم المحبة، حتى شرف القوم ونبلوا، وسما ذكركم، ونسبوا إلى مشهور أنسابهم، ومذكور بيوتاتهم .. وقد أفضى الأمر إليكم معشر الموالى، وهذا اسمكم وقد رفع الله عنكم العبودية به، وأخرجكم عن رق الملك، وصيركم منا، وخطبكم بنا، وأفضى بأنسابكم إلينا، والولاء لحمة، ومولى القوم منهم، ملعون من آنتى لغير أبيه، أو ادعى غير مواله، هذا حكم الاسلام، على لسانه عليه السلام. وأما حكم الدنيا وسيرة أهل السداد والصلاح فيها فلا يجزئ أيضا، إلا أن يكون ضلعكم معنا، وميلكم إلينا وتعصبكم لنا، فنتحن أحق الناس بكم، وأجدر أن نعمل عمل آبائنا في أمثالكم من مواليسهم، فان نقسم حالا فزقت الشمل، أو لقيتم أمرا صدع الجمع، فتلك الفتنة التي يعق فيها الابن أباه، ويقتل لها المسلم أخاه... ولعلنا فيما ساءكم من تلك الهنات، ونالكم من الفجعات، أوجع قلوبا، وأشد غموما، فسبحان من لو شاء لأطلعكم على غيبنا وعرفكم إشفاقنا عليكم. وكيف لا يكون ذلك كذلك، وما زلتم الشعار والدثار: لا تؤثر عليكم، ولا نثق إلا بكم، فان يكن الشيطان قد نزع بما نزع به بين أبى آدم فمن بعدهما من ذريته فقد آن أن تثوب الخلوم: فتعود السيوف في أغمارها، والنبال في كائنها. ونحن نعاهد الله أن لا نؤاخذ أحدا بذنب، ولا نناله بعقوبة، ولا نطوى على إحنة، بل نفو ونصفح“^(١).

ونجد في رسالة أخرى حديثا عن كتاب وجهه زعماء البربر إلى سليمان يصرحون فيه بأن خلافة الأمويين مادامت إلا بطبقته، ولا عزت إلا بدعوتهم، ونجد ابن برد يمتن عليهم باسم سليمان فيذكر أن طبقته لم تظفر إلا حديثا، وأن عددهم لم يكثر إلا قريبا، وأنه أدخلهم في الدين وأستندهم من الضلالة، وأخرجهم من الكفر، ثم اصطنعهم ونوّه بهم بالتصرف في الخدمة، إلى أن يقول:^(٢)

”وأقسمت على أن من حبسه من رؤسائكم كان أولى بالسياسة، فأني لكم ذلك ؟ وإنما أنتم مدبرون مسوسون، وأتباع مريبون، وبناء التدبير نازح عنكم، والسياسة القويمة محجوبة دونكم، ومتى بلغكم عن عبد ثرب على مولاه فأفصح، أو سمعتم بجند شغب على مدبريه فأنجح، والله تعالى ودينه وخلائفه في غنى عمن عند عليه وحاده، وأنجر في الاسلام وشاقه، ونخرج عن الجماعة، وشق عصا الإمامة، وأستخف بحق الأئمة، ونازع الأمر أهله . ولولا أن أمير المؤمنين يعلم أن ملائكم لم يجتمع على هذا الكتاب، وأن أهل السداد منكم لم يرضوا هذا الخطاب، لكان له في ذلك نظريقيم الأود، ويعدل الميل... وأعلموا أن السداد والحلم والكظم من أخلاقه، والرفق والأناة من شيمه، فأقبلوا أدبه، وانتفعوا بموعظته، فلو كشف لكم الغطاء، واجتلى عليكم الغيب، لعلمت أن أمير المؤمنين لا يتام عن مصالحكم ولا يني في منافعكم، ولا يسعى إلا فيما يرد ألفتكم، ويجمع كلمتكم“ .

وهذا كله كلام طيب، ولكن أين دلالاته على قوة ابن برد النفسية؟ إنه كلام كسائر مأسطر كتاب الدواوين، فليس فيه اتجاهات فلسفية ولا اجتماعية أكثر مما كان يكتب عادة على ألسنة الأمراء والسلاطين، وقد اتفق لابن برد أن يجهد نفسه في الكلام عن معنى الرعية فلم يزد على أن قال :

”إن الرعية من السلطان بمكان الأشباح من الأرواح، وسلاحها وفسادها متصلان، ونماؤها وتقصانها منتظان : إذ كانت الرعية عنصر المسال، ومادة الجباية، وفيهما قوام الملك وعن السلطان، ورزق الأجناد التي بها يقاتل العدو، وينصر الدين، وتحمي الحرم“ .

وهذا أيضا كلام طيب ولكنه أقل مما سبق إليه في مثل هذه السطور .

٦ — وقد اقترن اسم ابن برد في تاريخ الأندلس بكتابة العهد . عهد الخليفة المؤيد بالله هشام بن الحكم الأموي، وكان لهذا العهد صدى في كتب المتأخرين . تحدث عنه ابن بسام والمقرئ والقلقشندی وابن خلدون . وليس لهذا العهد قيمة إلا من الوجهة التاريخية لمن

فيه من الدلالة على صولة العامرين وضعف الخلفاء ، ولكنه من الوجهة الأدبية والنفسية دليل على أن ابن برد كان من أتباع الغالب على أى حال . ألم يذكر على لسان هشام أنه " بعد أطراح الهوى ، والتحرى للحق ... وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ، لم يجد أحدا أجدر أن يوليه عهده ، ويقوِّض إليه الخلافة بعده ، لفضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف مرتبته ، وعلو منصبه ، مع تقاه وعفافه ومعرفته وحزمه وتقافته : من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور " .

ولم يقف ابن برد عند هذا ، بل استرسل فزعم أن ذلك القحطاني المتسلط هو الذى أشار إليه الحديث النبوى الذى يقول " لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قِطان يسوق الناس بعصاه " فكان ابن برد على هذا من أنصار " التهريج " فى الوضع والتأويل !

٧ — ومن أسوأ ما وقع لابن برد كتابه عن المظفر حين قتل وزيره عيسى بن سعيد^(١) وهو كتاب فاجر جاءت فيه هذه الكلمات :

"أيها الناس ! ان من علم منكم حالة الخائن عيسى بن سعيد بالمشاهدة ، ورأى النعمة عليه بالمحاضرة ، فقد اكتفى بما شاهد ، وأجترأ بما حاضر ، ومن غاب عنه ذلك من عوامكم : لا تراحم منزلا ، أو لاتصال شغلا ، فليعلم أننا أخذناه من الحضيض الأوحدا ، وانتقلناه من شظف العيش الأنكد ، فرفعنا خسيسته ، وتمننا نقيصته ، وخولناه صنوف الأموال ، وصيرنا حاله فوق الأحوال ، فلم يقم لله بحق ، ولا قابل إحسانه بصدق ، ولا عامل رعيننا برفق ، ولا تناول خدمتنا بحق ، بل أعلن بالمعاصى ، واستذل الأعززة وذوى المروءة ، ونافرهم ، وأنس بأضدادهم ، ونبذ عهودنا ، وخالف سبلنا ، وكدر على الناس صفونا ، حتى اذا ملكه الأشر ، وتمادى به البطر ، وعلت به الأمور ، وغره بالله الغرور ، حاول شق عصا الأمة ، وهد ركن الخلافة والأمانة ، بما أحتيج من حرام المال ، واستمال من طغام الرجال ، فحجته نعمنا عنده ، وخصمته عوارفنا لديه ، وكشف لنا سر نيته حتى صرعه بغيه ، وأسلمه غدره ، وأخذ الله بما اجترم ، وأوبقه بما اكتسب ، فأعجلناه عن تدبيره ، وصار الى نار الله وسعيده " .

وإنما وصفنا هذا الكتاب بالفجور لأن ذلك الوزير أخذ للقتل من مجلس شرا به وكان فيه أبو حفص بن برد، ولو صدقنا ابن بسام لكان ذلك الوزير من صرعى النائم والوشايات.

٨ — وخلاصة ما سلف أن ابن برد كان قوة أدبية ، وكان من كبار الكتاب في دولة العامين ولكن أدبه ضاع في الدفاع عن الحق حيناً ، والتزلف الى الباطل أحياناً . وكان لا يعرف ما يأتى وما يدع : لأن ظروف السياسة لعهد لم تكن تمكن كاتباً ولا شاعراً من أن يكون أدبه صدى لخالص النية وطاهر الوجدان . وكان ابن برد كاتباً ووزيراً ، والكتابة والوزارة وسيلتان من وسائل الظلم والبغى عند من تغويهم منافع العيش ، وتضلهم أباطيل هذه الدنيا الغرور .

٩ — وهذا الجانب النفعى هو الذى عرفناه أو عرفنا رسومه من ابن برد، لأن من ترجموا له لم يجدوا فيما يظهر غير بقايا من رسائله الرسمية، أما اللون الجميل من أدب الكتاب الذى يتحدث عن الاخوانيات وعن أنفس الكتّاب في صدق وإخلاص فلم تبق منه بقية شافية، لأن الأدب السياسى كان طغى على ما سواه من ألوان الأدب في تلك الأيام ، ولأن الشعر كان استبد أو كاد بالحديث عن سرائر النفوس ، ودقائق الأحاسيس ، وما كان الناس ينتظرون أن يحدثهم الشعر إلا عما يصدر عن الخلفاء والأمراء والوزراء من رقاع الإغراء والوعيد . وكذلك استذل الكتاب حيناً لأهواء المسيطرين : فلم يكن أدبهم صورة لنفوسهم وقلوبهم وأذواقهم ، وإنما كان في الأغلب صدى لجلجلة الاستبداد والطغيان . وآفة الأدب أن يكون صدى لغير ما يجيش في صدور الكرام من نوازع الصدق واليقين .

٤ - أبو المغيرة بن حزم

١ - في الأصل الفرنسي فصل عن أبي عامر بن شهيد، وكان لذلك الفصل أثر طيب في تقويم الكتاب، لأن ابن شهيد من الأعلام التي لم يتنبه إليها المستشرقون الفرنسيون. أما الرجل الذي أتحدث عنه في هذا الفصل فهو شخصية قوية جذابة لم يتنبه إليها أحد من الباحثين، ولم يُعرف عنها كثير ولا قليل، وهو ابن حزم! وهنا يلتفت القارئ باسمنا بسمة السخرية: لأن ابن حزم معروف، طَبَّقَ صيته الشرق والغرب، فلنفسارع إذن بتقرير ما هذان إليه البحث من أن "ابن حزم" يطلق على شخصين أحدهما معروف وهو أبو محمد علي بن أبي عمر أحمد بن سعيد الفقيه الأديب، وثانيهما مجهول وهو أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم الشاعر الكاتب، وهما من بنت واحد وابنا عم، ويمكن الحكم بأن أولها أفقه وأعلم، وثانيهما أكتب وأشعر.

٢ - لم أجد من المصادر ما يغني في تحديد الزمن الذي عاشه أبو المغيرة بن حزم، ولكن من المؤكد أنه شهد سرار القرن الرابع وبغى القرن الخامس، ومن أخباره أنه تولى الوزارة للمستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام^(٢)، وربما كان السبب في تحمله أنه اعتبط شاباً "ولو طال به مداه، لم يذكر معه سواد" كما قال ابن بسام، يضاف إلى ذلك أن شخصية ابن عمه أبي محمد بن حزم طغت عليه فُغِرْقَتُهُ في لجج من النسيان. ومن عجيب المصادفات أن أبا محمد كان يتوقع له هذا التحول، ذلك بأنه جرت بينهما مقارعات فكتب إليه أبو محمد يقول:

كفاني بذكري الداس لي وما ثرى
وما لك فيهم يا ابن عمي ذاكر

(١) أبو المغيرة بن حزم هو عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن (منح الضيبي ج ٢ ص ١٠٨ ضبع ليدن) وجاء في النسخ (ص ١٨٥ ج ١) أن أبا محمد بن حزم دارس الأصل وليس من « بني حزم » وهي أسرة عربية أندلسية.

(٢) ذاك المقرئ في الحديث عن المستظهر: "وكان قد رفع جماعة من أتباع ذهب بهم العجب كل مذهب كأبي عامر ابن شهيد الميهك في بطلانه، وأبي محمد بن حزم المشهور بالرد على الغلباء في مقاله، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم الغزل المترف في حاله" نقيح السبب ج ١ ص ٣١٩ (٣) استنبط بالبناء مجهول: مات.

عدوى وأشياعى كثير كذاك من غدا وهو نفاع المساعى وضائر
ومالك فيهم من عدو فيتنى ولا لك فيهم من صديق يكائر
وقولى مسموع له ومصداق وقولك منبث مع الريح طائر
وانى وان آذيتنى وعققتنى لمحتمل ما جاءنى منك صابر
وقد أجابه أبو المغيرة بقصيدة لازعة نكتفى منها بهذه الأبيات :

وغاصب حق أوبقتَه المقادر يذكرنى حاميم والريح شاجر
غدا يستعير الفخر من خيم خصمه ويجهل أن الحق أبلغ ظاهر
ألم تتعلم يا أخا الظلم أننى برعمك ناه منذ عشر وأمر
تذلل لى الأملاك حر نفوسها وأركب ظهر النسر والنسر طائر
وأبعث فى أهل الزمان شواردا تؤلمهم وهى الصعاب النوافر
فان أثو فى أرض فإننى سائر وإن أنا عن قوم فأنى حاضر

والذى يوازن بين هاتين القطعتين يتبين أن شعر أبى محمد يشبه شعر الفقهاء، وهو من رجال الفقه والأصول، وأن شعر أبى المغيرة يسمو به الى طبقات الفحول من الشعراء .

٣ - والواقع أن أبا المغيرة كان مفتونا بالدراسات الأدبية، ومصروفا عن الدراسات الفقهية، حتى لنجده يسخر من علوم ابن عمه فيقول :

” نسيت أبا محمد حاشيتك وشيعتك التى صرت رئيس مدارسهم ، وكبير أحراسهم ،
تحدثهم عما كان فيهم من العبر ، وتجبرهم بما تعاقب عليهم من الصفاء والكدر ، فتارة عن
السامرى والعجل ، وتارة عن القمل والنمل ، وطورا تبكيهم بحديث التيه ، وطورا تضحكهم
بقوم جالوت وذويه ، حتى كأن التوراة مصحفك ، وبيت الحزان معتكفك “ .

وهذا التعريض يذكرنا بما أخذ ابن شهيد على الجاحظ من الاهتمام بغرائب الزواحف والدواب^(١) .

٤ — وليس هذا كل ما يميز ابني حزم أحدهما عن الآخر في اتجاه الأدواق، بل يحدثنا ابن بسام بأن أبا المغيرة "كان أنبه من أبي محمد في حضور شاهده، وذكاء خاطره، وحسن هيئته، وبراعة ظرفه، وجودة أدبه".
وتلك صفات كان يتميز بها الأديب على الفقيه في أكثر الأحيان.

٥ — تدل أخبار أبي المغيرة ورسائله وقصائده على أنه كان دقيق الحس في اختيار أطيب الحياة، وفي كلامه فقرات في الدعوة إلى مجالس الأنس تذكر بأدباء الشرق كالميكالي وابن العميد، ولننظر كيف يقول:

"والأرض قد نشرت ملاءها، وسحبت رداءها، وليست جلبابها، وتقلدت سبحها، وبرز الورد من كمامه، واهتر الروض لتغريد حمامه، والأشجار قد نشرت شعورها، وهزت رؤوسها، والدنيا قد أبدت شمسها، وأماطت عبوسها، وكأني بها قد أطلعت من كل ثمر ضروبا، وأبدت من جناها منظرا عجيبا، وإن كنا لا نشارك في تلك إلا باللسان لا بالعيان، وبالطرف لا بالكف، وللدهر قسم من أقسام اللذة، وصنف من أصناف الشهوة:

شهدنا إذ رأيناهم بأنا على اللذات في الدنيا شهود^(١)"

٦ — على أنه كان — كسائر من تفويهم شهوات الحواس — سيئ الظن بالناس، لأن الخلق لا تتكشف طبائعهم إلا لمن يأنس اليهم في مجالس السلاف وملاعب الجمال، ومن أجل ذلك نراه ينظر إلى العالم نظرة مُشرّبة بالتحفظ والكتّان، ويقرر أن في الاحتواء حسم الداء، وأن لا عدو للإنسان إلا نفسه، ولا حية ولا عقرب إلا جنسه، ثم يقول:

"وليس في الحيوان أخبث من الإنسان، فالاحتباس كل الاحتباس، والمعاشرة الجميلة للناس، لا تُلدَغَنَّ من حجر مرتين، واذكر المثل السائر في الملاعب بين وتدين، والعاقل من حملة كل بلد، وثق عند كل أحد، وأعقل منه من عرف الناس، ولم يعرفوه، فاستراح من أجنبي متكلف، إلى قريب غير منصف، ولم ينتقر إلا إلى ربه، ولم يأنس إلا بنور لبه^(١)".

وهذه الفقرة تمثله كأحكم الحكماء لو كانت الى السلامة من شر الناس سبيلا . ولكنى ما أحسبه دعا تلك الدعوة الا بعد أن رأى وذاق كيف يكون الغدر والخيانة والعقوق ، لأن الحكماء لا يعطون إلا بعد أن تكوى أيديهم وتشعل رؤوسهم وهم يقاسون ما تطوى عليه صدور الأصحاب والآلاف والأصدقاء من مظلمات النيات ومنكرات الأغراض ، والطبيعة الانسانية لثيمة تبيح كل شر ، وتسمح بكل بغيض من جنى اللؤم ممقوت ، ويكاد الرجل لا يلقى الشر إلا من أصفياه ولا ينجى الشوك إلا حيث يفرس الأزهار والرياحين .

٧ — على أن له — مع سوء ظنه بالناس — كلمات تكشف عن تعلقه بأصدقائه ، وحنينه اليهم ، وعطفه عليهم ، فنراه يقول فى بعض رسائله :

”وما أعلم نائبة كفراقك أهلا لمن ، ولا نازلة كئيبك أجلب لحزن ، وما كنت أريم ربك لو كان لى الخيار ، أو أبرح منزلك لو ساحتنى الأقدار“ .

ويقول من رسالة ثانية :

”وان رأيت تأنيسى بكتاب أجتلى منه وجوه البدور ، وجواهر النجور ، ودرر الثغور ، وأجتنى ثمر السرور ، وأرتع منه فى رياض العلوم ، ما بين منشور ومنظوم ، نفست خناق مشتاق ، وأنست من وحشة الفراق ، منفردا غربيا بحيث لا أخ كريم ، ولا صديق حميم ، فقد صرت ولا أحيل على الأثر بعد العين ، كما قال أحمد بن الحسين :

ما مقامى بدار نخلة إلا ك مقام المسيح بين اليهود“

وللقارئ أن يلاحظ أن ما اختراه من الرسالة الثانية يصرح بضجرا أبى المغيرة وتبرمه بالوجود ، اذ يعيش منفردا غربيا بحيث لا أخ كريم ، ولا صديق حميم . وتلك غاية فى البؤس والشفاء لأديب لا غنى لروحه عن حلاوة المودة وعذوبة الوفاء .

٨ — وقد حملته ضجره على الاكثار من شكوى الزمان ، فتارة يشكو غربته قومه

فى الأندلس وانصراف أهل الشرق عن علومهم وفنونهم وآدابهم فيقول :

”لقد نادينا لو أسمعنا، وطربا لو وقعنا، وما أشبهنا بالغريبة التي خيرها يدفن، وشرها يعلن،
يتعب أحدا نفسه، ويذهب حسه، ويعارض السيف بفهمه، والبحر بعلمه، والنار
بذكائه، والزمان بمضائه، ونتائج فكره محجوبة. وبنات صدره غير مخطوبة، إن يسمعا
ربية طاروا بها فرحا، وإن رأوا فضيلة وجوا لها ترحا“^(١).

وتارة يتحدث عن بلائه بالناس فيقول :

«بانعكاس الزمان، انعكست أمثال البيان، كما روى عن الفتى المدعى للكتابة عند عمرو
ابن مسعدة أنه غاياد يكتب من صاحب البريد بخبر بكرة ولدت غلاما فأنشأ خطبة مفتحتها
”الحمد لله خالق الأنعام، في بطون الأنعام“ بغذب الرقعة من يده وبالغ في إجزال صفده.
وإذا تأملت انقلاب الزمان، وما وقع لي مع فلان انقلبت الخطبة فصارت ”الحمد لله خالق
الأنعام، في بطون الأنعام“ وكما قد كشفت عن عوراته، وما زالت مكشوفة، وعرفت بسوآته،
وما زالت معروفة، إخبارا عنه، وتحذيرا منه، وإعلاما بما يستره ذيله، ويشتمل عليه ليله،
من قبائح يحجبها العار، ويكتبها الليل والنهار».

وأصرح من هذا قوله في وصف غدرات الأيام :

”نحن شمع بالظفر أنقى، واحتر لنيل الأمل عطفي، والدهر يضحك سرا، ويتأبط سرا،
وقد أذهلتني الجذل عن سوء ظني به، وأوهمني نزوعه عن ذميم مذهبه، أتت ألوانه، وفسا
ظربانه، ونادى ليقيم من قعد، ويتنبه من رقد، إنما فترت تلك الفترة، ليكون ما رأيت عليك
حسرة، وسمحت لك مرة، لتذوق عليها كأسا مرة، فرأيت وقد غطى على بصرى، وعقلت
وكنت في عماية من ظفري، وقلت هو الذي أعهد من لؤمه، وأعرفه من شؤمه : ما
وجب الا سلب، ولا أعطى الا ساعة كاهام القطا، فياله من قادر ما ألأم قدرته، وذابح
ما أخذ شفرتة“.

٩ — وقد قاده هذا المزاج الى الإقذاع في الهجاء. وله في الظم فقرات مكشوفة يتقزز منها القارئ، وقد ختم إحدى أهاجيه بهذه العبارة "قبح الله زمانا يقرب الى اللئيم حصانا، وإلى الكريم أنانا" وربما كان أقبح أهاجيه ما قارع به ابن عمه أبا محمد بن حزم، كقوله يصف كتابا وصل اليه منه "معنى كصدا الأستان، ولفظ كنفحات الأكفان، وأعراض لا مدب فيها لسهم مقرطس، وأعلام لا وضع فيها لصبح متنفس، ورطانة تمجها الأسماع، وتخبوها الطباع، فوقفت متبلدا، وعدت على نفسى وقريحتى مترددا، فقالنا أيها الانسان، لست بالنبي سليمان، متى وعدناك أن نفهمك كلام النحل، وسرار النمل؟ ألم نسلك بك شعاب الكلام فتغلغل؟ ألم تسر في صحرائه فأوغلت؟ ألم تجل في ميدانه فسبق؟ ألم تسرفى ظلماته فأشرقت؟ هل أحسست بنكول جنان، أو قصور لسان، فيما نظمت كالعقود، على ترائب الفتاة الرود، ونثرت كالنجوم، في صفحة الليل البهيم، فقلت: بلى! قالتا: فأعرض عن رطانة الزرط، وصفير البط، ولا تعج على طلل بائد، ودار قد أتى الله بنيانها من القواعد! فقلت: لقد أسرقنا طاعنين، إن كاتب الصحيفة لندرة الزمان، ولعالم نوع الإحسان. إلا أنه ربما كذب العنوان. فأعدت النظر فاذا بك — أبا محمد — صاحبه! كتاب بنى على الظلم العبرى، والبهتان الجلى، ومكابرة العيان، ومدافعة البرهان، قد طمس الله أنواره، وأظهر عوارده، بخاء كالغلاة القوراء: لا ماء ولا شجر، واليلة الظلماء: لا نجم ولا قمر^(١).

وهذا التهاجى بين أبناء العم لا غرابة فيه، فإن الأدب العربى ينحرب هذا النوع من تظالم الأقرباء: لأن نائرة الحقد أشد ما تكون تاججا واضطراما بين الأقربين وهى عند العرب من أقوى بواعث الطموح الى المجد، ومن أشدّ الحوافر لإيقاد ما نمسد من جذوات النفوس والعقول. ومن هنا نرى أهاجى أبى المغيرة لابن عمه أمر وأقسى من أهاجيه لغيره، فانه يهجو ابن عمه بحفيظة وحقد على حين لا يخرج هجاءه لغيره عن المزاح الثقيل، كقوله فى التهمك

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٨ وفى فتح الطيب ج ١ ص ٥١٣ فقرات من تهاجى هذين الكاتبين، فليرجع اليهما

ببعض المتطيين : ” وأشرح لي خبر فلان ، وأين بلغ من تكسبه ، وحيث أنتهى من تطيبه ، وكيف ظروفه ونخائنه ، ولعوقاته ومعاجنه ؟ وهل ينفذ طبه ، وينفق حبه ؟ وصف لي ما يقوله على الماء ، ويبيديه من الأدوية ، وأهد إلى ما ينقّه من المقال ، على الكبد والطحال ، ويرقشه من الكلام ، في الفالج والزكام ، فالحمد لمن قرن له ذلك إلى القيام ، بشريعة الاسلام ، والتمهر في الأحكام ، ومعرفة الحلال والحرام ، والفلج عند الخصاص ^(١) “ .

١٠ - ومع أن أبا المغيرة من الشعراء الفحول فانا نراه يتخذ النثر أداة للتعبير عن الأبواب الخاصة بالشعر كالغزل والمدح وهو في ذلك يحاكي بديع الزمان الذى يحرص أشد الحرص على أن يؤدى بالنثر كل ما يؤدى بالقصيد . وإنما خصصنا بديع الزمان بالذات لأننا نرى في نثر أبى المغيرة نفحة همدانية . ويكاد الرجلان يتشابهان ، لولا جزالة ابن حزم ورقة بديع الزمان . والظاهر أن رسائل الهمداني كانت وصلت بسرعة إلى الأندلس ، وأطلع عليها المتأدبون هناك ، وإلى القارئ رسالة لأبى المغيرة تمثل روح الهمداني أصدق تمثيل :

” فكم ليث كان في غابة سمعت صريف أنيابه ، وقفر أنست في يياه ، إلى عواء ذئابه ، لأمر إلا بالنص المستلب ، ولا ألقى غير الخارب المتهب ، والشعار عند النائبة ألغها فأتخطاها ، والنازلة أراها فأتعداها ، قول أبى الطيب :

فان أسلم فما أبقي ، ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام

وأنا أرقب من الزمان صنيعه ، وأتوقع من الحمام وقوعه ، وهو يذهب بي إلى قبلة الآمال وأنا لا أصدق ، ويسوقني إلى محط الرجال وأنا لا أحقق ، ويؤم بي البحر الذى لا تحصى فرائده ، والغيث الذى لا يجذب رائده ، حتى أدانى إلى الحضرة العليا ، والمحلة الشفاء ، فكبرت إكبارا لما صرت إليه ، وهالت إعظاما لما سقطت عليه ، وعلمت أنى في الحرم الذى لا يضار جناحه ، ولا يطار غرابه ، ولا يخضد شجره ، ولا يمنع ثمره ، ولم ألبث أن نزلت باليفاع الخصب ، وتمكنت من الرشاء والقلب ^(١) “ .

ولم يقف تأثره ببديع الزمان عند محاكاته في المذهب والأسلوب ، بل تعداه الى معارضة ما اشتهر من رسائله ، فقد وضع الحمداني رسالة شائعة في إنسان جمع بين اللازم والجمال ، ثم دالت دولة شبايه فعاد من الصاعرين ، وهى رسالة مشهورة اهتم بمعارضتها كثير من الكتاب آخروهم المرحوم الشيخ عبد العزيز شاويش ، والظاهر أنها بهرت أهل الأندلس فعارضها أبو المغيرة بن حزم برسالة طويلة تقتطف منها الفقرات الآتية :

”ورد كتابك ينشد ضالة ودنا ، ويرقع خلق عهدنا ، ويطلب ما أفانته جريرتك الينا ، وذهبت به جنائتيك علينا ، أيام غصنك ناضر ، وبدرك زاهر ، لا نجد رسولا اليك إلا نظرة تحرق حجاب الدموع ، ونفرة تقيم مناد الضلوع ، فان رمنا شكوى ينفث بها مصدرونا ، ويستريح اليها مهجورنا ، لقينا دونك أمنع سد ، وأقبح صد ، وأقبح زند ، وأبرج رد ، حتى إذا طفت تلك النيران ، وأنتصف لنا منك الزمان ، بشعرات أعشت هلاك كسوفنا ، وقلبت ديباجتك صوفنا ، وأعادت نهارك ليلا ، وناحت عليك تلهفا وويلا ، وأطار حمامك غرابك ، وحجب ضياك ضبابك ، فصار عرسك مأتما ، وعاد وصلك محزما :

وبت مداماً تسر الزيفا فأصبحت تجرع خلا ثقيفا
وصبرت حجازاً جديب المحل وقد كنت للطالب الخصب ريفا

أقبلت تسلل الينا لو اذا ، وتطلب منا عواذا . قد أنساك ذل العزل عز الولاية ، وأولاك طمعا نسيانك تلك الحماية ، أيام ترشقنا بسهام لحاظك رشقا ، وتقتلنا بسيوف ألباظك عشقا ، وتميس غصنا ، فتثير حزنا ، وتطلع شمسا ، وتغيب نسا ، والآن نلذك بدمع قد جف ، ووجد قد كف . وعزاء قد أبد ، وصبر قد غار وأنجد ، ونظر منك الى روض قد صوح ، وسار قد أصبح ، وأعجم قد أفصح ، ومبهم قد صرح ... الخ^(١) .

١١ - نثر أبى المغيرة في جملة متين رصين ، لولا ما يتطرق اليه أحيانا من قبح العمل ، ودماة التكلف ، وهو فى الأغلب مسجوع . وفى الذخيرة شواهد على تكلفه ، وهو تكلف ممض ، نكتفى بالإشارة إليه ، ولا نعرض له بتحليل ولا تليخيص . ومن المرجح أن تلك الرسائل المتكلفة كانت مما كتبه قبل أن ينضج ويسلس له البيان .

٥ - أبو الفرج البغيا

١ - البغيا هو عبد الواحد بن نصر المخزومي . وإنما لقب بالبغيا للثغة ظريفة كانت تزين لسانه ، نشأ في نصيبين وارتحل بسيف الدولة في شبابه ، فلما مات صاحبه تقلت به الأحوال بين الموصل وبغداد ، فتادم الملوك والرؤساء ، وقضى حياته مقسم الحظ بين النجاح والإخفاق : ينعم تارة ويشقى أخرى ، حتى وافاه حمامه لثلاث بقين من شعبان سنة ٣٩٨ . قال الثعالبي : ” وأنحر ما بلغني من خبره ما سمعت الأمير أبا الفضل عبد الله بن أحمد الميكني يورده من ذكر التقائه معه عند صدره من الحج وحصوله ببغداد في سنة تسعين وثلثمائة ورؤيته بها شيخا على السن ، متناول الأمد ، نظيف اللبسة ، بهي الركبة ، مليح اللثغة ، ظريف الجملة . قد أخذت الأيام من جسمه وقوته . ولم تأخذ من ظروبه وأدبه ... ثم عرض على القاضي أبو بشر الفضل بن محمد بيجرجان سنة إحدى وتسعين كتاب أبي الفرج الوارد عليه من بغداد مشتملا من النظم والنثر على ما أثر فيه حال من بلغ ساحل الحياة ، ووقف على ثنية الوداع “ .

٢ - كان البغيا من أركان الحياة الأدبية في زمانه ، ولكن المؤلفين لم يتحدثوا عنه إلا قليلا ، فكان من نتائج ذلك أن قمت المصادر التي تكنى لتعيين اتجاهاته الأدبية ، وإقلال المؤلفين من الحديث عنه يعين بعض صفاته . لأن المؤلفين يهتسون في الأغلب بتقيد ما يصل إليهم من أخبار المتأخرين من الكتاب والشعراء ، فأكثر من عرفت حلهم من رجال الأدب كانوا في حياتهم رجال دسائس ومكائد وسفاهات : وأكثر ما يكونون من طبقات الوزراء أو أمناء الملوك والوزراء .

فإن ظفرت بكتاب حامل الذكر أو شاعر مجهول القدر فلا تنس أن تلاحظ أن هذا لم يكن إلا لأن ذلك المغبون كان في حياته هادئ النفس قليل المطامع محدود الآمال . ومجموعة

ما وصل إلينا من شعر البيغا ورسائله وقصصه تدلنا على أنه لم يتصل بملوك زمانه على نحو ما كان يتصل بالصاحب بن عباد أو أبو الفضل بن العميد .

وانما كانت صلاته بالملوك والرؤساء عند الحدود الضيقة حدود السحر والأنس حول بساط السلاف .

٣ - وإنا لنراه يدور حول تهواته وأغراضه النفسية في أكثر ما أثر عنه من المقطوعات والرسائل والأقاصيص ، بحيث نستطيع أن نقدر أنه كان لا يرجو من صلات الملوك والوزراء والرؤساء أكثر من أن ينضو عن نفسه ثوب الفافه والإملاق ، وأن يكون في يده من الذهب ما يقتنص به شوارد اللذات ، وأوابد الأهواء :

وفي هذا الذي نقضى به تعليل لصفاء شعره الوجداني ، فقد كان شعر البيغا يُغنى به وكان

من متع السامعين في الشام والعراق ، ولنتظر كيف يقول في محبوب رمدت عيناه :

بنفسى ما يشكوه من راح طرفه وزرجسه مما دهنى حسنه ورد

أراقت دمي ظالما محاسن وجهه فأضحى وفي عينيه آثاره تبدو

غدت عينه كأنه حتى كأنما سقى عينه من ماء توريده الخلد

لئن أصبحت رمداء مقالة مالكي لقد طال ما استتفت بهما مقل رمد ^{ورمد} (١)

ولنتظر كذلك كيف يقول في محبوب فصده مبضع الطيب :

بأبى الغائب الذى لم يغب عني فأشكو إليه هم المعيب

باشرتة كف الطيب فلونا ت الأمانى قبلت كف الطيب

فعلت في ذراعه ظبة المبع ضمع أفعال لحظه بالقلوب

فأسالت دما كأن جفونى عصمرته بدمعها المسكوب

طاب جدا فلو به سمح الدهر سر لأمسى عطرى وأصبح طيبى ^(١)

وهذه معان دقيقة لا يحسنها إلا من يفرغ لأمثالها من شعراء الرحدان .

وإننا لتأمل في شعره فتجده يرتقب فرص زمانه فيقول مثلاً في الورد والربيع والشراب :

زمن السورد أظرف الأزمان	وأوان الربيع خير أوان
أدرك النرجس الجنى وفزنا	منهما بالحدود والأجفان
أشرف الزهر زار في أشرف الدهر	فصل فيه أشرف الإخوان
وآجل شمس العقار في يد بدر الـ	حسن يخدمك منهما النيران
وأدرها عذراء وأنتهز الامـ	كان من قبل عائق الإمكان
في كئوس كأنها زهر الخشـ	خاش ضمت شقائق النعمان
وآخذعها عند البزال بالفا	ظ المشاني ومطربات الأغاني
فهى أولى من العرائس إن زو	ت بعزف النايات والعيان ^(١)

وللقارئ أن يتأمل احتفاء الشاعر بالصبيان ودعوته الى آخذاعها كما تحتدع العروس بالنائى والعود .

٤ — وما يؤكد أن أطماع البغيا من الاتصال بالملوك كانت طفيفة لا تعدو مطالب الرزق أن نراه يقول :

ما الذل إلا تحمل المنـ	فكن عزيزاً إن شئت أو فهن
إذا اقتصرنا على اليسير ما العـ	ة في عتبنا على الزمن ^(٢)

وفي هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

صحبته الدهر في سهل وحزن	وجربت الأمور وجربتني
فلم أرمذ عرفت محل نفسي	بلوغ منى يساوى حمل من
ولم تتضمن الدنيا لحظي	منال مسرة إلا بحزن
وليس على غير الجسد فيا	سعت له لأستغنى وأغنى
فان أحرم فلم أحرم لعجز	وان أبلغ فنفسى بلغتني ^(٢)

وأدل من هذا على اهتمامه بالوجدانيات أن التنوحي يحدثنا أنه روى عنه قول سيف الدولة :

وقالوا يعود الماء في النهر بعدما عفت منه آيات وسُدت مشارعُ
فقلت الى أن يرجع الماء جاريا وتعشب جنباه تموت الضفادع^(١)

وحرص البيغا على رواية مثل هذين البيتين يمثل حسرته على أيامه السوالف ولياليه الخوالى .

٥ — وخلص البيغا من مشا كل دنياه مكنه من أن ينظر الى أهل الأدب نظر العطف والإخاء . ومن شواهد ذلك شوقه الى رؤية أبى اسحاق الصابى ، وقد اتفق له أن زار بغداد والصابى معتقل منذ مدة طويلة فلم يصبر عنه فزاره في محبسه ، ولكنه شغل عن معاودته فكتب اليه الصابى :

أبا الفرج أسلم وأبق وأنعم ولا تزل
مضى زمن تستام وصلى غالبا
وأنستنى فى محبسى بزيارة
ولكنها كانت كحسوة طائر
وأحسبك أستوحشت من ضيق محبسى
كذا الكرز^(٢) اللاح ينجو بنفسه
فحوشيت يا قس الطيور فصاحة
وقد أجابه البيغا بأبيات جاء فيها قوله :

فان كنت بالبيغاء قدما ملقبا
وبعد فما أخشى تقص جارح
فكم لقب بالخور لا العدل مختص
وقلبك لى وكر ورأيك لى قفص^(٤)

٦ — وما أحب أن تشغلنى الرغبة فى الايحاز عن إثارة بعض ما دار بين الصابى والبيغا من المراسلات ، ولأكتف بما كان بينهما من وصف "البيغاء" فإن صاحبنا أبا الفرج لما لقب

(١) ص ١٣٤ نشوار المحاضرة . (٢) الكرز، بضم الكاف، الصقر .

(٣) ص ١٨٧ ج ١ بيمة . (٤) ص ١٨٨ ج ١ بيمة .

بالبغيا للثغته استطاع الصابي أن يحاوره محاوره طريفة في وصف البغياء فهو مثلاً يعتذر عن
إحماله الرجوع إليه لزيارته في السجن بقوله :

وأحسبك أستوحشت من ضيق محبسى وأوجست خوفاً من تذكر القفص
وللنظر كيف يقول في وصف البغياء :

أنتم صبيحةً مليحة	ناطقَةٌ باللغة الفصيحة
عدت من الأطيّار واللسانُ	يوهمنى بأنها انسانُ
تُنهى إلى صاحبها الأخبارا	وتكشف الأسرار والأستارا
سكّاء إلا أنها سمّعة	تعيد ما تسمعه طبيعة
وربما لُقنت العضيّة	فتغدى بديهةً سفية
زارتك من بلادها البعيدة	وآستوطنت عندك كالقعيدة
ضيفٌ قراه الجوز والأرزُ	والضيف في أبياتنا يعز
نراه في منقارها الخالوقى	كلؤلؤ يلقط بالعقيق
تنظر من عينين كالفضين	في النور والظلمة بصّاصين
تميس في حلتها الخصراء	مثل الفتاة الغادة العذراء
خريدةٌ خدورها الاقفاص	ليس لها من حبسها خلاص
تحبسها وما لها من ذنب	وإنما تحبسها للحب
تلك النى قلبى بها مشغوف	كنت عنها وآسمها معروف
نشارك فيها شاعر الزمان	والكاتب المعروف بالبيان
وذاك عبد الواحد بن نصر	تقيه نفسى عاديّات الدهر ^(١)

وقد أجاب البغياء على هذه الأرجوزة البديعة بأرجوزة أطول ولكنها تافهة لم يعجبنا منها

إلا قوله في البغياء :

ترهى بدواج من الزمرد ^(١)
وحسن منقار أشمّ قان
صيرها انفرادها في الحبس
تميزت في الطير بالبيان
تحكى الذى تسمعه بلا كذب
غذاؤها أزكى طعام رغدا
ذات سُعى تحسبه ياقوتا ^(٢)
كأنما الحبة في منقارها
إقدامها ببأسها الشديد
ومقالة كسبج في عسجد
كأنما صيغ من المرجان
بنطقها من فصحاء الانس
عن كل مخلوق سوى الانسان
من غير تغيير لحد أو لعب
لا تشرب الماء ولا تنحشى الصدى
لا ترتضى غير الأرض قوتا
حباية تطفو على عقارها
أسكنها في قفص الحديد ^(٣)

٧ - وهذا الوصف وصف البغاء الذى أجاد فيه الشعراء أن أتاحته لنا اثغة أبى الفرج
التي أبدع في وصفها الصابى حين قال :

وما هجنتُ منك المحاسن لثغةً
وليس سوى الانسان تلقاه ألثغا
أتعرفها فيما تقدّم خاليا
لعير اذا ما صاح أو جمل رغا
فيالك حرفا زدت فضلا بنقصه
فأصبحت منه بالكمال مسوفاً ^(٤)

واللثغة تكون أحيانا أملح من النطق الصحيح : فيكون النقص بها فضلا كما أشار الصابى
وان كما لا ترتضى بقية التمثيل .

٨ - ولا يفوتنا أن نقيدها أن شعر أبى الفرج تغلب عليه النزعة الوصفية وذلك
يتصل بمذهبه في النثر أشد اتصال ، وهو وإن لم يستطع مصاولة فحول القرن الرابع كالرضى
والمتينى وأبى فراس يبدع أحيانا ويروع حتى لنعمده في طليعة الشعراء . ولننظر كيف تتدفق
الحياة في قوله يصف قتلى الحرب :

فتركتهم صرعى كأنك بالظبا عايطيتهم في الروع كأس مُدام

(١) الدواج على وزن رمان وغراب الخفاف الذى يلبس (قاموس) . (٢) الشعى كهدى خصل الشعر
البشمان ، والشعبانة الجملة منه (قاموس) . (٣) ص ١٩٠ ج ١ يتيمة . (٤) ١٩١ ج ١ يتيمة .

متهاجرين على الدور كأنما أنفت رؤوسهمو عن الأجسام^(١)
 وقوله يخاطب سيف الدولة ويذكر وقعة كانت له مع بني كلاب وعفوه عنهم :
 إذا استلّك الجانون أغمذك الحلم وإن كفك الإبقاء أنهضك العزم
 ومن مختار هذه القصيدة :

ومن لم يؤدبه لفرط عتوه — إذا ما جنى — الإنصاف أدبه الظلم
 إذا العرب لم تجز أصطناع ملوكها بشكر تعاوت في سياستها العجم
 أعددا إلى عادات عفوك محسنا كما عودتها قبل أبائك الشم^(٢)
 فإن ضاق عنها العذر عندك في الذي جتته فما ضاق التفضل والحلم^(٣)

وله أوصاف حية جدا تكاد تنطق بمعاني الموصوف، من ذلك قوله في وصف معصرة :

ومعصرة أنفت بها وقرن الشمس لم يغيب
 نخلت قزازها بالرا ح بعض معادن الذهب
 وقد ذرفت لفقد الكر م فيها أعين العنب
 وجاش عباب واديها بمنهل ومنسكب
 وياقوت العصير بها يلاعب لؤلؤ الحب
 فيا عجباً لعاصرها وما يفنى به عجبى
 وكيف يعيش وهو ينحو ض في بحر من اللهب^(٤)

وقوله في وصف الخيل على صهواتها الفرسان :

وكل بعيد قرب الحين نحوه سلاهبك الجرد الخفاف قريب
 تباير أقطار البلاد كأنها رياح لها في الخافقين هبوب
 تماشي بفتيان كأن جسومهم لخطتها فوق السروج قلوب^(٥)

(١) ص ١٦١ نشر الحاضرة (٢) ص ٥٦ نشر (٣) ص ١٩٥ ج ١ بنية .

(٤) ص ٢٠٢ ج ١ بنية .

٦ - نثر أبي الفرج البغيا

١ - يمتاز نثر البغيا بعدة ميزات : أظهرها أنه يمثل عصره من الوجهة الفنية، ويمثل الكاتب في ميوله الذوقية والوجدانية . فهو من جهة الصورة نثر مسجوع تغلب عليه الفطرة حيناً ويسوده التكلف أحياناً . وهو من جهة الموضوع يتصل في أكثر نواحيه بما يمس الكاتب من حيث هو رجل مودات ومجاملات ، وقل أن يمثل صاحبه رجل فكرة اجتماعية أو فلسفية، على نحو ما نجد عند بعض كتاب القرن الرابع . ولذلك نقرأ نثر البغيا في طمأنينة وسكون تتراءى أمام خيالنا أشباح المشاكل الطريفة التي تشغل بال الرجل المهذب الذي يحرص على مجاملة الأوداء والأصدقاء والرؤساء، بدون أن يعنى كثيراً بما تصطرع حوله الأفئدة وتتصاول في حماء العقول .

٢ - وأول ما يطالعنا من نثر البغيا هو رسائله الإخرائية، كما كان يعبر القدماء، وهي الرسائل التي بث فيها شوقه إلى أصحابه والآلاف وإخداؤه ، بطريقة وجدانية تقرب في روحها من قصائد النسيب، كأن يقول :

”شوق المملوك إليه شوق الظمان إلى القطر، والسارى إلى غرة الفجر“^(١) .

أو يقول :

”شوق إليه شوق من فقد بالكره سكنه ، وفارق بالضرورة وطنه“^(٢) .

وقد يحاول تعليل صبره على بعد مودوده فيقول :

”ولولا أن المملوك ينجذ نار الاشتياق، ويبرد أوار الفراق، بالتثليل المثل لمن نأت محلته، والتفكير المصور لمن بعدت شقته، لألبيت أنفاسه، وأسمرت حواسه، وهمت دموعه ، وأتقصت ضلوعه . والله المحمود على ماوفق له من تمازج الأرواح، عند تباين الأشباح“^(٣) .

وله في هذا المعنى الطريف كلمة مستجادة تهش لها النفس ، وتسكن إليها الروح ، وأنظر كيف يقول في رفق أشبه بتناجي المحبين :

”إن تزايت الأشباح ، فقد توأمت الأرواح : وإن زحمت الأشخاص وبعدت ، فقد دنت الأنفس وتقاربت ؛ فلا تُمَضُّ الفُرقة وتؤلم ، وتنقص النوى وتكلم . وقد ينال بتناجي الضائر ، وتحاور السرائر ، مالا تصل إليه الإشارة ، ولا تدل عليه العبارة ، إذ الأنفس البسيطة أرق مسرى : وأبعد من الألسنة مرعى“ .^(١)

ونحن نهمهم هذا : فقد نعيش على صلة الأرواح مع أصدقاء أقصتهم الليالى عيشا لانجده في وجود من نساكنهم ونلاقيهم صباح مساء . والود ود القلوب .

٣ — وفي رسائل البغا تفسير لبعض الجوانب الاجتماعية ، وتأكيدها عرف عن العرب من بعض الحلال ، من ذلك رسالته في التهته بمولودة : فهي تأكيدها درج عليه العرب واضنود من بغض البنات . ولهذا نراه في هذه الرسالة يقف موقف الواعظ لا موقف المبنى ، فيقول :

”لو كان الانسان متصرفا في أمره بارادته ، قادرا على إدراك مشيئته ، لبطلت دلائل القدرة ، وأستحالت حقائق الصنعة ، ودرست معالم الآمال ، وتساوى الناس ببلوغ الأحوال ، غير أن الأمر لما كان بغير مشيئته مصنوعا ، وعلى ما عنه ظهر في الابتداء مطبوعا ، كان المخرج له الى الوجود من العدم ، فيا ارتضاه له غير متهم . ومولانا — أيده الله ! — مع كمال فضله ، وتناهى عقله ، وحده فطنته ، وثاقب معرفته ، أجل من أن يحهل مواقع النعم الواردة من الله تعالى عليه ، أو يتسخط مواهبه الصادرة اليه ، فيرمقها بنواظر الكفر ، ويسلك بها غير مذاهب الشكر . وقد اتصل بى خبر المولودة ، كرم الله غرتها وأطال مدتها ، وعرف مولانا البركة بها ، وبلغه أماله فيها ، وما كان من تغيره عند آتضاح الخبر ، وإنكار ما اختاره له سابق القدر ، فعجب المملوك من ذلك وأستنكره ، من مولانا وأنكره : لضيق العذر في مثله عليه . وقد علم

مولانا أنهن أقرب الى القلوب ، وأن الله تعالى بدأ بهن بالترتيب فقال جل من قائل (ويهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور) وما سماه الله هبة فهو بالشكر أولى ، وبحسن التقبل أخرى ، ولكم نسب أفدن ، وشرف أستحدثن ؛ من طرق الأضهار ، والاتصال بالأخيار ، والملمس من الذكر نجابته ، لا صورته وولادته ، ولكم ذكر الأئني أكرم منه طبعاً ، وأظهر منه نفعا ، فمولانا يصور الحال بصورتها ، ويحدد الشكر على ما وهب منها ، ويستأنف الاعتراف له تعالى بما هو الأشبه ببصيرته ، والأولى بمثله ، ان شاء الله تعالى^(١) .

ويظهر أن هذا النوع من التهاني كان من الموضوعات الملحوظة في القرن الرابع ، فقد عقد له الحصري فصلا في زهر الآداب . ومن طريف ما جاء فيه تفضيلا للأئني على الذكر قول بعض الكتاب :

” الدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها ؛ والنار مؤنثة والذكور يعبدونها ؛ والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية ، وفيها كثرت الذرية ؛ والسماء مؤنثة وقد حليت بالكواكب ، وزينت بالنجوم الثواقب ؛ والنفس مؤنثة وهي قوام الأبدان ، وملاك الحيوان ؛ والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ، ولا عرف الأنام ؛ والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون ، وفيها^(٢) ينعم المرسلون “ .

ويتصل بهذا المعنى ما أقترحه سيف الدولة على البيضا من الكتابة الى من تزوجت أمه وكان العرب يكرهون أن تتزوج أمهاتهم^(٣) كرها شديدا . وقد آتفق لعمر بن مسعدة أن سأل سائل : كيف تكتب لمن تزوجت أمه ! وهذا دليل على أن كتاب القرن الثاني كانوا يعدون ذلك من فنون الانشاء . أما في القرن الرابع فكان ذلك الفن ظاهرا أشد الظهور ، وفصل الكلام عنه مؤلف زهر الآداب : فذكر أن من الحق ما يستحسن تركه ، ويستهمجن عمله ، وأشار الى أنه رأى من لا يحضر تزويج كريمته ويولى أمرها غير نفسه ، وأنه عرف من تزوجت أمه

(٢) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٥ الطبعة الثانية .

(١) صبح الأعشى ص ٦١ و ٦٢ ج ٩

(٣) صبح الأعشى ص ١٤٥ ج ١

فعظم لذلك همه ، وأفرد عن أودائه ، وتواري عن أصفائه . حياة من لقائهم ، وكرها لتهنئتهم
أو عزائهم . ثم بين نماذج ما يكتب في مثل هذه الحال . وإلى القاريء نص رسالة البغيا التي
اقترحها سيف الدولة بن حمدان :

”من سلك إليك — أعزك الله ! — سبيل الانبساط ، لم يستوعر مسلكا من المخاطبة فيما
يحسن الانقباض عن ذكر مثله . وأتصل بي ما كان من خبر الواجبة الحق عليك ، المنسوبة
بعد بسبك إليها إليك — وفر الله صياتها — في اختيارها ما لولا أن الأنفس تتناكره ، وشرع
المروءة يحظره ، لكننت في مثله بالرضا أولى ، وبالأعتداد بما جدد الله في صياتها أخرى ، فلا
يسخطك من ذلك ماضيه وجوب الشرع ، وحسنه أدب الديانة ، ومباح الله أحق أن يتبع
وإياك أن تكون ممن لما عدم اختياره تسخط اختيار القدر له ، والسلام“ .^(١)

ولا يفوتنا أن نذكر أن البغيا تثر في رسالته هذه خطوات ابن العميد في نفس الغرض ، ولكن
رسالة ابن العميد أكثر وحشية وأدل على كره العرب لتزوج الأمهات . وأى وحشية أخشن
وأغلظ من أن يخاطب من تزوجت أمه بمثل هذه اللهجة فيقول :

”وهناك الله الذي ترحح للتقوى صدرك ، ووسع في البلوى صبرك ، ما ألهمك من التسليم
بمشيئته ، والرضا بقضيته .. وجعل الله تعالى حده ما تجرعه من أنف ، وكظمته من أسف
معدودا يعظم الله عليه أبعرك ، ويجزل به ذنرك ، وقرن بالحاضر من امتعاضك لفعالها ،
المتنظر من آرتماضك لدفعها ، وعوضك من أسرة فرشها ، أعواد نعشها ، وجعل ما ينعم عليك
بعدها من نعمة ، معزى من شمة . وما يوليك بعد قبضها من منحة ، مبرأ من محنة“ .^(٢)

ونحن حين نصف ذاك بالوحشية متأثرون بروح العصر الذي نعيش فيه ، ولو خلونا إلى
نظرتنا لرأينا ابن العميد يعبر عن نوازع إنسانية ، ولا نقول ترقية ، لأن الغيرة على الأمهات غيرة
فطرية لا يسلم منها إنسان ولا حيوان ، فلتقف عند تدوين ما يدل عليه الأدب من مظاهر

(١) زهر الآداب ص ٦٢ و ٦٣ ج ٢ الطبعة الثانية . (٢) صبح الأعشى ج ٩ ص ٧٩

(٣) الارتماض : الخزد . (٤) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٣

الاجتماع والأخلاق وقفة النزاهة والحياد . وما خصصنا العرب والهنود بكرة البنات إلا لظهور ذلك في أدبهم ظهوراً قوياً^(١) ، وإلا فقد استجوبنا الناس من جميع الأجناس فرأيانهم يؤثرون البنين على البنات . وما نحن على الفطرة الانسانية بمسيطين .

٤ — ومن النواحي الطريفة في نثر الببغا رسائله في آسهداء الشراب . وكان هذا الفن من الكتابة مما يؤثره كتاب القرن الرابع ، ولهم فيه فقرات حسان تدل على فتوة القلوب ، وشباب الأرواح . وفي طي ذلك الآسهداء معنى لطيف : فقد كان المستهدى يشير غالباً إلى أن لديه "زائرين أعزاء" يسره أن يجمع شملهم حول بساط السلاف ، وقد يوحى إلى أن لديه (محبوباً) أسعده بزيارته وأنه يحب أن لا يكون المجلس محروماً من نفحة الصهباء . وأنظر ماذا يقول أبو الفرج سامحه الله :

"من كان للفضل نسباً ، ولفلك الفتوة قطباً ، لم تغزع القلوب من الهم إلا إليه ، ولم تعول الأنفس في استمache المسار إلا عليه . وقد طرقتني من إخواني من كان الدهر يماطني بزيارته ، وينفـس^(٢) على بقربه ومشاهدته ، فصادفتني من المشروب معسراً ، ووجدت الانبساط في التماسه من غيرك على متعذراً ، وإلى تفضلك تغزغ مروءتي في الاسعاف منه بما يلم شعث الألفة ، ويجمع شمل المسرة . ويجعلنا لك في رق الاعتداد بالمنة ، ويقضى عني بتفضلك حقوق المودة"^(٣) . وفي المعنى نفسه يقول من كلمة ثانية :

"ألطف المنن موضعاً ، وأجلها من الأنفس موقعا ، ماعمر أوطان المسرة ، وطرد عوارض الهم والفكرة ، وجمع شمل المودة والألفة ، وأدى إلى آجتناء ثمرة اللذة . وبذخائك من المشروب مع هذه الأوصاف ما يسترق حُر الشكر ، ويحرز قصب السبق إلى الثناء وجميل الذكر ، فإن رأيت أن تتجدد بالممكن منه مروءتي ، على قضاء حق من أوجب على المنة بزيارتي ، فعلت"^(٤) .

(١) بنض العرب للبنات معروف وقد سجله القرآن ، أما بنض الهنود للبنات فيكنى في بيانه قول مؤلف كلية ودمنة "وكان يقال : إن العاقل يعد أبويه أصدقاء ، والأخوة رفقاء ، والأزواج ألقاء ، والبنين ذكراً ، والبنات خصماً ، والأقارب غرباء ، ويد نفسه فريداً" . (٢) بنفس : يحسد . (٣) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢٣

(٤) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢٣

وعلام يدل هذا النوع من الاستهداء ؟ يدل أولاً على أن الشراب كان إذ ذاك مما تفرضه المروعة — كما يعبر أبو الفرج — في السهرات الاخوانية ، ويدل ثانياً على أن الشراب لم يكن من الكثرة بحيث يحده الراغب حيث شاء ، كما يقع ذلك اليوم في أكثر الحواضر الشرقية ، وإنما كان مما يدخره المترفون ، حتى أستطعنا أن نرى أكثر الأدباء يستهدونه وينقون في طلبه الرسائل الملاح . والاستهداء والاستجداء كلمتان متقاربتان في الرسم والنطق المدلول^(١) .

ه — وهناك استهداء أظرف وأشرف : وهو استهداء الدواة والمداد ، ونحن نعلم قيمة ذلك في أنفس الكتاب . وقد استهدى البغيا دواة فقال :

”أنفس الذخائر وأشرف الآمال ما كان للفضل نسبا ، وللصناعة والحظوة سببا ، وبالذوى تجتنى ثمرة الصناعة ، ويحتلب درر الكتابة ، وقد أوحش المملوك الدهر مما كنت أقتنيه من نفائسها ، وضايقه في وجود الرضى على الحقيقة منها ، فإن رأى مولانا أن يميطة ببعض ما يستخدمه من حالها أو عاطفها سمة عطلة المملوك ، ويسمح بإهدائها إلى أهل تصرفه ، ويقابل بالنيج والتقبل رغبته ، فعل ، إن شاء الله تعالى“^(٢) .

واستهدى مداداً فقال :

”التنافس — أيدك الله ! — في أدوات الكتابة وآلات الصناعة بحسب التفاخر في ظهور العمة ، والتخير لبيان الإمكان والقدرة . وإلا فسائر الدوى سواء فيما تصدره الأقلام عنها ، وتستمده بطون الكتب منها . وأولى آلاتها بأن تتوفر العناية عليه ، وينصرف التخير بالضرورة إليه ، المداد الذي هو ينبوع الآداب ، وعتاد الكتاب ، ومادة الافهام ، وشرب الأقلام ... ولا معدل بي عن استماحة خزائنك — عمرها الله ! — الممكن من جيده ، فإن رأيت أن تستنقذ دواتي من نحول العطللة ، وتزده قلبي عن ضاحأ الغلة ، وتكشف عنها سمة التقصان والحلة ، فعلت إن شاء الله تعالى“^(٢) .

(١) في هذه اللفظة شيء من الحق ، وكل ما يبرر الكلمتين من الفرق أن الاستجداء يكون فيما يحتاج إليه المعوزون كالطعام وأن الاستهداء يكون فيما يحتاج إليه المترفون في أذواقهم وإن كانوا فقراء . (٢) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢١

ولنلاحظ أن البيغا لا يستهدى دواة^(١) مئة ثانية فيقول كيف وقعت، ولا مدادا كيف كان، وإنما يستهدى دواة (نفيسة) ولو كانت عاطلة،^(٢) المصيبة: فأول يستهدى مدادا (جيذا) يتره قلمه عن ظمأ الغلة، وهذا تعبير يتنفس عن شعرا^(٣) بيع. واختيار الدواة والمداد كان ولا يزال من أوضح الدلائل على أذواق الكاتب. وللدواة النفيسة والمداد الجيد تأثير قوى جدا في بعث نشاط الكاتب. وكذلك تفعل الأقلام الجيدة. وهذا كلام فصلناه في المقدمة الفرنسية التي صدرنا بها (الرسالة العذراء) فليرجع إليه القارئ هناك^(٤).

٦ — وقد لاحظنا أن البيغا يكتب في الموضوع الواحد غير مرة، وفقا للظروف. من ذلك رسائله في التهئة بالزواج^(٢) والتهئة بولاية عمل^(٣) والتهئة بالقدوم من سفر والتهئة بالمواسم والاعباد^(٤).

وهذا كله طبعى ومقبول، ولكن الطريف أن يتكرر كلامه في التهئة بالصرف عن الولاية، فقد نفهم أن يهنا المرء بولاية عمل، ولكن لا نفهم كيف يهنا بالعزل، وما ننكر أن يقع ذلك، ولكنه في رأينا من التكلف الممجوج، وإن كان يدل على لباقة وذكاء. ولننظر كيف يحتال البيغا في مثل هذه الحال :

”من حل محله — أيده الله تعالى! — من رتب الرياسة والنبل، كان معظما في حالتي الولاية والعزل. لا يقدر في قدره تغير الأحوال، ولا ينقله عن موضعه من الفضل تنقل الأعمال، إذ كان استيحاءها للفائت من بركات نظره، بحسب أنسها — كان — بما أفادته من محمود أثره“^(٥).

”لو كان لمستحدث الأعمال ومستجد الولايات زيادة على ما آخضك به من كمال الفضل، ومأثور النبل، لحاذرنا انتقال ذلك بانتقال ما كنت تتولاه بمحمود كفايتك، وتحوطه

(١) وللقارئ أن يراجع كذلك ما أثبتته صاحب زهر الآداب من (أوصاف آلات الكتابة والدوى والأقلام) ص ٢٢٩ و ٢٣٠ الطبعة الثانية . (٢) أثبت له صاحب الصبح أربع رسائل ص ٥٤ و ٥٥ ج ٩

(٣) أثبت له مؤلف الصبح ثلاث رسائل ص ٢٢ و ٢٣ ج ٩ (٤) أثبت له أربع رسائل ٣٤ و ٣٥ ج ٩

(٥) الصبح ج ٩ ص ٧٧

بنواظر نراحتك وصيانتك، ... فالأسف فيما تنظر بقولا على أن الشرائع اللولية محمودا مشكورا^(١)،
لا لك : ولذلك كنت بالصرف مهنا مسرورا، كما كنت في بدل ثانيا على

٧ - وهذا الاستطراف لا يفارق البيغا : فقد كتب عدة^٢ كثير الحواضر^٣ في التهئة بالشفاء
من المرض، يدور أكثرها حول معنى واحد : هو أنه يشارك صديقه في العلة والشكوى .
ويعجبنا من ذلك قوله :

”ما كنت أعلم أن عافيتي مقرونة بعافيتك، ولا سلامتي مضافة لسلامتك، إلى أن
تحققت ذلك من مشاركتي إياك في حالتى الألم والصحة، والمرض والمحنة، فالحمد لله الذى
شرف طبيعى بمناسبتك، وجعل خلقى بملاءمتك، فيما ساء وسر، وإياه تعالى أشكر على ماخصنى
به من كمال عافيتك، وسبوغ سلامتك، وسرعة إقبالك^(٢)“ .
ولكنا نبسم حين نراه يهين صديقا بالمرض فيقول :

”فى ذكر الله سيدى بهذا العارض — أماطه الله وصرفه، وجعل صحة الأبد خلقه —
ما دل على ملاحظته إياه بالعناية، إيقاظا له من سنة الغفلة، إذ كان تعالى لا يذكر بطروق
الآلام، وتبنيه العظات، غير الصفوة من عباد، الخيرة من أوليائه، فهناك الله الفوز بأجر
ما يعاينه، وحمل عنه بالطافه ثقل ما هو فيه^(٣)“ .

ولكن لا عجب فالمرض والعزل من الطوارئ التى تحتاج إلى التلطف فى المواساة،
وإخراجها مخرج التهئة فيه طرافة تغرى بالعزاء .

٨ - وقد يتفق للبيغا أن يكرر العبارات والألفاظ حين يعاود الكتابة فى موضوع
واحد كقوله فى التعزية :

”اتصل بى خبر المصيبة : بحداد الحسرة، وسكب العبرة، وأضرم الحرقه، وضاعف
اللوعة^(٤)“

فأراه يعيد هذه التعابير في كلمة ثانية فيقول :

”اتصل بي خبر المصيبة : فأضرم الحمرة ، وسكب العبرة ، وقدح اللوعة ، وامترى الدفعة“^(١) .

وله في هذا عذره : فإن اللغة محدودة ، وبعض المعاني يعسر الافتنان في تلوينها أحيانا . على أنه استطاع أن يخفي فقره قليلا حين قال (أضرم الحمرة) مقابل (جدد الحسرة) وقال (قدح اللوعة) مقابل (أضرم الحرقه) وإن كان كرر (سكب العبرة) بلفظها في الرسالتين .

وكذلك كرر المعنى والعبارة في قوله تعزيةً لصديق :

”أحسن الله في العزاء هدايته ، وحرس من فتن المصائب بصيرته“^(٢) .

وقوله :

”وحرس يقينك من اعتراض الشبهة ، وأحسن الى جميل الصبر هدايتك ، وتولى من فتن المحن رعايتك“^(٣) .

ويلاحظ مثل ذلك فيما كتب من رسائل الاعتذار والتهنئة بالمنزل الجديد^(٥) ، وإن كان في هذا يكرر المعاني أكثر مما يكرر الألفاظ .

٩ — لقد ضاعت رسائل البيغا ولم يبق منها إلا القليل ، وما حفظه منها القلقشندي غير موشح بالشعر ، ولكن ما حفظه الثعالبي رصع بالمستجاد من أبياته الحسان ، حتى نجده يترجم لرسائله فيقول :

”فصل في بيان غرر من رسائله الموصولة بمجاسن شعره“

لهذا نرجح أن يكون القلقشندي اختصر ما اختار من رسائله فأسقط ما وصلت به من الشعر البليغ ، ونرجح أن يكون الغالب على ثره أن يرصع بالشعر على عادة بعض الكتاب من الشعراء . وإلى القارئ نموذجاً من رسالة له في مدح سيف الدولة^(٦) .

(١) ٩٧ (٢) ٩٦ (٣) ص ٩٧ (٤) ١٧٠ ، ١٧١ (٥) ٧٢ ، ٧٣

صبح الأعشى ج ٩ (٦) راجع ما اختار صاحب الزينة من رسائله ص ١٨٢ — ١٩٢ ج ١

«الشجاعة أقل أدواته ، والبلاغة أصغر صفاته ، يُطرق الدهرُ اذا نطق ، وينطق
المجد اذا افتخر ، فالآمال موقوفة عليه ، والثناء أجمع مصروف اليه ، نهض بما قعدت الملوك
عن ثقله ، وضعف الدهر عن معاناة مثله ، بهمم سيفيه ، وعزائم علوية ، فرد شمل الدين
جديدا ، وذميم الأيام حميدا ، بحق أوضحه ، وخل أصلحه ، وهدى أعاده ، وضلال أباده .

فلا أنتزع الله الهدى عز بأسه ولا أنتزع الله الوغى عز نصره
وأحسن عن حفظ النبي وآله ورغى سوام الدين توفير شكره
فما تدرك المداح أدنى حقوقه باغراق منظوم الكلام ونثره

لأن أدنى نعمة تستغرق جميع الشكر ، وأيسر منة تفوت المبالغة في جميل الذكر ... الخ .

١٠ — هذا ولا ننس أن نذكر القارئ بأن فضل البغا في رسائله لا يقاس الى

فضله وبراعته في نثره المرسل الذي ديج به قصصه الغرامية ، وقد حُفِظَ له منها شاهد يعزّ
على من رامه من أندى الكتاب قلما وأسماءهم بيانا^(١) .

(١) نجد هذا الشاهد في باب «الأخبار والأفاصيص» بالجزء الأول من هذا الكتاب .

٧ - الصاحب بن عباد

١ - في ذى القعدة سنة ٣٢٦^(١) للهجرة ولد إسماعيل بن عباد في الطالقان - وهي ولاية بين قزوين وأبهر - في بيت معروف بالعلم والفضل ، فهو آبن عباد بن العباس أحد المتفوقين في عصره في علوم اللغة والدين . وكانت الطالقان فيما يظهر من كلام ياقوت في معجم البلدان من البقاع التي غلب على أهلها العلم وعرفت بالسبق في فنون الآداب . ولسنا نعرف من بداية ابن عباد شيئا كثيرا^(٢) ، ولكن يظهر من المصير الذي انتهى إليه أنه كان شابا ذكيا أعد نفسه لمنازل العظمة والجبروت . حدث عن نفسه قال : حضرت مجلس ابن العميد عشية من عشايا شهر رمضان وقد حضره الفقهاء والمتكلمون للناظرة ، وأنا إذ ذاك في ريعان شبابي ، فلمّا تقوّض المجلس وانصرف القوم وقد حلّ الإفطار بكرت ذلك فيما بيني وبين نفسي وأستبجحت إغفاله الأمر بتفطير الحاضرين مع وفور رياسته واتساع حاله ، واعتقدت أن لا أخلّ به إذا تمّت يوما مقامه . وقد تمّ له ذلك فكان لا يدخل عليه في شهر رمضان بعد العصر أحد كلّنا من كان فيخرج من داره إلا بعد الإفطار عنده ، وكانت داره لا تخلو في كل ليلة من ليالي شهر رمضان من ألف نفس مفطرة بها ، وكانت صلاته وصدقاته وقرباته في هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع تهوّر السنة^(٣) .

٢ - وأول ما نعرف من نباهة شأنه هو اتصاله بابي الفصل بن العميد ، فقد كان يخدمه خاصة ، ثم ترقّت به الحال إلى أن كتب لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه ، ومؤيد الدولة

(١) هكذا ذكر ياقوت في معجم الأدباء ، وفي بنية الوعاة سنة ٣٢٤ (ص ١٥٦) . (٢) في بنية الوعاة انه كان في الصغر إذا أراد المضيّ الى المسجد ليقرأ تعطيله والدته ديارا في كل يوم ودرهما وتقول له تصدّق بهذا على أول فقير تلقاه فكان هذا دأبه في شبابه الى أن كبر وصار يقول للفراس كل ليلة : اطرح تحت المطرح دينارا ودرهما لثلاث نساء . (٣) ص ٣٦ ج ٣ يتيمة الدهر .

يومئذ أمير ، فلما مات ركن الدولة وولى مؤيد الدولة بلاده بالرى وأصبهان أستوزر ابن عباد وحكمه في أمواله ، وكان لقبه الصاحب في حياة أبيه أنسابه . فلما مات مؤيد الدولة أحضر الصاحب نحر الدولة أخا مؤيد الدولة — وقد كان حرب من أخيه عضد الدولة والنجاء الى الساسانية بخراسان — وملكه البلاد ، فأقر الصاحب بن عباد على أمره ، فبقى الصاحب نافذ الحكم تقدم كلمته على كلمة نحر الدولة الى أن مات في ٢٤ صفر سنة ٣٨٥

قال السيوطي في بغية الوعاة^(١) : ولى الصاحب الوزارة ثماني عشرة سنة وشهرا لمؤيد الدولة بن ركن الدولة ابن بويه وأخيه نحر الدولة ، وهو أول من سمي الصاحب من الوزراء لأنه صحب مؤيد الدولة من الصبا وسماه الصاحب فلقب عليه هذا اللقب ، ولم يعظم وزيراً مخدومه ما عظمه نحر الدولة .

ويظهر من كلام السيوطي أن نحر الدولة كان يعظم ابن عباد لفضله ، ونحن نرجح أنه كان يوقره آتقاء لشده !

٣ — كان تكوين الصاحب من الوجهة العلمية تكويناً جيداً ، فقد أخذ الأدب عن ابن فارس وابن العميد وسمع من أبيه ، وحدث وقعد للإملاء ، وازدحم الناس على درسه ، بحيث كان له ستة من المستملين^(٢) . أرسل إليه في السر نوح بن منصور ملك خراسان يدعوه ليلقي إليه مقاليد مملكته ويعتمده لوزارته ويحكمه في ثمرات بلاده ، فكان فيما اعتذر به الصاحب أن نقل كتبه خاصة يحتاج الى أربعائة جمل^(٣) . وأسعاره ورسائله تدل على أنه كان أعجوبة من أعاجيب زمانه وأنه كان من أوفى الناس حظاً في دقة الفهم وبراعة القول وسعة الأطلاع .

٤ — أما أخلاق الصاحب فكانت مذبذبة بين الحسن والقبح : كان كريماً ولكن كرمه كان نفاً ينصب لشرار الناس والشعراء والكتاب . قال التوحيدى : قلت لأبي السلم نجبة بن علي

القوطاني الشاعر : أين ابن العميد من ابن عباد ؟ فقال : زرتها جميعا وكان ابن العميد أعقل وكان يدعى الكرم ، وابن عباد أكرم ويدعى العقل ، وهما في دعواهما كاذبان^(١) .

وكان الصاحب مفتونا بنفسه لا يرضيه أن يعترف لغيره بفضل أو يوفق سواه الى حق . قال يوما لجلسائه : ما صدر قول الشاعر :

* والمورد العذب كثير الزحام *

فسكتت الجماعة ، فقال ابن الداري :

* يزدحم الناس على بابه *

فأقبل عليه بغيظ وقال : ما عرفتك إلا متعجرفا جاهلا ، أما كان لك بالجماعة أسوة !^(٢) .

وورد إلى الصاحب رجل من أهل الشام فكان فيما استخبره عنه : رسائل من تُقرأ عندهم ؟ فقال : رسائل ابن عبد كان . قال : ومن ؟ قال : رسائل الصابي . وغمزه أحد جلسائه ليقول رسائل الصاحب فلم يفتن ، وراه الصاحب فقال : تغمز حمارا لا يحس !^(٣) .

وكان الصاحب يحب الفخر وأنتحال الفضائل التي ربما قصر عنها ، كذلك يقول ياقوت ، ويذكر في تأييد ذلك أن الصاحب حدث أنه عند دخوله الى بغداد قصد القاضي أبا السائب عتبة بن عبيد لقضاء حقه فتناقل في القيام له ، وتحفز تحفزا أراه به ضعف حركته وقصور نهضته ، فأخذ الصاحب بضبعه وأقامه وقال : نعين القاضي على قضاء حقوق إخوانه ! فجل أبو السائب وأعتذر إليه . والقصة وقعت أخير الصاحب ولكنه انتحلها لنفسه وحكاها في مجلس أنسه فشاعت عنه^(٤) .

وسمع الصاحب يقول : ما بقي من أوطاري وأغراض إلا أن أملك العراق وأتصدر ببغداد وأستكتب أبا إسحاق الصابي ويكتب عني وأغير عليه . وهي شهوة قاهرة أن يسيطر على الصابي أحد أعلام ذلك الزمان . والشواهد على ضعف عقل الصاحب وخلقه كثيرة جدا

(١) ٣٠١ ج ٢ ياقوت . (٢) ص ٣٠٠ ج ٢ ياقوت . (٣) ص ٣١٥ ج ٢ ياقوت .

(٤) ص ٣٣٨ و ٣٣٩ ج ٢ ياقوت . (٥) ص ٣٣٧ ج ٢ ياقوت .

يراجها القارئ مبسوثة في معجم الأدباء ، ولكن أكثر ما أخذ عليه مكتوب بقلم أبي حيان التوحيدى ، والتوحيدى غير عدل في هذا الباب لأن كلامه على الصاحب كلام مورتور يحمله حقه على الكذب والافتراء ، ومع هذا فقد قال التوحيدى عند ما قارب الفراغ من كتابه أخلاق الوزيرين الذى وضعه للخط من قدر ابن العميد وابن عباد : « ولولا أن هذين الرجلين كانا كبيرى زمانهما ، وإليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعت شمس الفضل ، وبهما ازدانت الدنيا ، وكانا بحيث ينشر الحسن منهما نشرًا ، والقبیح يؤثر عنهما أثرًا ، لكنت لا أتسكع في حديثهما هذا التسكع ، ولا أنحى عليهما بهذا الحدّ ، ولكن النقص من يدعى التمام أشنع . والحرمان من السيد المأمول فاقرة ، والجهل من العالم منكر ، والكبيرة من يدعى العصمة بائسة ، والبخل ممن يتبرأ منه بدعواه عجيب . ولو أردت مع هذا كله أن تجد لهما ثالثًا في جميع من كتب للبلبل والديلم الى وقتك هذا المؤرخ في الكتاب لم تجد » ^(١) .

٥ — وما اختلقه التوحيدى على ابن عباد يدل على أمرين : الأول أن ابن عباد كان شخصية بارزة جدًا ، شطرت الناس شطرين فشطر عدو وشطر صديق ، فاستطاع ابن عباد لذلك أن يذكر وهو مفتون انه مدح بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية . ^(٢)

واستطاع التوحيدى وأضرابه من الطامعين الحاسدين أن يفتنوا في ذمه وثلبه وأن يجدوا آذانًا تستطيب ما يقال فيه من الاتم والبهتان . الأمر الثانى تفوق أهل ذلك الزمان في الهجاء . ففى ما كتبه التوحيدى شواهد كثيرة تدل على أنهم كانوا يعرفون كيف تكون السخرية وكيف يكون التعريض اللذاع . فمن ذلك ما عرضه التوحيدى في التدليل على غرام الصاحب بالمدح وتهافت أصحابه في إرضاء شهوته الى الثناء . قال : ولقد بلغ من ركاكته أنه كان عنده أبو طالب العلوى فكان اذا سمع منه كلاما يسجع فيه وخبرنا ينمقه يباقي عينيه وينشر منتخريه ويرى أنه قد لحقه غشى حتى يرش على وجهه ماء الورد ، فاذا أفاق قيل : ما أصابك ؟ ما عراك ؟ ما الذى نالك وتغشاك ؟ فيقول : ما زال كلام مولاي يروقني ويؤتقني حتى

فارقني لبي، وزايلني عقلی، وانشرحت مفاصلی، وتخاذلت عرى قلبي، وذهل ذهني، وحيل بني وبين رشدی . فيتהל وجه ابن عباد عند ذلك ويتنفس ويضحك عجباً وجهلاً . ثم يأمر له بالحباء والتكرمة ويقدمه على جميع بني أبيه وعمه^(١) .

والتوحيدى بعد أن يقص هذا يقول : ” ومن يخذع هكذا فهو بالنساء الرعن أشبه . وبالصبیان الضعاف أمثل “ ونحن لانستبعد أن يقع ابن عباد فى مثل هذا الضعف الخلقى ، فان الرؤساء كثيرا ما يؤخذ عليهم انحلال الخلق من هذه الناحية ، وهم يغارون غيرة شديدة على نفوذهم ومكانتهم الاجتماعية ، ويعملون خبثاً أو جهلاً على التحدث بمواهبهم والإتادة بما يزعمون أنهم أنفردوا به من قوة البأس وفصاحة المنطق وذكاء الجنان . ولكن العجيب حقاً هو هذه الصورة التى وضعها التوحيدى للتملق السخيف المرذول الذى يقع فيه المفلسون من الأتباع السخفاء .

٦ — ومن الصور التى وضعها التوحيدى لغرور ابن عباد القصة الآتية :

” ناظر ابن عباد بالرى اليهودى رأس الجالوت فى إعجاز القرآن ، فراجعته اليهودى فيه طويلاً حتى أحتد وكاد يتقد ، فأحتال اليهودى فى مخالطته وقال :

أيها صاحب ! لم نتقد وتستشيط وتلهب وتمتلط^٥ كيف يكون القرآن عندى آية ودلالة ومعجزة من جهة نظمه وتأليفه . فان كان النظم والتأليف بديعين وكان البلغاء فيما تدعى عنه عاجزين وله مدعين فهأنا أصدق عن نفسى وأقول ما عندى : إن رسائلك وكلامك وفكرك وما تؤلفه وتباده به نظماً ونثراً هو فوق ذلك ، أو مثل ذلك وقريب منه ، وعلى كل حال ليس يظهر لى أنه دونه ، وأن ذلك يستعلى عليه بوجه من وجوه الكلام أو بمرتبة من مراتب البلاغة .

فلما سمع ابن عباد هذا فتر وحمد وسكن عن حركته وقال : ولا هكذا يا شيخ ! كلامنا حسن وبلغ وقد أخذ من الجزالة حظاً وافراً ، ومن البيان نصيباً ظاهراً ، ولكن القرآن له

المزية التي لا تجهل ، والشرف الذي لا يخل ، وأين ما خلقه الله على أتم حسن وبهاء مما يخلقه العبد بطلب وتكلف .

وهذا كله يقوله وقد خبا حيله وتراجع مزاجه وصارت ناره رمادا مع إعجاب شديد قد شاع في أعطافه ، وفرح غالب قد دب في أسارير وجهه لأنه رأى كلامه يبدو لليهود وأهل الملل شيئا بالقرآن^(١) .

فهذه أيضا صورة جميلة من صور التوحيدى ، وليس يضيرها أن تكون مختلفة . فقد تكون صور الواقع أظلم من صور الاختلاق ، والمهم أن التوحيدى أعطانا على حساب ابن عباد صورة متقنة من صور الضعف واللؤم التي نراها غالبا في الرؤساء المفتونين ، وربما كان الصاحب أقرب من غيره الى طهارة القلب لأنه يتخذ ، وقد يتخذ الكريم ، على حين نرى من الرؤساء من يطرب ويرقص لثناء أتباعه عليه ، وفنائهم فيه ، ولكنه لا يزال يتشبث بأذيال التعقل فيدرك أنهم يثنون عليه راغبين أو راهبين ، ويبتئ لهم من الحقد والضعينة والكيد ما قد ينكشف عن قاصمة الظهر أو مُندية الجبين . وأمثال هؤلاء صغار في أنفسهم ، إذ يحدث أحيانا أن يمدحهم الناس صادقين ، فيظنون لهوانهم على سرائرهم أن ما يوجه اليهم من المديح ليس إلا ضربا من ضروب الختل والخذاع .

٧ - وللتوحيدى مفتريات كثيرة على ابن عباد تدل على حذق بالغ وخيال عجيب ، وقد أراد التوحيدى أن يدارى تحامله فأضاف الى ابن عباد بعض الأجوبة المفحمة ، في شؤون كثيرة ، بعضها مما لا تصلح روايته ، ومنها الفكاهة الآتية :

” قال قوم من أصحابنا لابن عباد : لو كان القرآن مخلوقا لحاز أن يموت ، ولو مات القرآن في آخر شعبان بماذا كنا نصلى التراويح في رمضان ؟ فقال ، لو مات القرآن كان رمضان يموت أيضا ، ويقول : لا حياة لي بعدك ، ولا نصلى التراويح ونستريح ! “^(٢)

وهذه الفكاهة تمثل روح الارتباب الذي كان يدب في صدور أهل ذلك العصر .
 والتوحيدى هنا متسامح مع الصاحب لأنه يريد أن يصل عن طريقه الى نشر هذه النكتة
 برفق ولطف ، ولا ينس القارىء دقة الخيال فى كلمة : لو مات القرآن فى آخر شعبان بماذا
 كنا نصلى التراويح فى رمضان ! مع أن التراويح ليست كل شئ فى الاسلام ، وانما أراد
 الكاتب أن يصل الى أن رمضان كان يموت ! ورمضان عند كتاب القرن الرابع شئ ثقيل ،
 هجاه من بينهم بديع الزمان وأبو الفصل بن العميد .

٨ - ومن دلائل عظمة الصاحب أن المؤرخين أطالوا الخلاف فى تقرير فضله ، فبينما
 التوحيدى يلح فى ثلبه وتنقصه والزراية به ، والإنحاء عليه ، يقوم الثعالبى من جانب آخر
 فيقول فيه :

”ليست تحضرنى عبارة أرضاها للافصاح عن علو محله فى العلم والأدب، وجلال شأنه
 فى الجود والكرم ، وتفرد به ببايات المحاسن ، وجمعه أشات المفانر، لأن همة قولى ننخفض
 عن بلوع أدنى فضائله ومعاليه ، وجهد وصنئ يقصر عن أيسر فواضله ومسايعه ، ولكنى
 أقول هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان ، ومن لا حرج
 فى مدحه بكل ما يمدح به مخاوق ، ولولاه ما قامت للفضل فى دهرنا سوق ، وكانت أيامه
 للعلوية والعلماء ، والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضلائهم ، ومترع آمالهم ،
 وأمواله مصروفة اليهم ، وصنائعه مقصودة عليهم ، وهمة فى مجد يشيده ، وإنعام يجده ، وفاضل
 يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه . ولما كان نادرة عطارى فى البلاغة ، واسطة
 عقد الدهر فى السماحة ، جلب إليه من الآفاق وأقاصى البلاد كل خطاب بزل ، وقول
 فصل ، وصارت حضرته مشرعا لروائع الكلام ، وبدائع الأنعام ، وثمار الخواطر ، ومجلسه
 مجمعا لصوب العقول ، وذوب العلوم ، ودرر القرائح . فبلغ من البلاغة ما يعتد فى السحر ،
 ويكاد يدخل فى حد الإعجاز ، وسار كلامه مسير الشمس ، ونظم ناحيتى الشرق والغرب ،
 وأختف به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربى عددهم

على شعراء الرشيد، ولا يقتصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي، وملك رق المعاني، فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء المذكورين. (١) الخ.

وهنا مضى الثعالب يسرد أسماء الشعراء والكتاب والخطباء الذين قدموا على الصاحب أو كاتبوه: كأبي الحسن السلامي، وأبي بكر الخوارزمي، وأبي طالب المأموني، وأبي الحسن البديهي، وأبي سعيد الرستمي، وأبي القاسم الزعفراني، وأبي العباس الضبي. الخ. (٢) الخ.

٩ — ونحن لو تعقبنا من اتصلوا بالصاحب ممن ورد ذكرهم في كتب الأدب لرأيناهم نحو المائة أو يزيدون من مشاهير الرجال الذين أثروا في عصرهم وفيما تلاه من العصور أبلغ تأثير، وطؤلاء الذين عرفوا الصاحب فرضوا عنه، أو غضبوا عليه، أثر كبير فيا نسب إليه من المناقب، أو حمل عليه من المثالب. ولهم كذلك أثر فيا عرف من طيشه، وغروره، وصلفه، وتحامله، أو بره، وجوده، وفضله، وتطؤله، فان إقبال الرجال المشاهير على الرجل العبقري يرهف حواسه ومشاعره، ويوقظ ما غفا فيه من كريم الشئائل، وسيئ الطباع. والإنسان في جملة مجموعة مختلفة من الحسن والقبح، والتسامي والإسفاف، وإقبال الدهر وإدباره يكشفان عن أسرار الغرائز والميول، وقلمنا تظهر محاسن الناس ومساوئهم إلا حين يرتفعون، أو حين ينخفضون، أما الرجل الذي يعيش عيشة وسطا لا مجال فيها للزهو أو الحقد فإنه يظل مستور النواز والخلال، وكذلك تأثر الصاحب بحاشيته فاولع بالاغراب، وكلف بالظهور على معاصريه من الكتاب والشعراء، وجرت له مع قاصديه من أرباب الحاجات نكت سارت مسير الأمثال. فقد ذكروا أن بعض أصحابه كتب إليه رقعة في حاجة، فوقع فيها، ولما وردت إليه لم يرفها نوقعا، وقد تواترت الأخبار بوقوع التوقيع فيها. فعرضها على أبي العباس الضبي فما زال يتصفحها حتى عثر بالتوقيع وهو ألف واحدة، وكان في الرقعة:

”فإن رأى مولانا أن نعلم بكذا فعل“ فأثبت الصاحب أمام «فعل» ألفا، يعني (٣) «أفعل».

وكتب بعض العمال رقعة اليه في آلتاس شغل ، وفي الرقعة : ” إن رأى مولانا أن يأمر بإشغالي ببعض أشغاله “ فوق تحتها : ” من كتب إشغالي لا يصلح لأشغالي “^(١) .

ورفع الضرابون من دار الضرب قصة الى صاحب في ظلامة لهم مترجمة بالضرايين فوق تحتها : ” في حديد بارد “^(١) .

١٠ — وقد وصل به الإغراب الى أن يكتب في معان بعيدة عما ألف الكتابة فيه من شئون العقل والوجدان . قال الثعالبي : ” سمعت أبا جعفر الطيب المعروف بالبلاذري يقول إن للصاحب رسالة في الطب لو علمها ابن قرة وابن زكريا لما زاد عليها ، فسألته أن يعينها إن كانت عنده ، فذكر أنها في جملة ما غاب عنه من كتبه ، فاستغربت وأستبعدت ما حكاها من تطيب صاحب ، ونسبته في نفسى الى التزيد والتكثُر الى أن ظفرت في نسخة الرسائل المؤلفة المبوبة للصاحب برسالة قدّرتها تلك التي ذكرها أبو جعفر ووجدتها تجمع الى ملاحه البلاغة ، ورشاقة العبارة ، حسن التصرف في لطائف الطب وخصائصه ، وتدل على التبحر في علمه وقوة المعرفة بدقائقه “^(٢) .

والمهم في هذا هو آرتياب الثعالبي فيما نسب الى صاحب من التطيب وظنه أن ذلك قد يكون من التزيد والتكثُر . ففي هذا اشارة الى أن صاحب كان مبتلى بحاشيته يتقولون عليه الأقاويل . أما أنا فأرجح أن رسالة صاحب في التطيب لم تكتب الا معارضة للخوارزمي في رسالة كتبها الى أحد تلامذته في نفس المعنى ، وفي هذا دليل على أن صاحب تأثر بمن اتصل به من الكتاب كما أثر فيهم .

١١ — وهنا ملاحظة لابد منها : ذلك أن الخوارزمي والصاحب حين كتبوا في الطب استطاعا أن يقيما البرهان على أن الكاتب القدير يستطيع أن يضع المسائل الجافة في لغة جميلة تفيض بالعدوبة واللين ، مع أن في بعض الموضوعات خشونة طبيعية لا تألف لغة السجع والتورية والجناس ، واليك نموذجا من رسالة صاحب الى صديق شكاه اليه علة ألمت به :

(١) ص ٣٨ ج ٣ بئمة . (٢) ص ٤٢ ج ٣ بئمة .

”قد عرفت مشرحة مولاي من أمره، وأنبأ عنه من أحوال جسمه . قد سئني جنته على
 يترا في البيت يحتاج معها إلى نصبر على استيقه، ورفق بصافية . قدما انتهى يشكو من
 ضعف مدرته . وقرة شهوته، فلا مريم : أحدهما أن جسمه كما قست تنفلا لم يتق فتنشق الشهوة
 الصادقة، وترجع دابة السابغة، والآخر أن العودة لما دامت عيبا لطيفيات، ولزمت بها
 المبررات، قلت شهوة، وضعف الهضم، ومع ذلك فلا بد مما يفتنى ويغذى، ثم يمكن من
 بعد أن يتناولك ضعف المعدة بما يقوى منها، ويرى بمرض المكتسب عنها ... والأفراض
 في آخر الخديت خير ما بقيت به المعدة، وأصلحت به العروق، وقوى به الطحال، ليتمكن
 من جذب العنكة، لا سيما وأنه وجد مولاي ليس الدنب فيه للحميات التي وجدها، والبلادة
 التي ورددها، فلو صدق هواء المتغير جسدا نقيا من تقصول لما أثر هذا التأثير، ولا طول
 هذا التطويل ... الخ . وهي رسالة طويلة“ .

وأليك قطعة من رسالة الخوارزمي إلى تلميذه وقد ظهر عليه الجندري :

”هذه العلة وإن كانت موجعة، وفي رأى العين قطيعة تسعة، فإنها إلى السلامة أقرب،
 وصريقها إلى الحياة أقصد، لأن عين الطبيب تقع عليها، ويد المرض والمعايج تصل إليها،
 وإنما هي قرح نهشة الطبيعة، وقد أضرته الحرارة، وظاهر الداء أسلم من باطنه، ويزول الجرح
 أحسن من كمنه، وهذه بعد علة تعم الأبدان، وتشمل الصبيان، وإذا كانت العلة عامة كانت
 أكثر ضرا ودياء، وأخف على القلوب أعباء، لأن النفس تستريح إلى المشاركة وتأنس بالجماعة
 كما تستوحش من الوحدة . ولعمري إنها تورث سواد اللون، وتذهب من الوجه بديباجة
 الحسن، ولكن ذلك يسير في جنب السلامة للروح اللطيفة، والنفس الشريفة، وفي الشر
 خيار، ومن المحنة إلى المحنة صروف وأقدار ... الخ“ .

والمخوارزمي رسالة أخرى طويلة كتبها إلى بعض الأمراء وقد ورد عليه بكتاب يشكو فيه
 الحرب، فنقبس منها الفقرات الآتية :

”... الجرب حكمة مادتها ييوسة وحرارة ووقود وآلتهاب، زندهما الذى يقتبسان منه طعام وشراب، وفضلة قذقتها الطبيعة الى ظاهر البدن، ودفع الله تعالى شرها عن الباطن، وعسكر من عساكر البلاء تمده القذارة، وتهزمه الطهارة، وتنقص منه البرودة والرطوبة، كما تزيد فيه الييوسة والحرارة . ومن داوى ظاهره وترك باطنه، فانما يبل حائطا وراء النار الموقدة، ويرش على سطح بيت فيه الشرر المبتوثة، ويقعد تحت قول الأول :

خليلى داويما ظاهرا فمن ذا يداوى جوى باطنا

وكيف تقطع مادة نار تطفأ عن ظاهر الجسد، وهى تتوقد فى باطن الكبد ... أرى لسيدي أن يصبر على الجوع مع مرارته، وعلى العطش مع حرارته، وأن يقتصر من الطعام على ما يكون فى أوسط طبقات الرطوبة، وفى أعدل موازين البرودة، ولا بد من هجر اللحم والفاكهة ولا سبيل الى الحرافة . فأما البقول فيجب أن لا ترى ولو فى المنام، ولا تمس ولو بالأوهام، والسّمك وما ناسبه بلية، واللبن وما خرج منه منية .. وهذه علة تكسب صاحبها نخزية وحياء، وثورته نخجلا واسترخاء، ينظر الى الناس بعين المريب، ويتستر عنهم كتستر المعيب، تنفر عنه الطباع، وتستقذره النفوس، وتنبو عن مؤاكلته العيون، ... ولولم يكن من دقائق آفاتهما، ومن عجيب هناتهما، إلا أنها تسبخ الفتیان، وتمسخ الانسان، وتجعله أميا بعد أن كان غير أمي، وأعجميا وليس بأعجمي، تنفر من نفسه نفسه، وتهرب من فراشه عرسه، ويتباعد عنه أقرب الناس منه، لقد كانت جديرة أن يحتشد لدوائها، وتبدل الرغائب فى فنائها، ثم هى ربع من أرباع الخذلان، وقسم من أقسام الحرمان . قال الشاعر :

(١) أعاذك الله من أشياء أربعة الموت والعشق والافلاس والجرب

١٢ — ولو أن تلك الرسائل أرخت لاستطعنا أن نعرف أى الكاتين أسبق الى الكتابة فى المعانى الطبية التى ظنها الثعالبي بعيدة عن متناول الكتاب . والصلوة بين الصاحب والخوازمي

كانت قوية تسمح لأحدهما بأن يقف على ما يكتب الآخر، وإن كانت ضعفت بعد ذلك، حتى كتب الخوارزمي إلى الصاحب يعاتبه :

”...ولقد كانت أيامي بحضرة الوزير قصارا، وكان ليلى بها نهارا، وساعاتي فيها أسخارا، كما أن أيام فراقه أيام طوال، وليلة فراقه تعدّ ليال، وإنى بعد صبري على فراقه لجلد على وقع سهام الحجّر، واسع المجال في ميدان الصبر...“^(١) الخ .

١٣ — ولم يقف الصاحب في الإغراب عند حد معقول، وإنما مضى يغرب في الصنعة شعرا ونثراً، فوضع قصيدة تبلغ سبعين بيتاً خالية من الألف، وهي أكثر الحروف دخولا في المنظوم والمشور، مطلعها :

قد ظل يحرج صدرى من ليس يعدوه فكرى

وقد سارت هذه القصيدة، واستمر الصاحب لعمل عدّة قصائد كل واحدة خالية من حرف من حروف الهجاء، وبقيت عليه واحدة تكون معرأة من الواو، فأنبى أبو الحسين الحمداني وقال قصيدة ليس فيها واو، ومدح الصاحب في أنثائها . وأولها :

برق ذكرت به الحبايب لما بدا فالدمع ساكب
أمدامعى منهلة هاتيك أم غزر السحاب
نثرت لآلى أدمع لم يفتزعها كف ثاقب^(٢)

وقد أخطأ المسيو ميتس (Mets) حين ظن أن الحمداني الذي صنع هذه القصيدة هو الحمداني صاحب المقامات . كلا، فهذا علي بن الحسين، وذلك بديع الزمان أحمد بن الحسين . والصاحب مسبوق في هذا النوع من الانشاء، سبقه وأصل بن عطاء الذي تجنب حرف الراء في خطبه وأحاديثه مع كثرة دوران ذلك الحرف في الكلام . لكن ابن عطاء كان مضطرا لذلك، إذ كان ألغى، أما الصاحب فيمضى في هذا الفن صنعة وتكلفا ليكاثّر معاصريه من

(١) ص ١٥٢ رسائل . (٢) ص ٢٢٣ ج ٢ يتيبة .

(٣) ترجمة المسيوروش الفرنسية التي تفضلنا إعطانا نسخة منها قبل أن تطبع .

الكتاب والشعراء . ومن المحتمل أن يكون صاحب هو الذى أثار فى أبى العلاء فكرة التزام مالا يلزم، وهو نوع من التكلف أثقل به ديوان اللزوميات .

١٤ — قلت إن صاحب كان شديد الرغبة فى آستبعاد الكتاب والشعراء، وقد نال من ذلك مبتغاه . ولكن المتنبي استعصى عليه وترفع عن مدحه والانتساب اليه . فأسرها صاحب فى نفسه وأخذ يؤلب النقاد والكتاب ضده ويحملهم على مهماجته والنيل من قدره . ويمكن الحكم بان الحملات التى هوجم بها المتنبي وهو حى كان أكثرها بتحريض صاحب والمهلبى، وكلاهما كان يطمع فى انحياز المتنبي اليه . وقد اشترك صاحب بنفسه فى مهاجمة المتنبي فكتب رسالة نقد بها شعره . وهى رسالة يغلب فيها التحامل، ولكنها مع ذلك رسالة قيمة، تدل على فهمه للشعر وبصره بالنقد . ذكر فى مقدمتها أنه كان يذاكر بعض المتأدين فسأله عن المتنبي، فأجاب صاحب : انه بعيد المرمى فى شعره، كثير الإصابة فى نظمه، إلا أنه ربما يأتى بملقعة الغراء، مشفوعة بالكلمة العوراء . فهاج محادثه وانزعج، وأدعى أن شعر المتنبي هو الموت لم يصبى الأقسام، ولم يرض حتى تحداه فقال : ان كان الأمر كما زعمت ولم يجتنب للبالله بالخطبة ما تذكره، لتصفحه العيون، وتسبكه العقول .

يحل عرى الجنى، وإن لم يكن تطلب العثرات من شيتى، ولا تتبع الزلات من طريد . وليس عجيباً أن
ولكن عريض بحر يرضى انى ممن يروى قبل أن يروى، ويخير قبل أن يخبر، فأسمع وأنصت .
فما أوردت فيه إلا قليلاً، ولا ذكرت من عظيم عيوبه إلا يسيراً . وقد بلىنا زمن يكاد المنسم فيه يعلو الغارب، ومئينا بأعيار أغمار اغتروا بمادح الجهال، لا يضرعون لمن حلب الأدب أفوايقه، والعلم أشطره، لا سيما على الشعر فهو فوق الثريا وهم دون الثرى، وقد يوهمون أنهم يعرفون فإذا حكموا رأيت بهائم مرسنة، وانما ما
(١)
محفلة .

١٥ - وقد رأى الصاحب بعد ذلك أن يخبرنا أنه أعدّ للنقد عدته : بفالس الشعراء ، وكأثر الأدباء ، وبأحث الفضلاء ، وعشرين سنة ، وأخذ عن رواة المبرد وكتب عن أصحاب ثعلب عشرين سنة أخرى . وذكر لنا بهذه المناسبة أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه أبو الفضل بن العميد "فانه يتجاوز نقد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات ، ولا يرضى بتهديب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن " ثم مضى في سرد الأحاديث التي وقعت بينه وبين ابن العميد في نقد الشعر ، الى أن قال : "وسمعت أيدى الله يقول : إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ، ويبدأ النسيج ، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذى قصده ، والمعنى الذى اعتمده ، وينظر فى أى الأوزان يكون أحسن استقراراً ، ومع أى القوافي يحصل أجمل أطراد ، فيركب مراراً لا يخشى انقطاعه والتباث عليه " ، فأنبرى (١) :
ونحن نستجيد رأى ابن العميد فى تجاوز نقد الأبيات الى وأولها :
ورجح أن ابن شهيد الأندلسى تأثر بهذا الرأى حين قال : "إن سمع ساكب
فى الكلام ، فإذا جاور النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، السحاب (٢)
كف ثاقب (٣) لصحية " .

١٦ - وليس يهمنا أن نلخص ذلك الكتاب ، فلنكتفِ
في رثاء أم سيف الدولة ليكون نموذجا لبقية المآخذ . قال صاحب
” ولقد مررت على مرثية له في أم سيف الدولة تدل مع فساد الحس ، على سوء أدب
النفوس ، وما ظنك بمن يخاطب ملكا في أمه بقوله :
* رواقُ العز فوقك مسطر *

٥ - قلت : إن أبا عامر بن شهيد كان يحب الحياة حبا شديدا ، وكان يرى العيش كل العيش في معاورة الجمال والصمباء ؛ فلنذكر الآن أنه كان لذلك من أشد الناس إحساسا بكرهه الموت ، وقد بلغ من تفزعه أن شعر معاصروه جميعا بألمه وأمتعاضه وتهالكه على التثبت بأذيال الحياة .

قال ابن بسام : " ولما طال بأبي عامر ألمه ، وتزايد سقمه ، وغلب عليه الفالج الذي عرض له في مستهل ذي القعدة سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، لم يعد له حركة ولا قلب ، وكان يمشي الى حاجته على عصا مرة ، و اعتمادا على انسان مرة ، الى قبل وفاته بعشرين يوما فانه صار حجرا لا يبرح ولا يتقلب ، ولا يحتمل أن يتحرك لعظيم الأوجاع مع ضغط الأنفاس وعدم الصبر حتى هم بقتل نفسه " (١) .

فلتصور قسوة المرض التي تحمل رجالا كابن شهيد على التفكير في الانتحار ، ولنقرأ

هو الموت لم يُصْبي وأنذب نبلها إذا أنا في الضراء أزمعت قتلها
ولم يجتنب للبالله في كل حالة على وأحكاما تيقنت عدلها
يحل عري الجنبني العصا على ضعف ساق أوهن السقم رجلها
وليس عجيبا أن كنت وكربة كسفت ودار كنت في المحل وبلها
ولكن عريض^(٢) بحر يرض بعثته الى خطبة لا ينكر الجمع فضلها
فمن مبلغ الفتيان أن أحامو أخو فتكة تنعاء ما كان شكها
عليكم سلام من فتي عضه الردى فلم ينس عينا ثبَّت فيه نبلها
يبين وكف الموت يخلع نفسه وداخلها حب يهون ثكلها

ولم يفد ابن شهيد أن يظل على عنف المرض ظريف الحس والروح ، فقد حدث أبو بكر المصنفى قال :

(١) الدخيرة ص ١٦٥ ج ١ (٢) الجريض بالجم الريق ، وهي في نسخة الدخيرة بالخاء المهملة .

دخلت يوما على أبي عامر بن شهيد، وقد ابتدأت عليه التي مات منها، فأنس بي وجرى الحديث الى أن سكوت له تجنى بعض إخواني على وفناره عني، فقال : سأسعى لإصلاح ذات البين . فاتفق لقائي لذلك المتجنى مع بعض إخواني وأعزهم عليّ، فلما رآني موليا عن ذلك الصديق أنكر عليّ وسأل عن السبب الموجب . فأخبره وزادا في مشيها حتى لحقاني، وعزم عليّ في تكليم صاحبي، وتعاتبنا عتابا أرق من الهوى، وأشهى من الماء على الظم، حتى جثا دار أبي عامر، فلما رأنا جميعا ضحك وقال : من كان تولى إصلاح ما سررنا بفساده؟ قلنا : قد كان ما كان! فأطرق مايا ثم أنشد :

من لا أسمى ولا أبوح به أصلح بيني وبين من أهوى
أرسلت من كبدي الهوى فدرى كيف تدأوى مواضع البلوى
ولى حقوق في الحب ظاهرة لكن إلفى بعدها دعوى^(١)

وحدث المصنفني أيضا قال : دخلت عليه يوما في تلك العداوة ومعها عيسى بن أبي عامر، وكان أبو عامر قبل ذلك يحب ممازحته فينفاده، حتى أنهما
إخوانه بشعر مسه فيه بطرف لسانه، فقال له ذلك الغلام : ساكب
تثبت في أمرى، ولا تعلم من سرى ما يوجب ذلك، فقال السحاب
القرطيس والصدور . وكان ذلك إثر صلاة العشاء الأولى كف ثاقب^(٢)
فأنشدنا :

ألا بأبي زائر في الغنم بوجه يحلّى سواد الظلم
تكتّم بالليل في ظله وهل يمكن الصبح أن يكتّم
أنى يستجير الينا به كما جاور البان رطب الغنم^(٢)

وقد أخذ ابن شهيد يخاطب بالشعر أحبابه وأصدقاءه خطاب الوداع فارسل الى أبي محمد

ابن حزم هذه الأبيات :

(١) النخبة ص ١٦٢ ج ١ (٢) القصيدة بقية طويلة يجدها التارخ في النخبة ص ١٦٤ ج ١

ولما رأيت العيش ولّى برأسه
تمنيت أنى ساكن فى عباءة
خليلى من ذاق المنية مرة
كأنى وقد حان أرتحالى ولم أفر
فمن مبلغ عنى ابن حزم وكان لى
عليك سلام الله إنى مفارق
فلا تنس تأبىنى اذا ما فقدتنى
وأيقنت أن الموت لاشك لاحقى
بأعلى مهب الريح فى رأس شادق
فقد ذقتها خمسين قولة صادق
قدىما من الدنيا بلمحة بارق
يدا فى ملمأتى وعند مضايقي
وحسبك زادا من حبيب مفارق
وتدكار أيامى وفضل خلائقي^(١)

• — وكان ابن شهيد يشعر أنه أهل لأن يبكى حين يموت، ويقول فى ذلك :

سقى الله فتيانا كأن وجوههم
اذا ذكرونى والثرى فوق أعظمى
يقولون : قد أودى أبو عامر العلى^(٢)
هو الموت لم يصرف بأجراس خاطب
ولم يحتجب للبطش مهجة قادر
يحل عرى الجبار فى دار ملكه
وليس عجيبا أن تدانت منيتى
ولكن عجيب أن بين جوانحى
يمركنى والموت يحفر همتى^(٣)
وجوه مصابيح النجوم الزواهرى
بكوا بعيون كالسحاب المواطر
أقلوا فقدا مات أبناء عامر
بليغ ولم يعطف بأنفاس شاعر
قوى ولا للضعف مهجة صابر
ويهفو بنفس الشارب المتساكر
يصدق فيها أولى أمر آخرى
هوى كشرار الجمرة المتطاير
ويحتاجنى والنفس عند حناجرى

وهذا حقًا عجيب، فان ابن شهيد ظل يتلهف فى أيام علته المهلكة الى محبوب له اسمه عمرو، وكان حبه له مشهورا يعرفه القريب والبعيد، ولنتظر كيف يتوجع وهو يخاطبه خطاب المفارق المشتاق :

(١) انظر جواب ابن حزم على هذه الايات فى ص ١٦٦ ج ١ من الذخيرة . (٢) الخاطب :

الخطيب وهى لفظة قليلة الاستعمال وأذكر أنى رأيتها فى كلام الجاحظ، وهى أكثر. وازنة لكلمة كاتب وكلمة شاعر .

(٣) يحفر : يقطع .

أقر السلام على الأصحاب أجمعهم وخُصَّ عمرًا بأزكى نور تسليم
وقل له يا أعز الناس كلهم شخصًا على وأولاهم بتهكريم
الله جارك من ذى منعة ظفرت منه الليالى "بإلف" غير مظلوم
ما كان حبك إلا صوب غادية طيبًا وحاشا بحبي فيك للوم
إن شاء صرف الردى تقديم أطوعنا فقد رضيت حاك الله تقديمي
عشنا رقيقين فى بر الهوى زمنًا حتى زقا بنوانا طائر الشوم
فشتت نوب الأيام ألفتنا قسرا ولم يغنها طبي وتنجيمي

وحسب القارئ أن يعلم أن آخر شعر قاله ابن شهيد هو هذه الأبيات ، وفيها ودع
إخوانه ومحبوه آخر وداع :

أستودعُ الله إخواني وعشرتهم (١) وكل خرق إلى الغلياء سباق
وفتية كنجوم الغرب نيرهم يهدى وصليهمو يردى باحراق
وكوكبًا لى منهم كان مغربه قلبى ومشرقه ما بين أطواقى
الله يعلم أنى ما أفارقه إلا وفى الصدر منى حرمشتاق
فان أعش فاعل الدهر يجعنا وإن أمت فسيسقيه الردى الساقى
لا ضيع الله إلا من يضيعه ومن تخلق فيه غير أخلاقى !
قد كان بردى إذا ما مسنى كلف لا يشلم الحب آدابى وأعراقى
إنى لأرمقه والموت يضغطني فأقتضى فرجة ترتد أرماقى

ثم أوصى أن يدفن بجانب صديقه أبى الوليد الزجالى ، ويكتب على قبره فى لوح رخام
هذه الكلمة :

"بسم الله الرحمن الرحيم . قل هو نبأ عظيم أتم عنه معرضون . هذا قبر أحمد بن عبد الملك
ابن شهيد المذنب ، مات وهو يشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده

(١) الخرق بالكسر : السخى أو الظريف فى سخاوة ، والفتى الحسن الكريم الخليفة .

ورسوله ، وأن الجنة حق ، والدار حق ، والبعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور . ومات في شهر كذا من عام كذا .

ويكتب تحت هذا النثر هذه الأبيات وهو يخاطب بها صديقه المدفون :

يا صاحبي قم فقد أطلنا	أنحن طول المدى هجود!
فقال لي : لن نقوم منها	ما دام من فوقنا الصعيد
تذكر كم ليلة نعمنا	في ظلها والزمان عيـد
وكم سرور همي علينا	سحابه نرة تجود
كل كائن لم يكن تقضى	وشؤمه حاضر عيـد
حصـله كاتب حفيظ	وضمه صادق شهيد
يا ويلنا إن تنكبنا	رحمة من بطشه سيد
يارب عفوا فأنت مولى	قصر في شكره العبيد

قال ابن بسام : وكان أبو عامر كثيرا ما يخشى صعوبة الموت ، وشدة السوق ، فيسر الله عليه ، وما زال يتكلم ويرغب الى الله أن يرفق به ، ويكثر من ذكره ، وقد أيقن بفراق الدنيا ، الى أن ذهبت نفسه رحمه الله يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى سنة ست وعشرين وأربعمائة . ولم يشهد على قبر أحد ما شهد على قبره من البكاء والعيول .

١٣ - نثر ابن شهيد

١ - اتفق من ترجحوا لابن شهيد على وصفه بالبراعة في الانشاء، فقال ابن حيان :
 " كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام . وإذا تأملته ولسنه ، وكيف يجر
 في البلاغة رسنه ، قلت عبد الحميد في أوانه ، والجاحظ في إبانته ، والعجب منه أنه كان يدعو
 قريحته لما شاء نظمته ونثره في بديته ورويته ، فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناء
 لكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ في الأدب ، فانه لم يوجد له - رحمه الله - فيما بلغني
 بعد موته - كتاب يستعين به على صناعته ، ويشحذ من طبعه إلا ما لا قدر له ، فزاد ذلك
 في عجائبه ، وإعجاز بدائع ، وكان في تقيق الهزل والنادرة الحاذة أقدر منه على سائر ذلك .
 وشعره عند أهل التقد تصرف فيه تصرف المطبوعين فلم يقصر عن غايتهم . وله رسائل كثيرة
 في فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال ، قصار وطوال ، برز فيها شأوه ، وأبقاها
 في الناس خالدة . وكان في سرعة البديهة وحضور الجواب وحدته مع رقة حواشي كلامه ،
 وسهولة ألفاظه ، وبراعة أوصافه ، ونزاحة شمائله وأخلاقه ، آية من آيات خالقه ^(١) .

وقال للتحالي : " فنثره في غاية الملاحه ، وشعره في غاية الفصاحة ^(٢) " .

وقال ابن بسام : " وقد أخرجت أنا من أشعاره الشاردة ، ورسائله الباقية الخالدة ،
 ونوادره القصار والطوال ، وتعريضاته السائرة الأمثال ، ما يحل له الوقور حباه ، ويمن معه
 الكبير إلى صباه ^(٣) " .

وقال الخطاط وهو يهاجمه : " الإسهاب كلفة ، والايجاز حكمة ، وخواطر الألباب سهام
 يصاب بها أغراض الكلام . وأخونا أبو عامر يسهب نثرا ، ويطيل نظماً ، شاعخا بأنفه ،

ثانيا من عطفته، مخيلا أنه أحرز سبق في الآداب، وأوتى فصل الخطاب، فهو يستصغر
أساتيد الأدباء، ويستجهل شيوخ العلماء.

وابن اللبون اذا ما لُزَّ في قَرَنٍ لم يستطع صولة البزل القناعيس^(١)

وهذه الآراء التي نقلناها عن ابن حيان والثعالبي والحناط تمثل رأى جمهور الناقدين
في ابن شهيد، وتدلنا على أنه شغل الناس حيناً من الزمان. ولو أنتقلنا الى رأيه في نفسه لرأيناه
مفتونا أشع الفتون بما اعتقده من إجادة النظم والشير، والتفوق البالغ على كتاب المشرق
والمغرب. وقد آن أن يوزن نثره بمقيار النقد ليعرف ما فيه من الزائف والصحيح.

٢ — سئل أبو العلاء المعرى رأيه في شعر ابن هاني، الأندلسي فأجاب: "رعى تطحن
قرونا"، وهو جواب حذق وذكاء، فضلا عما فيه من روعة التصوير. وأخشى أن
يكون الأمر كذلك في نثر ابن شهيد، فهو في الأكثر جمجمة وقعة وقفلة في غير نفع
ولا غناء. ويسوءنا والله أن يكون ذلك مانراه في نثر ذلك الرجل الذي نعتقد فيه دقة الفهم،
ورقة الطبع، وسلامة الذوق، ولكن ما الحيلة وقد قلبنا نثره على وجوهه، وراجعنا ما بقى منه
أكثر من عشرين مرة، فلم نزد إلا اقتناعا بأنه كان في إنشائه من المتكفين.

٣ — وربما كان من أسباب الالتواء الذي نسمده في نثر ابن شهيد غرام الرجل —
كان — بمقارنة كتاب المشرق، ومواجهة كتاب المغرب بألوان من الفن كان لها في زمانه
بريق يعشى العيون. وكان النثر في ذلك العصر قد أخذ ينافس الشعر منافسة جديدة، وأستطاع
ابن شهيد أن يناضل معاصريه برسائل محبرة موشاة، تؤدى في عالم النثر ما كانت تؤدى
النقائض في عالم الشعر، فوقع له مع الافيلسلى والحناط وغيرهما منافرات كان لها في مجالس
المغرب دوى شديد. هذا مع أن الرجل كان من يقول الشعراء، وكان يستطيع أن يقارع
خصومه بالشعر، وأن يقيم من المعارك الشعرية ما يعيد به عهد الأخطل والفرزدق وجرير

(١) الذخيرة ص ٢٣٢ — والبزل جمع بازل وهو العير يلعب سبع سنين، والنفاعيس جمع فنعاس بالكسر وهو العظام

من الإبل، ومن الرجال الشديد المنبع.

من شعراء الهجاء ، ولكنه أراد أن يحى في بلاده معارك نثرية كالمعارك التي كانت تقع في الشرق بين أمثال الخوارزمي وبديع الزمان . وفي هذا إغناء للنثر وسعى إلى إمداده بمختلف المعاني والأغراض ، ولكنه أخذ بالثر إلى موضوعات لا يصلح لها إلا قليلا ، فإن الهجاء كما تسيغه الطبيعة العربية لا يؤدي إلا بالبيت السائر أو الكلمة الشرود .

٤ — ومع ما في نثر ابن شهيد من القلق والغموض والاضطراب فإنه يغرى القارئ بالبحث عما فيه من نتاج الفكر والذكاء ، وهو يشبه بعض التلال التي يوقن المتطلع بأن فيها كنوزا ، فلا يزال يقلب أكداس الخزف والتراب حتى يصل إلى بعض ما ينشد من الذهب الدفين .

ومن أمثلة ذلك أنه اندفع مرة يشتم نخاعة قرطبة ، ويقرع أبا القاسم الافليلي فلم يقل شيئا ذا بال ، ولكنه ختم رسالته بهذه الكلمات الخبيثة في وصف الافليلي :

” ليست مشيته مشية أديب ، ولا وجهه وجه أريب ، ولا جلسته جلسة عالم ، ولا أنفه أنف كاتب ، ولا نغمته نغمة شاعر “^(١) .

٥ — غير أن ابن شهيد لا يظل في جميع أحواله أسير القلق والغموض ، فإن له أحيانا يفصح فيها ويبين ، كقوله يخاطب أحد الأمراء :

” من عز بز ، ومن ريش طار ، ومن سارت به الأيام سار ، جدّ بجا ، وحسام نبأ ، وآمال تفرقت أيدي سبا . كلمات أنثرها عليك ، وآمال أصرفها إليك . كما قبل أن ترمى بنا النوى مراميهما ، وتلقى علينا الخطوب مراسيهما ، وتمخضنا الأيام مخضا ، وتركض بنا الليالي ركضا ، تربى صحبة ، وحليف صسوبة ، قد تخلىنا عن الأنساب ، وانتسبنا إلى الآداب ، والدار إذذاك صقب ، والملتقى كشب ، والزمان غمر ، وحواصلنا صفر ، نترنم ترنم الحمام ، على زرق الحمام “^(٢) ثم ألفت الأيام علينا بكل كل فنشترنا بكل فج عميق ، وأفق سحيق ، ونفحت

(١) الذخيرة ص ١٢٣ ج ١ (٢) الحمام : المياه الكثيرة ، والمفرد جم ، وهو في الأصل الكثير

عليك رياح السد ، وجادتك المنى من تهامة ونجد ، وامتنطيت ظهر الجوزاء ، وافترشت لبدّة العواء^(١) ، وكلما دعيت للنزال والعراك ، تترست بالثريا وطعنت بالسّماك ، فزحمت منكب الدهر ، وقضيت أربك منه على قصر ، فكان أول حيصتك عن الوفاء ، وحيدتك عن رعاية قديم الإخاء ، أن تركت المخاطبة ، وأضربت عن المكتبة ، خشية أن يكون كلنا عليك ، ورغبنا فئما لديك ، وهيهات ! يابى ذلك كرم محض ، وهمة علياء نالها خفض ، ثم قلت : الحمل على حسن الظن أجمل ، والقضاء بأكرم العهد أقبل ، قد يشغل بالرؤساء ، ويجاذب العطاء ، وعينه مع ذلك راعية ، وأذنه راعية ، وإنما الوصل بالفؤاد ، لا بالمداد ، والالتقاء بالحلوم ، لا بالجلوس ، فانطويت على ود ، وثبتت على صحة عهد ... الخ^(٢) .

وهذا نثر مقبول ، لا يؤخذ عليه إلا شيء من التوسع قليل . وأوضح منه وأفصح قوله :
يصف إحدى المنافرات :

” لما قدم زهير الصقلبي فتي بنى عامر ، حضرة قرطبة من المرية ، وجهه أبو جعفر عباس وزيره عن لمة من أصحابنا منهم ابن برد وأبو بكر المرواني وابن الحناط والطبني ، فسألهم عنى وقال : وجهوا عنه ، فوافاني رسوله مع دابة له بسرج محلى ثقيل فسرت إليه ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب ، فتحرك المجلس لدخولى وقاموا جميعا إلى ، حتى طلع أبو جعفر علينا ، ساجدا لذيل لم ير أحد سحبه قبله ، وهو يترنم ، فسلمت عليه سلام من يعرف حق الرجال ، فرد رد الطغيان ، فعلمت أن في أنفه نعة لا تخرج إلا بسعوط الكلام ، ولا تراض إلا بمستحکم النظام ، فرأيت أصحابي يصيخون إلى ترنمه ، فسألهم عن ذلك فقال الحناط — وكان كثير الإنحاء على ، جالبا في المحافل ما يسوء إلى — : الوزير حضره قسيم من الشعراء وهو يسألنا عن إجازته ، فعلمت أنى المراد ، فأنشده ، وهو :

مرض الجفون ولثغة في المنطقي

فأخذت القلم وكتبت بديها :

مرض الجفون ولتغة في المنطق شيطان جرا عشق من لم يعشق
من لى بالثغ لا يزال حديثه يذكي على الأكداد جمرة محرق
ينبي فينبو في الكلام لسانه فكأنه من نحر عينيه سقى
لا ينعش الألفاظ من عثراتها ولو أنها كتبت له في مهورق

ثم قتت عنهم فلم ألبث أن وردوا علىّ، وأخبروني أن أبا جعفر لم يرض بما جئنا به من
البيده : وسالوني أن أحمل مكايى الكلام على اختباره، وذكروا أن إدريس هجاه وأخفش :
فلم أستحسن الإخفاش، فقلت فيه معرضا إذ التعريض من محاسن القول^(١).

٦ — وهناك رسائل رضى عنها ابن شهيد، وحدثنا في "التوابع والزوابع" أنه قرأها
على شعراء الجن فاستجادوها، وهى رسالته في صفة البرد والنار والحطب، ورسالته في الحلواء،
وكلماته في وصف جارية، ونعت الماء والتعلب والبرغوث والبعوض. وهذه الرسائل
في جملتها تدل على غنى في اللغة وبراعة في الصنعة، ولكنها خالية من الروح. ويظهر أن الجن
الذين استجادوها لم يكونوا من أصحاب الأذواق في نقد الكلام، مع أنهم كانوا من أقطار
مختلفة، وصاحبوا الأفاضل من شعراء المجاز والشام والعراق !

وأجود ما وقع له في تلك الرسائل "المستجادة" قوله في وصف ماء صاف :
"كأنه عصير صباح، أو ذوب قمر ليّاح"

وقوله في وصف البعوض :

"تنقض العزائم وهى منقوضة، وتعجز القوى وهى بعوضة، ليرينا الله عجائب قدرته،
وضعفتنا عن أضعف خليفته"^(٢).

ورسالته في وصف الحلواء قالها تحقيرا لفقيهه نهم لقيه في المسجد الجامع، فلما طالعوا
الحلواء « اضطرب به الألم، وأستخفه الشره، فدار في ثيابه، وأسأل من لعبه، وأزور جانبه،

(١) ما سماه ابن شهيد تعريضا حوايضا لإخفاش لم نر روايته لأننا لانسئجز رواية الهجاء القبيح الذى يخرج

الأدب والدوق، وثبة هذا الحديث في ص ١٥٤ من الذخيرة ح ١ (٢) اليتيمة ص ٣٩٢ ج ١

وخفق شاربته « ثم أخذ يدور حول صنوف الحلوى ويصفها واحدا واحدا ، فالفالودج «مجاورة الزناير خالطها لباب الحبة، بغاءت أطيب من ريق الأجابة» والخبيص «جليد سماء الرحمة، تمخضت به فأبرزت منه زبد النعمة، تجرحه اللحظة، وتدميه اللقطة»، ثم يقول ابن شهيد بعد كلام : «فأمرت الغلام بابتياح أرتال تجمع أنواعها التي أنطقته ، وتحتوى على ضروبها التي صرعته ، بغاء بها فوضعها بين يديه ، فلما عاينها انحنى عليها بلبانه ، وألقى عليها بجرانه ، وجعل يركل برجليه ، ويحاحش بفخذه ، مانعا عنها ومدافعا ، فصحت به لا عليك حكما ، بفعل يقطع ويبلغ ، ويوجرفاه ويدفع ، وعيناه تبصان ، كأنهما جمرتان ، وقد برزتا عن وجهه كأنهما خصيتان . وأنا أقول على رسلك يا فلان ! البطنة تذهب الفطنة ! وهو يقول : أكلها دائم وظلها ، حتى التقم جماهرها ، وألحق أولها بآخرها ، فهبت منه ريح عقيم ، قرن إقبالها بالعذاب الأليم ، نثرنا شذر مذر ، وفرقتنا في كل شعب شجر بغر ، فالتحننا منه الظربان ، وصدق فيه الخبر العيان ^(١) » .

وعندى أن ابن شهيد في رسالة الحلواء عارض بديع الزمان في المقامة البغدادية ، والنكتة في الرسالتين متشابهة ، فهي عند ابن شهيد سخرية من فقيه أكل ، وعند بديع الزمان استهزاء بفلاح منهموم ، ولكن بديع الزمان كان أكثر إصابة لغرضه من ابن شهيد ، ولننظر كيف يقول وقد استدرج سواديا بالكرخ ^(٢) :

«فقلت : فهلم الى البيت نصب غداء ، أو الى السوق تشتري شواء ، والسوق أقرب ، وطعامه أطيب ، فاستغزته حمة القرم ، وعطافته عطفة النهم ، وطمع ، ولم يعلم أنه وقع ، ثم أتيت شواء يتقاطر شواؤه عرقا ، ويتسائل جودابه عرقا ^(٣) ، فقلت : أبرز لأبي زيد من هذا الشواء ، ثم زن له من تلك الحلواء ، وآختر من تلك الأطباق ، ونضد عليها أوراق الرقاق ،

(١) وردت رسالة الحلواء في الذخيرة ص ١٣٦ و ١٣٧ ح ١ وفي الياسة ص ٣٩٢ و ٣٩٣ ج ١ ، وفي النسختين اختلاف شديد ، وفيها كذلك كثير من التحريف ، والعبارات التي احتسبها مؤودة مما صح لدينا نظمها على اختلاف النسختين . (٢) الكرخ محلة كانت في الجانب العربي من بغداد . (٣) الجوداب : خبز يوضع

في النور معه طائر أو لحم .

وشيئا من ماء السماء؛ لياكله أبو زيد حينئذ؛ فألقى الشواء بساطوره، على زبدة تنوره،
 بفعلها كالكحل سخقا، وكالطين دقا، ثم جاس وجلس، ولا نبس ولا نبست، حتى أستوفياه
 وقلت لصاحب الحلواء: زن لأبي زيد من اللوزينج رطلين، فانه أجرى في الخلق، وأسرى
 في العروق، وليكن ليلي العمر، يومئ النشر، رقيق القشر، كثيف الحشو، لؤلؤي الدهن،
 كوكبي اللون، يذوب كالصنع، قبل المضغ، لياكله أبو زيد حينئذ. ثم قعد وقعدت،
 وجردت وجردت، وأستوفياه. ثم قلت: يا أبا زيد! ما أحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج،
 ليقمع هذه الصارة، ويثاق هذه اللقم الحارة! إجلس، أبا زيد، حتى آتيتك بسقاء، يحمينا
 بشربة من ماء. ثم خرجت، وجلست بحيث أراه ولا يراني، أنظر ما يصنع به، فلما أبطأت
 عليه قام السوادى الى حمارة، فاعتلق الشواء بإزاره، وقال: أين ثمن ما أكلت؟ فقال:
 ما أكلته إلا ضيفا. فقال الشواء: هاك وآك، متى دعوناك؟ زن يا أبا القحبة عشرين،
 وإلا أكلت ثلاثا وتسعين! بفعل السوادى يبكى ويسح دموعه بأردائه، ويحل عقده
 بأسنانه، ويقول: كم قلت لذلك القريد، أنا أبو عبيد، وهو يقول: أنت أبو زيد! “.

وإنما افترضنا ان ابن شهيد عارض بديع الزمان وحاكاه، لأنه كان مشغوبا بأدبه
 ومعنيا بمعارضته، فقد حدثنا في “التوايح والزوايح” أنه قابل بأرض الخن (زبدة الحقب)
 صاحب بديع الزمان، وجرت بينهما مصالوة انتصر فيها ابن شهيد. وهذا يدل على أن
 رسائل بديع الزمان كانت وصلت كاملة الى الأندلس، وفعلت فعلها في أنفس الأدباء هناك،
 وأن ابن شهيد كان بها من المعجبين.

٧ — أما وصف الجارية الذي رضى عنه ابن شهيد، وقدمه كذلك الى شعراء الخن
 فاستجادوه، فهو رسالة فيها فقرات تم عن قلب غزل ونفس طروب، وفيها كذلك كلمات
 تليح بمغامر الفتك والمجون، وكانت جاريته “أخت نعمة، وربة نعمة، كأن شعرها على

(١) الساق: حب أحمر صغير شديد الحموضة يشبه الرمان.

(٢) الصارة: العطش.

(٣) يثاق: يسكن.

غمرتها الغراء، غراب يسفد حمامة بيضاء... تكلمك بالخطايا، ونأسوك بالفاظها، تقابلك من خدّها بوردة، ومن عينها بمرجسة، كأنما نغرها من جوهر، وشفتها خيط حرير أحمر، تقبل عليك بقضيب بان، ثمرته رمانتان، وتنقل عليك بكفل مائج، كأنه كتيب عاج... المنظر منظر غلام، والمخبر مخبر فتاة، إن علوتها تدفعت اليك، أو عاتك تداركت عليك، وإن أعطشتك فراشها سقتك من شراب، إن شئت قلت نعمة أو رضاب، أو أجاعك عرا^(١)كها أطعمتك من لسان، يصل اليك وصول الإيمان^(١)..

٨ — ورسالته عن النار والخطب تمثل فزع أهل الأندلس من البرد، ولكنها، كأكثر ما كتب، مثقلة بالصنعة، خالية من الروح. وهى رسالة مهداة الى صديق نفحه بأجمال من الخطب الجزل — والخطب مما يهدى فى تلك البلاد لما يعانى أهلها من قسوة الشتاء — ولتنظر كيف يصور اصطدام النار بالوقود :

”حبستنا اليوم خيل البرد مغيرة... فجعلت مجئى خطبا دل على نفسه، وتشظى من يسه، فسلطت عليه صاحب الشرر، ورميته منها بنات الحديد والحجر، فواقعه قليلا، وعاركة طويلا، فكان لها عجيح، وله من حرها ضجيج، ثم خز لها صريعا، وأستولت عليه صعبا منيعا، فبددت شمله وألفت شملها، وأستحالت حية لا نستلذ قتلها، ترمى باللوان، وتهتد بلسان، فلذعت البرد لذعة، ونكرته على فؤاده نكرة، خر لها على جبينه، ومات بها من حينه“^(٢).

٩ — وبعد فان نثر ابن شهيد — على ما فيه من مأخذ وعيوب — دليل على أن الرجل كان يتناول اللغة بعزائم الفحول، وليس يعيبه أن نراه نحن أقل من شهرته، فانا نحكم على أدبه بأذواق تختلف عن أذواق معاصيره أتمد الاختلاف. والشعر الفنى كالشعر، له دقائق قلما يتفق فى تذوقها الناقدون. وكان للرجل فى حياته نجاح صروف، فقد وصل نثره وشعره الى الشرق على عسر الوصول، وتداوله المؤلفون، وكان لا يزال من الأحياء؛ وفى هذا برهان على أن الرجل أمد عصره بروحه وأستولى بقوة على عرش البيان.

ولا ننس أن نثر ابن شهيد لم يصل إلينا منه إلا شيء قليل ، ولم يدون منه إلا الجانب البراق ، الذي طرب له كتاب الصنعة في المشرق والمغرب ؛ وللفن البراق أعمار قد تقصر وقد تطول . ولو وصلت إلينا جملة صالحة من نثره الذي جرى فيه على سليقته وفطرته ، وأنحاز فيه إلى فيض عقله وروحه ، لرجونا أن يكون لنا فيه رأى غير هذا الرأى ، وخاصة إذا لاحظنا أن رسائله في صناعة النقد والبيان تدل على أنه كان من أصفى الناس ديباجة ، وأسدهم رأيا ، وأصدقهم فراسة ، إذا مضى يشرح مزلق الأفكار ومزلات العقول .

ولا ننس أيضا أن ابن شهيد كان يتمتع من قلب فكره ، ولم تكن له مراجع للثقافة الأدبية ، إلا ما لا قدر له من الكتب كما حدث ابن حيان ، وذلك كان في عصر مضطرب أشنع اضطراب ، يقاسى شعراؤه وكتابه ومتأدبوه أهوالا من الفتن قل أن يصفو معها فكر أو ينضج بيان .

فإن حمد إذن ما أسداه ابن شهيد ، فإن جهد المقل غير قليل ، ولنذكر أننا ننقد وننقض ، في سلامة وعافية لم يحلم بهما أولئك الأسلاف الذين نازلوا الأقدار ، ورفعوا أعلامهم بين أعم الصليب فوق هامات الأسود .

فعلى ذكراهم تحية وسلام !

١٤ - أبو الفضل الميكالى

١ - أسرة الميكالى أسرة قديمة العهد بالمجد فى المدينة الإسلامية، وكان لهذه الأسرة كرامة وسلطان فى القرن الثالث والرابع والخامس . فقد مدحهم البحترى وخدمهم ابن دريد، وتنفياً ظالمهم أبو بكر الخوارزمى ؛ وبديع الزمان الهمذانى، وغيرهم من أعيان الكتاب والشعراء .

وأشهر أعلام هذه الأسرة فى الأدب الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى المتوفى سنة ٤٣٦ . وكانت له آثار كثيرة لم يبق منها إلا شذرات متفرقة فى يتيمة الدهر وزهر الاداب وثمار القلوب . وهو ياترم السجع والأزدواج فى رشاقة وصدوبة وآساق . وفيه يقول الثعالبي فى مقدمة فقه اللغة :

”ومن أراد أن يسمع سر النظم، وسحر النثر، ورقية الدهر، ويرى صوب العقل، وذوب الظرف، ونتيجة الفضل، فليستنشده ما أسفر عنه طبع مجده، وأثمره على فكره، من ملح تمتزج بأجزاء النفوس لنفاستها، وتشرب القلوب لسلاستها، ... وآيم الله ما من يوم أسعفى فيه الزمان بمواجهة وجهه، وأسعدنى بالآفتباس من آوره، والاعتراف من بحره، فشاهدت ثمار المجد والسؤدد تنثر من شمائله، ورأيت فضائل أفراد الدهر عيالا على فضائله، وقرأت نسخة الكرم والفضل من ألاحظه، وآتتهبت فرائد القوائد من ألاحظه، إلا تذكرت ما أنشدنيه أدام الله تأييده لابن الرومى :

لولا عجائب صنع الله ما نبتت تلك الفضائل فى لحم ولا عصب

وما أنس لا أنس أيامى عنده بفيروز أباد، سقاها الله ما يحكى أخلاق صاحبها من سبيل القطر ! فانها كانت بطلعتة البسدرية، وعشرته العطرية، وألفاظه اللؤلؤية، ومحاسن أقواله وأفعاله التى يعيا بها الواصفون، أنموذجات من البحنة التى وعد المتقون، فاذا تذكرتها فى تلك المرباع التى هى مراتع النواظر، والمصانع التى هى مطالع العيش الناضر، والبساتين التى إذا

أخذت بدائع زخارفها، ونشرت طرائف مطارفها، طوى لها الديباج الخسرواني، ونفى معها
الوشى الصنعاني، فلم تشبه إلا بشيمه، وآثار قامه، وأزهار كلمه، تذكرت سحرا وسما، وخيرا
عميا، وأرتياحا مقيا، ورؤحا وريحانا ونعيا“ .

٢ — وأظهر الفنون التي كان يجيدها الميكالي هو فن الإخوانيات، ورسائله إلى
أصدقائه مشربة بأنفاس الحنين، حتى لتحسبها رسائل عاشق لا رسائل صديق ...

وإليك قوله من رسالة :

”أيام ظل العيش رطب، وكف الهوى رحب، وشرب الصبا عذب، وما لشرق
الأس غرب“^(١) .

وقوله من رسالة ثانية :

”إنما أشكو اليك زمانا سلب ضعف ما وهب، وبخع بأكثر مما متع، وأوحش فوق
ما أنس، وعنف في نزع ما ألبس، فإنه لم يذقنا حلاوة الاجتماع، حتى جرعنا مرارة الفراق،
ولم يمتعنا بأنس التلاق، حتى غادرنا رهن التلهف والأشتياق“^(٢) .

وليتأمل القارئ رقة الحنين في قوله من كلمة ثالثة :

”أنا أسأل الله تعالى أن يرد عليّ برد العيش الذي فقدته، وفسحة السرور الذي عهدته،
فيقصر من الفراق أمده، ويعلو للقاء حكمه ويده، ويرجع ذلك العيش الذي رقت غائله،
وصفت من الأفذاء مناهله، فلم أهدأ بعده بأنس مقيم، ولا تعلقت يوما إلا بعيش بهيم .

فان ترجع الأيام بعد الذي مضى بذى الأثل صيفامثل صيفي ومربعي
شددت بأعناق النوى بعد هذه مرائر إن جاذبتها لم تقطع

وما على الله بعز أن يقرب بعيدا، ويهب طالعا سعيدا، ويسهل عسيرا، ويفك من رق
الأشتياق أسيرا“^(٣) .

ومع أن صلته بأبي منصور الثعالبي كانت صلة الأمير المفضل بالإصاحب الأمين فانا نجد
يكتب إليه بأجمل ما يوحى الرفق والحنان فيقول :

”كتابي، وأنا أشكو إليك شوقا لو عاجله الأعرجي لما صبا إلى رمل عاج، أو كابد
الحلى لانتني على كبد ذات حرق ولواعج، وأذم زمانا يفرق فلا يحسن جمعا، ويحرق فلا ينوي
رقعا، ويوجع القلب بتفريق شمل ذوى الوداد، ثم يخجل عليهم بما يشفى الصدور والأجساد،
قاسى القلب فلا يلين لاستعطاف، جائر الحكم فلا يميل إلى إنصاف، وكم أستعدي على صروفه
وأستنجد، وأتأظى غيظا عليه وأنشد :

متى وعسى يثنى الزمان عنائه بعثرة حال والزمان عثور
فتدرك آمال وتقضى مآرب وتحدث من بعد الأمور أمور

وكلا! فما على الدهر عتب، ولا له على أهله ذنب، وإنما هي أقدار تجري كما شاء مجريها،
وتنفذ كالسهم إلى مراميها، فهي تدور بالمكروه والمحبوب، على الحكم المقدور المكتوب،
لا على شهوات النفوس، وإرادات القلوب، وإذا أراد الله تعالى أذن في تقريب البعيد التازح،
وتسهيل الصعب الجاح، فيعود الانس للقاء الإخوان كأنهم ما لم يزل معهودا، ويحدد للذاكرة
والمؤانسة رسوما وعهودا، إنه الملقى به والقادر عليه“ .^(١)

٣ — وقد كان الميكالى يعيش أطيب العيش بين نعمة الجاه والمال، ولكنه كان
يشكو زمانه على غير ما كان يشكو البائسون من الكتاب والشعراء، فنراه يقول :

”يا بى الدهر إلا ولوعا بشمل وصل يشرده، ونظام أنس يبده، ويخلب ظلم يحدده .
ولو أنبسطت فيه يدى لكسرت جناحه، وخفضت جماعه، ولكنه الحية الصماء لا تستجيب
لراقى، والداء العضال لا يشفى منه طيب ولا واقى“ .^(٢)

ولننظر قوله يتوجع لرفيق عليل :

”لو أستطعت خلعت عليه سلامتى سر بالا، وأعرته من جسمى صحة وإقبالا، فلست أتهنا
بالعافية مع سقمه، ولا أتمتع بنضارة عيشى مع شحوب جسمه“ .^(٣)

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٨٩ (٢) ص ٢٥٥ ج ٤ يقيمة . (٣) ص ٢٥٦ ج ٤ يقيمة .

ولسنا نعرف إلى من كتب العبارات الآتية :

”أنا فى مقاساة حرّ الشوق إليك كما اعتاد محموم بخير صائب^(١) ، وتذكر الاجتماع معك كما احتز من صرف المدامة شارب ، وفى تكلف الصبر عنك كطالب جدوى خلة لا تواصل وفى القلق لفراقك كطائر جوّ أعلقته الحبال . كتبت هذه الأحرف وأنا أودّ أن مدادها سواد طرفى ، وبياضها جلدة بين عيني وأتقى ، وحاملها دون سائر الناس كفى . لولا التعلل باللقاء لتصدّعت أكبّاد وقلوبى ، وكانت بينى وبين البوى شئون وخطوب . أنا فى مفارقتك كبنت الماء نضب عنها الغدير ، ونبت الأرض أخطاه النوء المطير . لا تفارق نفسى فىك أشواقها ، حتى تمارق الحمام أطواقها “ .

٤ — وأهتمام الميكالى بهذا النوع من الكتابة غرس فيه الحرص على وصف ما يرد عليه من رسائل إخوانه ، فكان قلمه من أفصح الأقلام فى وصف الكتب يتهادها الأصدقاء ، ومن أمثلة ذلك قوله :

”وصل كتاب مولاي وسيدى أبدع الكتب هوادى وأعجازا ، وأبرعها بلاغة وإعجازا ، فحسبت ألفاظه در السحاب ، أو أصفى قطرا وديمة ، ومعانيه در السحاب ، بل أوفى قدرا وقيمة ، وتاملت الأبيات فوجدتها فائقة النظم والرصف ، عبقة النسيم والعرف ، فائزة بقداح الحسن والظرف ، مالكة لزمام القلب والطرف ؛ ولا غرو أن يصدر مثلها عن ذلك الخاطر وهو هدف الفقر والنوادر ، وصدف الدرر والجواهر . والله يتمتع بما منحه من هذه الغرر والأوضح ، كما أطلق فيها ألسنة الشاء والامتداح “ .

٥ — ويجانب هذه البراعة كان الميكالى كريم الأخلاق ، وما أطف ما يقول الثعالبي فيه : ”وكثيرا ما أحكى للإخوان أنى استغرقت أربعة أشهر بحضرته ، وتوفرت على خدمته ، ولازمت فى أكثر أوقاتي على مجلسه ، وتعطرت بغبار موكبه ، فبالله يمينا كنت غنيا عنها لو خفت إثمها أنى ما أنكرت طرفا من أخلاقه ، ولم أشاهد إلا مجدا وشرفا من أحواله ، وما رأيته آغتاب غائبا ، أو سب حاضرا ، أو حرم سائلا ، أو خيب آملا ، أو أطاع سلطان

الغضب في الحضر، أو تصلى بنار الضجر في السفر، أو بطش بطش المتجير، ولا وجدت المأثر إلا ما يتعطاه، والمأثم إلا ما يتخطاه” .

٦ - ونعود فنذكر أن صلة الميكالى بأصدقائه وأآله آتتهب أجزاء نفسه بحيث يمكن رجع أدبه الى المعانى النفسية التى توحى بها الصداقة والألفة والحب ، فأدبه مقسم بين كتاب شوق، أو رسالة عتب، أو كلمة توجع، أو خطاب اقتضاء، أو مألكة تهنته، أو نعيقة ثناء .
والظاهر من كلام عمر المطوعى فى كتابه عن الشعراء أن الميكالى كان بليغ الأثر فى أنفس معاصريه، وأن فريقا منهم كان يؤلف الكتب بارشاده وفى ضوء فكره . وهذا شبيه بالحق : لأن الميكالى فيما يظهر من شعره ونثره كان قوة عظيمة من القوى الأدبية ، ولكن ينبغى الاحتياط فى فهم هذه الفكرة : فقد كان الميكالى غنيا ، وكان يته ملجأ الشعراء والكتاب والمؤلفين، فلا مفر من أن يحسب لمجاملته حساب ، وأن يقدر الناقد أنه قد ينسب إليه ما ليس له لمكانه من العلم والغنى والجاه .

٧ - صنعة الميكالى فى شعره أظهر منها فى نثره ، فهو حين ينثر سهل الخليفة، فإذا نظم تكلف، وهو يؤثر الجناس على سائر أنواع البديع، وإلى القارئ قوله :

شافه كفى رشأ بقبلة ما شفت
فقلت إذ قبلها ياليت كنى شفتى

وقوله :

من لى بشمل الأئس أجمعه بشادن حلّ فيه الأئس أجمعه
ما زال يعرض عن وصلى فأخذه فالآن لى لأن بند الصمد أخذه^(١)

وهذا كما نرى تكلف ثقيل ممجوج .

وقد يترك الصنعة ويمضى على سجيته فيجيد، من ذلك قوله :

عمر الفتى ذِكره لا طول مدته وموته خزيه لا يومه الدانى

(١) الأخدع : شعبة من الوريد ، والجمع أخداع .

وقوله :

كم والد يحريم أولادهُ وخيره يحظى به الأبعدُ
كالعين لا تبصر ما حولها ولحظها يدرك ما يبعد

وجملة القول أن الجيد من ثمره أكثر من جيد شعره ، وهو فى كلا الفنين صناع اليد
ذكى الجان .

٨ - وسلطانه على معاصريه له قيته على أى حال ، فليس الغنى ولا العلم مما يكفى
لأن يكون للرجل حاشية وأنصار أوفياء . وإنما يرجع ذلك الى رقة القلب وقوة العقل وخفة
الروح ، وهى المقومات الأساسية لحياة المفكر والأديب . وكذلك أستطاع الميكالى أن يستبعد
طائفة من أحرار القلوب والعقول بما كان له من صفاء الذهن ، وقوة القريحة ، وطهارة
الوجدان .

١٥ - بديع الزمان

١ - ولد أبو الفضل أحمد بن الحسين في همدان نحو سنة ٣٥٨، درس اللغة والأدب وتعمق فيهما تعمقا ظهر أثره في ثمره وشعره . وكان في صباه جميلا فتانا خفيف الروح، وكان لجماله وحلاوة لسانه أثر كبير في النصر الذي أحرزه في حياته الأدبية ، فقد أنتقل الى نيسابور سنة ٣٨٢، وكانت يومئذ موطننا لأبي بكر الخوارزمي أعلم أهل عصره باللغة والأدب، وأقربهم مكانة من الملوك والأمراء . فبدأ لبديع الزمان أن ينظره علنا عند بعض الأمراء، فقبل الخوارزمي بعد تردد، ثم دارت المناقشة يوما أو بعض يوم في موضوعات أدبية مختلفة فأستطاع بديع الزمان بسرعة بديته ونضارة صباه أن يجذب اليه أنظار الحاضرين ، فغلب الخوارزمي وظهرت عليه دلائل الضعف ، وسرى في الأقطار الاسلامية يومئذ أن بديع الزمان أجمل منه شعرا ، وأحلى ثرا، وأقوى حجة، ثم مرض الخوارزمي حزنا ومات قبل أن ينتفضي الحول سنة ٣٨٣

وبموت الخوارزمي خلا الجوق لبديع الزمان عند الملوك والأمراء والوزراء، وصار ينتقل في الحواضر الاسلامية بالشرق الى أن أستقر في هراة، وصاهر أحد علمائها الأعلام، وحسنت حاله، وأقبلت عليه الدنيا، ولكن المنية عاجلته وهو في سن الأربعين سنة ٣٩٨ وقد أستيقظ في قبره بعد الدفن فظل يصرخ ويطلب الغوث ، ولكن الناس لم يتنبهوا اليه الا بعد مدة ففتحوا قبره فوجدوه مضطجعا وقد أمسك لحيته بيده ومزق كفنه، ولكنه مات من الرعب والفرع حين يئس من النجاة .

٢ - اهتم كتاب التراجم بحياة بديع الزمان ، وأجمل ما قرأناه في ترجمته قول الثعالبي في يتيمة الدهر: "بديع الزمان، ومعجزة همدان، ونادرة الفلك، وبكر عطارد، وفرد الدهر،

وغرة العصر، ومن لم يلق نظيره في ذكاء القريحة، وسرعة الخاطر، وشرف الطبع، وصفاء
الذهن، وقوة النفس، ومن لم يدرك قرينه في ظرف النثر وملحه، وغرر النظم ونكتته، ومن
لم ير ولم ير أن أحدا بلغ ما بلغه من لب الأدب وسره، وجاء بمثل إعجازه وسحره، فانه كان
صاحب عجائب، وبدائع وغرائب: فمنها أنه كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط وهي
أكثر من خمسين بيتا فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها لا يخرم حرفا ولا يخل معنى،
وينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهذبها
عن ظهر قلبه هدا، ويسردها سردا... وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى
بديع وباب غريب فيفرغ منها في الوقت والساعة، والجواب عنها فيها، وكان ربما يكتب
لكتاب لمقترح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه ثم حلم جرا إلى الأول ويخرجه كأحسن شيء
وأما^(١)ه، ويوشح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من إنشائه فيقرأ من النظم والنثر،
ويروي من النثر والنظم، ويعطى القوافي الكثيرة فيصل بها الأبيات الرشيدة، ويقترح عليه
كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله في أسرع من الطرف، على ريق لا يبلعه، ونفس
لا يقطعها، وكلامه كله عفو الساعة، وفيض البديهة. ومسارقة القلم، ومسابقة اليد، وجمرات
الحدة، وثمرات المدة، ومجارات الخاطر للناظر، ومباراة الطبع للسمع. وكان يترجم ما يقترح
عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة بالأبيات العربية فيجمع فيها بين
الإبداع والإسراع، إلى عجائب كثيرة لا تحصى، ولطائف تطول أن تستقصى. وكان مع هذا
كله مقبول الصورة، خفيف الروح، حسن العشرة، ناصع الظرف، عظيم الخلق، شريف
النفس، كريم العهد، خالص الود، حلو الصداقة، مر العداوة. وفارق رمضان سنة ٣٨٠
وهو مقتبل الشبيبة، غض الحداثة، وقد درس على أبي الحسين بن فارس وأخذ عنه جميع
ما عنده، وأستفد علمه، وأستترف بحره. وورد حضرة صاحب فتروود من ثمارها، وحسن
آثارها. ثم قدم جرجان وأقام بها مدة على مداخلة الاسماعيلية والتعيش في أكثفهم، والاقبتباس

(١) انظر شاهه هذا فيما سنعرض من نفس المنثرة (ص ٣٤٨).

من أنوارهم، وأختص بأبي سعد محمد بن منصور ونفقت بضائعها لديه، وتوفر حفظه من عادته المعروفة في إهداء المعروف والإفضال على الأفاضل. ولما آسقرت عزيمته على قصد نيسابور أعانه على جركته، وأزاح عله في سفرته، فوافاها في سنة ٣٨٢ ونشر بها بزه، وأظهر طرزه، وأملى أربعمائة مقامة^(١) نحلها أبا الفتح الاسكندري في الكدية وغيرها، وضمنها ما تشتهى الأنفس، وتلذ الأعين، من لفظ أنيق قريب المأخذ، بعيد المرام، وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام، وجد يروق فيملك القلوب، وهزل يشوق فيسحر العقول. ثم شجر بينه وبين أبي بكر الخوارزمي ما كان سببا لهبوب ريح الهمذاني وعلو أمره، وقرب نجحه، وبعد صيته، إذ لم يكن في الحسبان والحساب أن أحدا من الأدباء والكُتاب والشعراء ينبري لمباراته، ويحتري على مجاراته، فلما تصدى الهمذاني لمساجلته وتعرض للتحكك به وجرت بينهما مكاتبات ومباهلات ومناظرات ومناضلات وأفضى السنان الى العنان، وقرع النبع بالنبع، وغلب هذا قوم وذاك آخرون، وجرى من الترجيح بينهما ما يجري بين الخصمين المتحاكين، والقرنين المتصاولين، طار ذكر الهمذاني في الآفاق، وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء، وظهرت أمارات الإقبال على أموره، وأدركه أخلاف الرزق وأركبه أكاف العز. وأجاب الخوارزمي داعي ربه فخلا الجول للهمذاني وتصرفت به أحوال جميلة، وأسفار كثيرة، ولم يبق في بلاد نراسان وسجستان وغزنة بلدة إلا دخلها، وجنى ثمرتها، وأستفاد خيرها وميرها، ولا ملك ولا أمير ولا وزير ولا رئيس إلا استمطر منه بنوء، وسرى معه في ضوء، ففاز برغائب النعم، وحصل على غرائب القسم، وألقى عصاه بهرة وأخذها دار قراره، وجمع أسبابه... وخار الله له في مصاهرة أبي على الحسين بن محمد الخشنامي... فانتظمت أحوال أبي الفضل بصهره، وتعرفت القرية في عينه، والقوة في ظهره، وأقتنى بمعونته ومشورته ضياعا فاخرة، وعاش عيشة راضية. وحين بلغ أشده وأرنب على أربعين سنة ناداه الله فلباه، وفارق دنياه في سنة ٣٩٨ فقامت عليه نوادب الأدب، وأتلم حد القلم... الخ^(٢).

(١) راجع ما حققناه من عدد المقامات في الجزء الأول ص ٢٠٦ (٢) البيهقي ج ٤ ص ١٦٧ - ٣٦٩

٣ — وقد نقلنا كلام الثعالبي على طوله لأنه يعطى صورة من طرائق كتاب القرن الرابع في كتابة التراجم ، ولأن الثعالبي كان من معاصري البديع ، ولأنه أعطانا فوائد تاريخية على قلة ما يفعل ذلك ، فقد عرفنا أن البديع أنشأ المقامات في نيسابور بعد أن حل بها سنة ٣٨٢ وعرفنا أنه ناظر الخوارزمي في ذلك الحين ، وهذا يعين أن الخوارزمي مات سنة ٣٨٣ لا سنة ٣٩٣ كما توهم بعض من نقل عنهم ابن حلكان^(١) .

وتاريخ إنشاء المقامات الذي نص عليه الثعالبي ظاهر الصحة ، لأن البديع يذكر تواريخ سبقت ذلك ، كقوله في المقالة القزوينية "غزوت الشجر بقزوين ، سنة خمس وسبعين" .

٤ — أما المناظرة التي أشار إليها الثعالبي والتي آستفاض ذكرها في كتب الأدب فقد حررها بديع الزمان بقلمه ، وهي وثيقة أدبية تمثل زهوه وأخلاقه ، وتبين تهافت الناس اذ ذاك على شهود المناظرات ، وكانت من الفنون الظاهرة في القرن الرابع ، ومن أشهر من آهتم بتدوين مناظرات ذلك العهد أبو حيان التوحيدى ، غير أن التوحيدى كان يهتم بتدوين المناظرات الفلسفية والفقهية .

ابتدأ بديع الزمان تحدثنا أن تقييد تلك المناظرة كان مما أقترح عليه ، وأنه سيسوق صدر حديثه مع الخوارزمي الى العجز ، كما يساق الماء الى الأرض الجُرُز . ثم قال بعد كلام في الشناء على من وجد اليه الحديث :

" نعود للقصة نسوقها ، وأولها أنا وطئنا خراسان فما آخترنا الا نيسابور دارا ، وإلا جوار السادة جوارا ، لا جرم أنا حططنا بها الرجل ، ومددنا عليها الطنب ، وقديما كنا نسمع بحديث هذا الفاضل فنتشوقه ، ونخبره على المغيب فنتعشقه ، ونقدر أنا لو وطئنا أرضه ، ووردنا بلده ، يخرج لنا في العشرة ، عن القشرة ، وفي المودة ، عن الجلدة ، فقد كانت لحمة الأدب جمعتنا ، وكلمة الغربية نظممتنا ، وقد قال شاعر العرب غير مدافع :

أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب

فأخلف ذلك الظن كل الإخلاف ، وأختلف ذلك التقدير كل الاختلاف ، وقد كان آتفق علينا في الطريق من العرب آتفاق ، لم يوجهه استحقاق ، من بزة بزوها ، وفضة فصوها ، وذهب ذهبوا به ، ووردنا نيسابور براحة أنقى من الراحة ، وكيس أخلى من جوف حمار ، وزى أوحش من طلعة المعلم^(١) بل أطلاعة الرقيب ، فما حللنا إلا قصبة جواره ، ولا وطننا إلا عتبة داره . وهذا بعد رقعة كتبناها ، وأحوال أنس نظمناها . فلما أخذنا لحظ عينه سقانا الدردى من أول دنه ، وأجنانا سوء العشرة من باكورة فنه ، من طرف نظر بشطره ، وقيام دفع في صدره ، وصديق آستهان بقدره ، وضيف آستخف بأمره . لكنا أقطعناه جانب أخلاقه ، وقاربناه إذ جانب ، وواصلناه إذ جاذب ، وشربناه على كدورته ، ولبسناه على خشونته ، ورددنا الأمر في ذلك الى زى آستغته ، ولباس آسترته ، وكاتبناه نستمد وداده ، ونسلس قياده ، ونستميل فؤاده ، ونقيم مناده .

٥ — وخلاصة ما سلف أن بديع الزمان بعد أن أعانه محمد بن منصور وأزاح علاله في سفرته الى نيسابور خرج عليه اللصوص في الطريق — وهو يسميهم «العرب» — فسلبوا ما كان معه من فضة وذهب ودخل نيسابور على أسوأ حال ، وفكر عند وصوله في الاتصال بأبي بكر الخوارزمي ، ولكن الخوارزمي لم يكرم زيارته ، وظن بديع الزمان أن تلك الجفوة لم تكن إلا لأنه ورد في زى غث ، ولباس رث .

أما المراسلات التي سبقت المناظرة فهي خطاب من البديع وجواب من الخوارزمي .

ولننظر كيف بدأ البديع يغرس بذور الشجاء :

«الأستاذ أبو بكر — والله يطيل بقاءه ! — أزرى بضيفه أن وجده يضرب إليه آباط القلة ، في أطمار الغربية ، فأعمل في رتبته أنواع المصارفة ، وفي الأهترأله أنواع المضايقة ، من إيماء بنصف الطرف ، وإشارة بشطر الكف ، ودفع في صدر القيام ، عن التمام ،

(١) يريد أن طلعة المعلم توحش الطفل لأنها تنقله من اللعب الى الدرس ، ومما ذاب الله أن تكون «طلعة المعلم وحشة»

ومضغ الكلام، وتكلف لرد السلام . وقد قبلت تربته صمرا، وأحتلته وزرا، وأحتضته
نكرا. وتابطته شرا، ولم آله عذرا، فان المرء بالمال، وثياب الجمل، ولست مع هذه الحال،
وفي هذه الأسمال، أتقرز صف النعال، فلو صدقته العتاب، وناقشته الحساب، لقلت
إن بواديا ثاغية صباح، وراغية رواح، وناسا يحرون المطارف، ولا يمتعون المعارف .
وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل

ولو طوّحت بأبي بكر أیده الله طوائع الغربه ، لوجد مغنی البشر قریبا ، ومحط الرحل
رحیا ، ووجه المضيف خصیبا . ووجه الأستاذ أبی بكر أیده الله فی الوقوف علی هذا العتاب
الذی معناه ود ، والمر الذی یتلوه شهد ، موفق ان شاء الله تعالى ” .

فأجاب الخوارزمی :

” وصلت رقعة سیدی ومولای ورئيسی أطال الله بقاءه الى آخر السبکاج ، وعرفت
ما تضمنه من خشن خطابه ، ومؤلم عتابه ، وصرفت ذلك منه الى الضجر الذی لا یخلو منه
من مسه عسر ، ونبا به دهر ، والحمد لله الذی جعلنی موضع أنسه ، ومظنة مشتی ما فی نفسه !
أما ماشکاه سیدی ورئيسی من مضایقتی إياه فی القیام فقد وفیته حقه أیده الله سلاما وقیاما ،
علی قدر ما قدرت علیه ، ووصلت إلیه ، ولم أرفع علیه الا السید أبا البرکات العلوی أدام الله
عزه ، وما کنت لأرفع أحدا علی من جدّه الرسول ، وأمه البتول ، وشاهداه التوراة والانجیل ،
وناصراه التأویل والتزیل ، والبشیر به جبرائیل ومیکائیل . فأما القوم الذین صدر سیدی
عنهم فکما وصف حسن عشرة ، وسداد طريقة ، وکمال تفصیل وجملة ، ولقد جاورتهم
فأحدث المراد ، ونلت المراد :

فان كنت قد فارقت نجدا وأهله فما عهد نجد عندنا بذمیم

والله یعلم نیقی للاخوان كافة ، ولسیدی من بینهم خاصة ، فان أعاننی الدهر علی ما فی نفسی
بلغت إلیه ما فی الفکرة ، وجاوزت مسافة القدرة ، وإن قطع علیّ طریق عشرقی بالمعارضة ،
وسوء المؤاخذة ، صرفت عثانی عن طریق الاختیار ، بید الاضطرار :

فما النفس إلا نطفة بقرارة إذا لم تكدر كان صفوا معينا

وبعد فخذنا عتاب سيدي إذا استوجبنا عتابا ، وأقترفنا ذنبا ، فاما أن يسئلنا العريضة
فنتجن نصونه عن ذلك ونصون أنفسنا عن احتماله . ولست أسومه أن يقول استغفرلنا
إنا كنا خاطئين ، ولكني أسأله أن يقول لا تريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم
الراحمين .“

٦ — وبهذين الخطابين بدأت البغضاء ، وأقطع بديع الزمان عن زيارة الخوارزمي
« ومضى على ذلك الأسبوع ، ودبت الأيام ، ودرجت الليالي ، وتطاولت المدة » ومشى
الواشون بالسوء ، ودعا ناس الى مناظرة تقوم بين الرجلين ، فتردد الخوارزمي وهش بديع
الزمان ، ثم ركب الخوارزمي في جمع من أصحابه وتلامذته ، وبعد لحظات ابتدأ النضال ،
ولترك البديع يصف ذلك الموقف المشهود .

صورة المناظرة^(١)

”... فتركاه على غلوائه ، حتى إذا نفض ما في راسه ، وفرغ جعبة وسواسه ، عطفنا عليه
فقلنا : يا عافاك الله ! دعوناك وغرضنا غير المهارشة ، وأستزرنك وقصدنا غير المناوشة ، فلتهدأ
ضلعك ، وليفرخ روعك ، وما آجتماعنا إلا لخير فلتسكن سورتك ، ولتان فورتك ، ولا ترقص
لغير طرب ، ولا تحم لغير سبب ! وإنما ذكرناك لتملأ المجاس فوائدا ، وتذكر أبياتا شواردا ،
وأمثالا فرائدا ، ونباحثك فنسعد بما عندك ، وتسالنا فتسر بما عندنا ، ويقف كل واحد منا
موقفه من صاحبه ، وقديما كنت أسمع بحديثك فيعجبني الالتقاء بك ، والاجتماع معك ،
والآن إذ سهل الله ذلك فهلم الى الأدب تنفق يومنا عليه ، والى الجدل نتجاذب طرفيه ،

(١) أثبتنا هذا الشاهد على طوله لطرافته ولدلالته على عقلية فريق من كتاب ذلك العهد ، ولنبين كيف أستطاعت
اللغة المثقلة بالزخرف والسجع أن تؤدي نوعا من القصص في تدوين المآثرات . وقد أستقطنا جزءا من صورة هذه الوثيقة
الأدبية فرارا من الطويل .

فأسمع خيرا وأسمعنا مثله ، ولتبدأ بالفن الذى ملكت به زمانك ، وفقت به أقوانك ، وملكمت به عنانك ، وأخذت منه مكانك ، فطار به آسمك بعد وقوعه ، وأرتفع له ذكرك عقب خضوعه ، وأخمت به الرجال حتى أذعن العالم ، وقلد الجاهل ... بخارنا بفرسك ، وجُد لنا بنفسك .

فقال : وما هو ؟

فقلت : الحفظ إن شئت ، والنظم إن أردت ، والنثر إن اخترت ، والبدئية إن نشطت . فهذه أبوابك التى أنت فيها أبين دعواك ، تملأ منها فاك .

فأختم عن الحفظ رأسا ، ولم يحل فى النثر قِدحا . وقال :
أبادحك .

فقلت : أنت وذاك !

فقال الى السيد أبى الحسين يسأله بيتا ليجير . فقلت : يا هذا أنا أكفيك ، ثم تناولت حراً فيه أشعاره وقلت لمن حضر :

هذا شعر أبى بكر الذى كد به طبعه ، وأسهر له جفنه ، وأجال فيه فكره ، وأنفق عليه عمره ، وأستترف فيه يومه ، ودونه فى صحيفة مآثره ، وجعله ترجحان محاسنه ، وعبر به عن باطنه ، وأخذ مكانه وهو ثلاثون بيتا ، وساقرن كل بيت بوقفه ، وأنظم كل معنى الى لَفقه ، بحيث أصيب أغراضه ، ولا أعيد ألفاظه ، وشريطتى أن لا أقطع النفس ، فان تهبأ لواحد ، أو أمكن لناقد ، ممن حضر ، يريد النظر ، أن يميز قوله من قولى ، ويحكم على البيت أنه له أولى ، أو يرجح ما نظمه بنار الروية ، على ما أملتته على لسان النفس فله يد السبق ، أو يكون غيرها فإعفاء عن هذه المقاومة ، ويتنجى لنا عن أرض المسائلة ، ويخلى الطريق لمن يبنى المنار به .

فقال أبو بكر : ما الذى يؤمتنا من أن تكون نظمت من قبل ما تريد إنشاء الان ؟

فقلت : اقترح لكل بيت قافية لا أسوقه إلا إليها ، ولا أقف به إلا عليها ، ومثال ذلك أن تقول (حشر) فأقول بيتا آخره (حشر) ثم (عشر) فأنظم بيتا قافيته (عشر) ثم حلم جرا الى حيث يتضح الحق ، ويفتضح الزرق^(١) ، وتستقر الحجة ، وتستقل الشبهة ، وتتطرد فيعرف الحال من العاقل ، ويفرق بين الحق والباطل .

فأبى أبو بكر أن يشاركنا في هذا العنان ، ومال الى السيد أبى الحسين يسأله بيتا ليحيز فتبعنا رأييه فيما رآه ، ولم نرض إلا رضاه ، وأعمل كل منا لسانه وفمه ، وأخذ دواته وقلمه ، فأجزنا البيت الذى قاله ، وكلما أجزناه إجازة جارى القلم فيها الطبع ، وبارى اللسان بها السمع ، وسارق الخاطر بها الناظر ، وسابق الجنان بها البنان ، إذ قلنا :

هذا الأديب على تعسف فتكهِ	وبروكه عند القريض ببركهِ ^(٢)
متسرع فى كل ما يعتاده	من نظمته متباطئ عن تركهِ
والشعر أبعد مذهبا ومصاعدا	من أن يكون مطيعه فى فكهِ
والنظم بحرٌ والخواطر معبرٌ	فانظر الى بحر القريض وفكهِ
فمضى توفى فى القريض مقصرٌ	عرضت أذن الامتحان بعركهِ
هذا الشريف على تقدم بيتهِ	فى المكرمات ورفعته فى سمكهِ
قد رام منى أن أقارن مثله	وأنا القرين السوء إن لم أنكهِ ^(٣)
واذا نظمت قصمت ظهر مناظرى	وحطمت جارحة القرين بدكهِ
ودبغت منه أديمه وتركته	نهج الأديم بدبغته وبدكهِ
أصغو الى الشعر الذى نظمته	كالدرّ رصع فى مجرة سلكهِ
فمضى عجزت عن القريض بدية	فدمى الحرام له إراقة سفكهِ

وقال أبو بكر أبياتا جهدنا به أن يخرجها من الغلاف ، ويبرزها من الخاف ، فلم يفعل دون أن طواها وجعل يعركها ويفركها ، فقلت : إن البيت لقائله ، كالولد لناجله ، فإلك

(١) الزرق جمع أزرق ويراد به الأعمى . وفى القرآن (ونحشر الجرمين يومئذ زرقا) أى عميا .

(٢) البرك بفتح فسكون : الصدر . (٣) من النكابة وهى الإهانة .

تعق أبناك وتضييمه ؟ أبرزها للعيون ، وخلصها من الظنون . فكره أبو بكر أيده الله أن تكون
المرتة أعقل منه لأنها تحدث فتغطي ، فلم يستجري أن يظهر ثم مسح جبينه وبسط يمينه
للبدية نفسا دون أن يكتب . فقلنا : أنت وذاك . واقترح علينا أن نقول على وزن قول
أبي الطيب المتنبي حيث يقول :

أرق على أرق ومثلي يارق وجوى يزيد وعبرة تفرق
وأبتدر أبو بكر أيده الله الى الإجازة ولم يزل الى الغايات سباقا فقال :
وإذا ابتدعت بدية يا سيدى فأراك عند بديتى تتقلق
وإذا قرضت الشعر فى ميدانه لا شك أنك يا أنى تشفق
إنى إذا قلت البدية قلتها عجلا وطبعك عند طبعى يرتق
مالى أراك ولست مثلى عندها متموها بالترهات تمخرق
إنى أجيز على البدية مثل ما تريانه وإذا نطقت أصدق
لو كنت من صحر أصم لهاله منى البدية وأغمدى يتفلق
أو كنت ليثا فى البدية خادرا لرئيت يا مسكين منى تفرق
وبدية قد قلتها متنفسا فعل الذى قد قلت يا ذا الأخرق

ثم وقف يعتذر ويقول : إن هذا كما يحىء لا كما يجب . فقلت : قبل الله عذرك لكنى
أراك بين قواف مكروهة وقافات خشنة كل قاف بكبل قاف ، منها تتقلق وتشفق وتمخرق
وتخرق وتطلق وتعلق وتسرق وتفرق وأحق وأخرى إلى أشياء لا أكثر بها العدد ، نخذ الآن
جزءا عن قرضك ، وأداء لقرضك ، وقلت :

مهلا أبا بكر فزندك أضيق فاحرس فإن أخاك حتى يرزق
دعنى أعرك إذا سكت سلامة فالقول ينبجذ فى ذويك ويعرق
ولفائك فتكات سوء فيكم فدع الستور وراءها لا تخرق
وأنظر لأشنع ما أقول وأدعى أله إلى أعراضكم متسلق
يا أحقما وكفأك ذلك خزية جربت نار معرفتى هل تحرق

فلما أصابه حر الكلام، ومسه لفتح هذا النظام، قطع علينا فقال : يا أحق لا يجوز فإن
أحق لا ينصرف . فقلنا : يا هذا لا تقطع فإن شعرك إن لم يكن عيبة عيب فليس بظرف ظرف،
ولو شئنا لقطعنا عليك، ولوجد الطعن سبيلا اليك . وأما أحق فلا يزال يصفحك لتصفعه
حتى ينصرف وتتصرف معه ! وعرفناه أن للشاعر أن يرث ما لا ينصرف الى الصرف، كما أن له
رأيه في القصر والحذف، وأنشدناه حاضر الوقت من أشعار العرب فقال : يجوز للعرب ما لا
يجوز لك . فلم يدرك كيف يجيب عن هذا الموقف وهذه الموافقة، وكيف يسلم من هذه
المصارفة، لكنا قلنا : أخبرنا عن بيتك الأول أمدحت أم قدحت، وزكيت أم جرحت ؟
ففيه شيان متفاوتان، ومعنيان متباينان، منها أنك بدأت مخاطبت بيا سيدي، والثانية أنك
عطفت فقلت لتتلقى وهما لا يركضان في حلبة ولا يخطان في خطة . ثم قلت له : خذ وزنا
من الشعر حتى أسكت عليك فتستوفى من القول حظك وأسكت علينا حتى نستوفى حظنا ،
ثم إني أحفظ عليك أنفاسك وأوافقك عليها وأحفظ على أنفاسي ووافقني عليها فإن عجزت عن
اختلافها حفظتها لك، فسألني عنها بعد ذلك . وأخذنا بيت أبي الطيب المتنبى :

أهلا بدار سباك أغيدها أبعد ما بان عنك خردها

فقلت :

يا نعمة لا تزال تبيحدها ومنمة لا تزال تكندها

فأخذ بمخني البيت قبل تمامه، ومضيق الشعر قبل نظامه، فقال : ما معنى تكندها ؟
فقلت : يا هذا، كند النعمة كفرها . فرفع يديه ورأسه وقال : معاذ الله بأن يكون كند بمعنى
جحد، وإنما الكنود القليل الخير . فأقبلت الجماعة عليه يوسعونه برأ وفريا ويتلون له قول
الله تعالى (إن الإنسان لربه لكنود) وقلت له : أليس الشرط أملك؟ والعهد بيننا أن تسكت
ونسكت حتى تم وتم، ثم نبحث ونفحص، فنبيذ الأدب وراء ظهره وصار الى السخف يكلنا
بصاعه ومده، وينفض فيه حمة جهده، وأفضى الى السفه يغرف علينا غرفا، ويستقي من
جرفه جرفا . فقلت : يا هذا إن الأدب غير سوء الأدب والمناظرة حضرا لا للمناظرة، فإن
نفضت من هذا السخف يدك، وثبتت عن هذا السفه قصدك، وإلا تركت مكانتك . ولو كان

في باب الاستخفاف شيء أعظم من الاحتقار، وإنكار أبلغ من ترك الإنكار، لبلغته منك . فأخذ
يمص على غُلَّوائه ، ويمعن في هرائه وهذائه . فاستندت الى المسند ، ووضعت اليد على اليد ،
وقلت استغفر الله من مقاتلك ونقضتها قائمة معه . وسكت حتى عرف الناس ، وأيقن الجلاس ،
أنى أملك من نفسي ما لا يملكه ، وأسالك من طريق الحلم ما لا يسلكه ، ثم عطفت عليه
وقلت : يا أبا بكر إن الحاضرين قد عجبوا من حلمي ، وتعجبوا من فضلي ، وبقى الآن أن يعلموا
أن هذا السكوت ليس عن عي ، وأن تكلفى للسفه أشد استمرارا من طبعك ، وغربي في السخف
أمتن عودا من نبئك ، وسنقرع باب السخف معك ، ونفترع من ظهر السفه مفترعك .
فتكلم الآن . فقال لي : أنا قد كسبت بهذا العقل دية أهل همدان مع قلته فما الذي أفدت
أنت بعقلك مع غزارته ؟ فقلت أما قولك أهل همدان فما أولاني أن أجيب عنه ولكن هذا
الذي تمدح به وتبجح وتتشرف وتتصلف من أنك شحذت فأخذت ، وسألت فحصلت ،
وآجديت فأقتيت ، فهذا عندنا صفة ذم يا عافاك الله ! ولأن يقال للرجل يا فاعل يا صانع
أحب إليه من أن يقال يا شحاذ ويا مكدي ! وقد صدقت ، أنت في هذه الحلبة أسبق ، وفي هذه
الحفرة أعرق ، ولعمرك أنت أشحذ ، وفي الكدية أنفذ ، وأنا قريب العهد بهذه الصنعة ،
حديث الورد لهذه الشريعة ، مرمل اليد في هذه الرقعة . فأما مالك فعندنا يهودى يماثلك
في مذهبه ، ويزيدك مذهبه ، ومع ذلك لا يطرفني إلا بعين الرهبة ، ولا يمد اليّ إلا يد الرغبة ، ولو كان
الغنى حظا لأخطاه مثل هذا العقل ، ولو كان المال غنا لما أدرك بهذا السعى . ولكن عرفني
هل كنت فيما سلف من زمانك ، ونبت من أسنانك ، إلا هاربا بذمائك ، مضرجا بدمائك ،
مرتهنا بقولك بين وجنة موشومة ، وجوارح مهشومة ، ودار مهدومة ، وخدود ملطومة . ومتى
صفت مشارعك ، وأخصبت مرابعك ، إلا في هذه الأيام القذرة ؟ وستعرف غدك من بعد ،
وتنكر أمسك ، وتعلم قدرك في غد ، وتعرف نفسك . وما أضيع وقتا أنطقته بذكرك ، ولسانا
دنسته باسمك ! وملت الى القوال فقلت أسمعنا خيرا فدفع القوال وغنى أبياتا منها :

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا اللطم في الخلد الرقيق

فقال أبو بكر : أحسن ما في الأمر أني أحفظ هذه القصيدة وهو لا يعرفها، فقلت :
يا عافاك الله أعرفها وإن أنشدتكها ساءك مسموعها، ولم يسرك مصنوعها، فقال : أنشد !
فقلت : أنشد ولكن روايتي تخالف هذه الرواية وأنشدت :
وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا الوشم في الوجه الصفيق

فأنته السكته، وأضجرتة النكته، وأنطفأت تلك الوقدة، وأنحلت تلك العقدة. وأطرق مليا
وقال : والله لأضربنك وإن ضربت، ولأشمتنك وإن شمتت، ولتعلنن نبأه بعد حين، ولتعلن
أينا الضارب وأينا المصروب ! فقلت : يا أبا بكر مهلا فانك بين ثلاثة فصول لم تخطها من عمرك
وثلاث أحوال لم تتعدها في أمرك، وأنت في جميع الثلاثة ظالم في وعيدك، متعدي في تهديدك،
لأنك كهل وأنت شاعر، وكنت شابا وأنت مقامر، وكنت صبيا وأنت مؤاجر، فنطاق القدرة
في الفصول الثلاثة ضيق عن هذا الوعيد، لكننا نصفحك الآن وتضربنا فيما بعد، فقد قيل اليوم
قصف، وغدا خسف، وقيل اليوم خمر، وغدا أمر ! فقال أبو بكر والله لو دخلت الجنة،
واتخذت السندس والإستبرق جنة، لصمعت ! فقلت : والله لو أن قفاك غدا في درج في خرج
في برج لأخذك من النعال ما قدم وما حدث، وشملك من الصفع ما طاب وخبث، وأنشدت
قول ابن الرومي :

إن كان شيئا سفيها يفوق كل سميهِ

فقد أصاب شيئا له وفوق الشبيه

ثم لما آبت نفس العقل وزال سكر الغيظ تمثلت بقول القائل :

وأنزلى طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيت أمرا لا أشاكلة

أحامقه حتى يقال سجيّة ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

ودفع اللوال فبدأ بأبيات، ولحن بأصوات، وجعل النعاس يثني الرؤوس، ويمنع
الجلوس، فقمنا عن الليل وهو يحجر مائل الذقن الى ما وطئ من مضجع، ومهد من مهجع،
ولم يكن النوم ملء الجفون، ولا شغل العيون، حتى أقبل وفد الصباح، وحيل المؤذن بالفلاح،

وتدب الى النهوض ، بالمقروض ، فأجبنا . فلما قضينا القرض . فارقتا الأرض ، فأوى الى أم
 مشواه وأويت الى الحجرة وظنى أن هذا الناضل يأكل يده ندماً ، ويسكى على ماجرى دمعاً ودماء ،
 فانه إذا سمع بحديث همدان قال : الهاء حم والميم موت ، والذال ذل ، والألف آفة ، والنون
 ندامة ، وأنه إذا تم هاله منا طيف ، وإذا أنقبه راعه منا سيف ، وأخذ الناس يترازمون بما
 جرى ويتغامزون ، وراب هذا الفاضل غمزاتهم مثل ماراب المريض تغامز العواد بفعل
 يخلف للناس بالعق ، وتحرير الرق . والمكتوب فى الرق ، إنه أخذ قصب السبق ، وإنه ينطق
 عن الحق ، والناس أكياس لا يقتنعهم عن المدعى يمين دون شاهدين ! وسعوا بيننا بالصلح
 يحكون قواعده ومعاقده ، وعرفنا له فضل السن فتصدناه معتذرين اليه ذوماً بإعانة مهيضة ،
 وآهتر آهترآزة مغيضة ، وأشار إشارة مريضة ، بكف سحبها على الهواء سبحاً ، وبسطها فى الجو
 بسطاً . وعلمنا أن لتقوم أن يستخف ويستهن ، وللقامر أن يحتمل ويلين ، فقلنا إن بعد
 الكدر صفوا ، كج أن عقب المطر صحوا ، فهل لك فى أخلاق فى العشرة نستأنفها ، وطرق
 فى الخلطة نسلكها ، فان ثمة الخلاف ماقد بلوتها ؟ فقال ظهر الوفاق لفظاً كما ذكرت ، والجمل
 أبجل كما علمت ، وسنشارك هذا العنان . وعرض علينا الإقامة عنده سحابة ذلك اليوم ، فاعتلنا
 بالصوم ، فلم يقبل العذر وألح فقلت : أنت وذاك قطعنا عنده ، وأخذنا دندناً مزده ،
 ونخرجنا والنية على الجمل موفورة ، وبقعة الود معمورة ، وصرنا لا نتعلل إلا بمدحه ، ولا نتنقل
 إلا بذكره ، ولا نعتد إلا بوده ، لا بل ملائنا البلد شكراً ، والأسماع نشراً ، وبتنا نحن من الحال
 فى أعذبا شرعة ، ومن الثقة فى أطيبها جرعة ، ومن الظنون فى أملحها فرعة ، ومن المودة
 فى أعزها بقعة ، وأوسعها رفعة ، حتى طرأ علينا رسولان متحملان لمقائله ، مؤديان لرسالته ،
 ذاكران أن أبا بكر يقول قد تواترت الأخبار ، وتظاهرت الآثار ، فى أنك قهرت وأنى قُهرت
 ولا شك أن ذلك التواتر عنك صدرت أوائله . والخبر إذا تواتر به النقل ، قبله العقل . ولا بد
 أن نجتمع فى مجلس بعض الرؤساء فنتناظر بمشهد الخاصة والعامة ، فانك متى لم تفعل ذلك
 لم آمن عليك : لا مدتى أو تقر بعجزك وفصورك عن بلوغك أمدى وما أبدى . فعجبت كل
 العجب مما سمعت ، وأجبته فقلت : أما قولك قد تواتر الخبر بأنك قُهرت وأن ذلك عن

جهتي صدر ومن لسانى سمع فبالله ما أتمدح بقهرك ، ولا أتجبح بقسرك . وإن لـنفسك عندك
 لشانا إن ظننتنى أقف هذا الموقف ، أنا إن شاء الله تعالى أبعد مرتقى همة ومصعد نفس
 أسأل الله سترًا يمتد ووجهها لا يسود ! فأما التواتر من الناس والنظائر على أنى قهرتك فلو قدرت
 على الناس لخطت أفواهم ، ولقبضت شفاههم ، فما الحيلة وهل الى ذلك سبيل فأتوسل ،
 أم ذريعة فأتوصل ؟ ثم هذا التواتر ، ثمرة ذلك الناظر ، مع ذلك التسائر ، فإن كان قد ساءك
 فأحرى أن يسوءك عند مجتمع الناس ومختلف أولى الفضل ، ولأن يترك الأمر مختلفا فيه خير
 لك من أن يتفق عليه . وإن أحببت أن تطير هذا الواقع وتبيح هذا الساكن فراك موقفا .
 فأما هذا الوعيد فقد عرضته على جوانحي أجمع وجوارحى كلها فلم تنشدا الا بيت القائل :
 وعيدٌ تخرج الآرام منه وتكره نية الغم الذئاب

فكم تتكوبك تلامذتك ويتعسكرون ، ويتجيش أصحابك ويتجمعون ، ولست أراك إلا بين
 ثنتين : إحداهما تروح الى أنثى وتغدو الى طفل ، والأخرى تجيب دعوة المضطر إذا دعاك
 بمسلمات . فإن كان الله قد قضى أن القتل بأخس السلاح ، فلا مفتر من القدر المتاح ، رزقنا الله
 عقلا به نعيش ! ونعوذ بالله من رأى بنا بطيش ! وقلنا من بعد إن رسالتك هذه وردت موردا
 لم نحسنه ، ووصلت موقفا لم نرتقبه ، فلذلك خرج الجواب عن البصل ثوما ، وعن البخل
 لوما . فلما ورد الجواب عليه ويسع من الفيظ فوق ملئه ، وحمل من الحقد فوق عبئه ، وقال :
 قد بلغ السيل الزبا ، وعلت الوهاد الربا ، فى أمرك . وسُرى فى يومك ، وتُعرف فى قومك !
 ثم مضت على ذلك أيام ونحن منتظرون لفاضل ينشط لهذا الفصل ، وينظر بيننا بالعدل ،
 فاتفقت الآراء على أن يعقد هذا المجلس فى دار الشيخ أبى القاسم الوزير وأستدعيت فسرحت
 الطرف من ذلك السيد فى عالم أفرغ فى عالم وملك فى درع ملك ورجل نظم الى التنبل تبذلا
 وإلى الترفع تواضعا ، ونطق فودت الأعضاء لو أنها أسمع مصغية وأستمع فتمنت الجوارح
 لو أنها ألسن ناطقة فقلت : الحمد لله أن عقد هذا المجلس فى دار من يفرق بين من يُحق ومن
 يزيق^(١) وكنت أول من حضر وانتظرت مليا حضور من ينظر وقدم من يناظر ، وطلع الإمام

(١) من زرق الطائر إذا أخرج ما فى أمعائه .

أبو الطیب وأخذ من المجلس موضعه ، والامام أبو الطیب بنفسه أمة ووحده عالم . ثم حضر
السید أبو الحسن وهو ابن الرسالة والإمامة ، وعامر أرض الوحی والمحتبی بفناء النبوة
والضارب فی الأدب بعرقه ، وفی النطق بحذقه ، وفی الإنصاف بحسن خلقه ، فحشم الی المجلس
قدّم سیفه وجعل يضرب عن هذا الفاضل بسیفین لأمر کان قد موّه علیه ، وحديث کان شبهه
لديه ، وفطنت لذلك فقلت : أيها السید أنا إذا سار غیری فی التشیع برجلین ، طرت بجناحین ،
وإذا متّ سواى فی موالاة أهل البيت بالمحبة دالة توسلت بغرة لأئمة ، فإن كنت أبلغت غیر
الواجب فلا یملکک علی ترک الواجب . ثم إن لی فی آل الرسول صلی الله علیه وسلم قصائد
قد نظمت حاشیتی البر والبحر ، وركبت الأفواه ، ووردت المیاء ، وسارت فی البلاد ، ولم
تسرّ بزد ، وطارت فی الآفاق ، ولم تسر علی ساق ، ولكنی أتسوق بها لديکم ولا أتنفق بها
علیکم ، ولا آخرة قلتها لا للآخرة ، وللدين آذخرتها لا للدنيا . فقال أنشدنی بعضها فقلت :

یا ملة ضرب الزما	ن علی مُعرّسها خیامه
لله درک من نُخزا	فی روضة عادت تغامه
لرزية قامت بها	للدین أشرط القیامه
لمصرّج بدم النبوة	ضارب یسد الإمامه
متقسم بظبا السیو	ف مجرّع منها حمامه
منع الورود وماؤه	منه علی طرّف الثمامه
نصب ابن هند رأسه	فوق الوری نصب العلامه
ومقبّل کان النبی	بالشمه یشفی غرامه
قرع ابن هند بالقضیب	عذابه فرط استضامه
وشدا بنغمته علیه	له وصبّ بالفضلات جامه
والدین أبلج ساطع	والعدل ذو خال وشامه
یا ویح من ولی الکنا	ب قفاه والدینا أمامه
لیضرسن ید النداء	مه حین لا تغنی الندامه

وليدركن على الفرا	مة سوء عاقبه الغرامه
وحى أباح بنو أمية	مة من طوائهم حرامه
حتى آشفوا من يوم بد	ر وآستبدوا بالزعامة
لعنوا أمير المؤمنين	بن بمثل إعلان الإقامة
لم لا تخزى يا سماء	ء ولم تصبى يا غمامه
لم لا تزولى يا جبا	ل ولم تشولى يا نعامه
يا لعنة صارت على	أعناقهم طوق الجمامة
إن العمامة لم تكن	للثيم ما تحت العمامه
من سبط هند وآبها	دون البتول ولا كرامه
يا عين جودى للبق	ع وزرعى بدم رغامه
جودى بمذخور الدمو	ع وأرمى بددا نظامه
جودى بمكنون الدمو	ع أجدا بما جاد آبن نامة

فلما أنشدت ما أنشدت، وسردت ما سردت، وكشفت له الحال فيما أعتقدت، انجلت له العقدة وصار ساما يوسعنا حلما. وحضر بعد ذلك الشيخ أبو عمر البسطامى وناهيك من حاكم يفصل، وناظر يعدل، يسمع فيفهم، ويقول فيعلم. ثم حضر بعد ذلك القاضى أبو نصر والأدب أدنى فضائله، وأيسر فواضله، والعدل شية من شيه، والصدق مقتضى هممه. وحضر بعده الشيخ أبو سعيد محمد بن ارمك أيدى الله وهو الرجل الذى يحميه للأأوه ولودعيتيه من أن يذال بمن أو ممن الرجل، وهو الفاضل الذى يحطب فى جبل الكتابة ما شاء، ويركض فى حلبة العلم ما أراد. وحضر بعده أبو القاسم بن حبيب وله فى الأدب عينه وفراره، وفى العلم شعلته وناره. وحضره بعده الفقيه أبو الهيثم ورائد الفضل يقدمه، وقائد العقل يخدمه. وحضر بعده الشيخ أبو نصر بن المرزبان والفضل منه بدأ واليه يعود. وحضر بعده أصحاب الإمام أبى الطيب الأستاذ أيدى الله.

”وما منهم إلا أغمر نجیب“ .

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ الفاضل أبی الحسن الماسرجسی :

”وکل إذا عد الرجال مقدّم“

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ أبی عمر البسطامی وهم فی الفضل کأسنان المشط ومنه بأعلى مناط العقد . وحضر بعدهم الشیخ أبو سعید الحمذانی وله فی الفضل قدحه المعلى ، وفی الأدب حظه الأعلى . وحضر بعد الجماعة أصحاب الأسبلة المسبلة ، والأسوكة المرسلة ، رجال یلن بعضهم بعضا فصاروا الى قلب المجلس وصدره حتی رد کیدهم فی نحرهم وأقیموا بالنعال الى صف النعال ، فقلت لمن حضر : من هؤلاء؟ فقالوا : أصحاب الخوارزمی ، فلما أخذ المجلس زخرفه من حضر ، وأتتظر أبو بکر فتأخر ، اقترحوا علیّ قوافی أثبتوها واقترحات كانوا یتوها ، فما ظنك بالحلفاء أدنیت لها النار من لفظ الى المعنی نسقته ، ویت الى القافية سقته ، علی ریق لم أبلعه ، ونفس لم أقطعه ، وصار الحاضرون بین إعجاب بما أوردت ، وتعجب مما أنشدت . وقال أحدهم بل أوحدهم وهو الإمام أبو الطیب لن تؤمن لك حتی نقترح القوافی ونعین المعانی وننص علی بحر فإن قلت حیثنذ علی الروی الذی أسومه ، وذکرت المعنی الذی أرومه ، فانت حیّ القلب کما عهدناک ، منشرح الصدر کما شاهدناک ، شجاع الطبع کما وجدناک ، وشهدنا أنك قد أحسنت ، وأن لافقی إلا أنت . فبما خرجت من عهدة هذا التکلیف حتی آرتفعت الأصوات بالهیللة من جانب والحوقله من آخر وتعجبوا إذ أرتهم الأيام ، ما لم ترهم الأحلام ، وجادهم العیان بما یخل به السماع ، وأنجزهم النهم ما أخلفهم الوهم ، ثم التفت فوجدت الأعناق تلتفت وما شعرت إلا بهذا الفاضل وقد طلع فی شملتبه وهب بجملته ، بأوداج ما یسعها الزران ، وعینین فی رأسه تران ، ومشی الى فوق أعناق الناس وجعل یدس نفسه بین الصدور یرید الصدر وقد أخذ المجلس أهله فقلت : یا أبا بکر ترحزح عن الصدر قليلا الى مقابلة أخیک . فقال : لست برب الدار ، فتأمر علی الزوار ! فقلت : یا عافاك الله حضرت لتناظرنی والمناظرة آشتت إماما من النظر أو من النظیر ، فإن کان

اشتقاقها من النظر فمن حسن النظر أن يكون مقعدنا واحداً حتى يتبين الفاضل من المفضول ثم يتناول السابق ويتقاصر المسبوق . ففقت الجماعة بما قضيت ، وغص هذا الفاضل من تلك الحكمة ، وأنحط عن تلك العظمة ، وقابلني بوجهه فقلت : أراك أيها الفاضل حريصاً على اللقاء ، سريعاً الى الهجاء .

”ولو زبنتك الحرب لم تترمرم“ :

ففي أي علم تريد أن نتناظر؟ فأومأ الى النحو، فقلت : يا هذا إن اليوم قد مَتَّعَ والنهار قد أرتفع، والظهر قد أرف، ولئن قرعنا باب النحو أضعنا اليوم فيه، فبأذا يخرج الناس، فعلا هتاف الناس أيهما رد الجواب هناك ما يدرى المحيب . فإن شئت أن أناظرك في النحو فسلم الآن لي ما كنت تدعيه من سرعة في البديهة وجودة في الروية ، وقدرة على الحفظ ونفاذ في الترسل . ثم أنا أجاريك في هذا، فقال : لا أسلم ذلك ولا أناظر في غير هذا، وأرتفعت المضاجعة واستمرت الملاحاة حتى بلغ الأستاذ الفاضل أبو عمر اليه فقال : أيها الأستاذ انت أديب نحاسان وشيخ هذه الديار وهذه الأبواب التي قد عدها هذا الشاب ، كما نعتقد لك النسب والحدق، وتناقلك عن مجاراته فيها مما يتهم ويوهم، وأضطره الى منازلة أو نزول عنها ومقازة فيها أو إقرار بها . فقال : سلمت الحفظ، فأنشدت قول القائل :

ومستأنم كشفت بالريح ذيله أقمت بعضب دى شقاشق ميله
بجفت به في ملتقى الحى خيله تركت عتاق الطير تحجل حوله

وقلت : يا أبا بكر خفف الله عنا في الحفظ فقد كنيتمنا مؤونة الامتحان، ولم نضع وقتاً من الزمان، فلو تفضلت وسلمت البديهة أيضاً مع الترسل حتى نفرع للنحو الذى أنت عليه أكبر واللغة التى أنت بها أعرف والعروض الذى أنت عليه أجراً، والأمثال التى لك فيها السبق والقدم والأشعار التى أنت فيها تقدم، فقال : ما كنت لأسلم النزل ولا سلمت الحفظ، فقلت : الراجع في شئيه، كالراجع في قيئه، لكنا نريك عن ذلك السماح فهات أنشدنا خمسين بيتاً من قبلك مرتين حتى أنشدك عشرين بيتاً من قبلى عشرين مرة، فعلم أن دون ذلك خرط القتاد

تهاب شوكتها اليد فسلمه ثانياً، كما سلمه بادياً، وصرنا الى البديهة، فقال أحد الحاضرين هاتوا على شعر أبي الشيص في قوله :

أبقى الزمان به ندوب عِضاضٍ ورمى سواد قرونه ببياضٍ

فأخذ أبو بكر يخضد، ويحصد، مقدراً أنا نغفل عن أنفاسه، أو نوليه جانب وسواسه ، ولم يعلم أنا نحفظ عليه الكلم ثم نوافقه عليها، فقال :

يا قاضيا ما مثله من قاضٍ أنا بالذي تقضى علينا راض
فلقد لبست ضفية مالمومة من نسج ذاك البارق الفضفاض
لا تغضبني إذا نظمت تنفسا إن الغضا في مثل ذاك تغاض
فلقد بليت بشاعر متقادر ولقد بليت بناب ذئب غاض
ولقد قرضت الشعر فاسمع وأستمع لنشيد شعر طائعا وقراض
فلا غلبني بديهة ببديهي ولأرمني سواده ببياض

فقلت : يا أبا بكر ما معنى قولك ضفية مالمومة وما الذي أردت بالبارق الفضفاض فأذكر أن يكون قاله قافية ، فواقعه على ذلك أهل المجلس وقالوا : قد قلت ! ثم قلت : فما معنى قولك ذئب غاض؟ فقال : هو الذي يأكل الغضا، فقلت : استنوق الجمل يا أبا بكر وأتقلبت القوس ركوة وصار الذئب جملا يأكل الغضا، فما معنى قولك إن الغضا في مثل ذاك تغاض فإن الغضا لا أعرفه بمعنى الإغضاء، فقال : لم أقل الغضا ، فقلت : ما قلت ؟ فأذكر البيت جملة ، فقلت : يا ويحك ما أغناك عن بيت تهرب منه وهو يتبعك، وتنبأ منه وهو يلحق بك فقل لي : ما معنى قراض فلم أسمعه مصدرا من قرضت الشعر ولكن هلا قلت كما قلت وسقت الحشو الى القافية كما سقته؟ فقال : هذه طريقة لم تسلكها العرب فلا أسلكها . ثم دخل الرئيس أبو جعفر والقاضي أبو بكر الحربي والشيخ أبو زكريا الخيري وطبقة من الأفاضل مع عدة من الأراذل فيهم أبو رشيدة، فقلت : ما أحوج هذه الجماعة الى واحد يصرف عنهم عين

(١) الكمال! وأخذ الرئيس مكانه من الصدر والدست وله في الفضل قدم وقدم وفي الأدب هم وهم
وفي العلم قديم وحديث فتم المجلس وظهر الحق بنظره وقال : قد أدعيت عليه أبياتا أنكرها
فدعوني من البديهة على النفس وأكتبوا ما تقولون وقولوا على هذه، فقلت :

برز الربيع لنا برونق مائه	فانظر لروعة أرضه وسمائه
فالترب بين ممسك ومعبر	من نوره بل مائه وروائه
والماء بين مصنل ومكفر	في حسن كدرته ولون صفائه
والطير مثل المحصنات صواح	مثل المغنى شاديا بغنايه
والورد ليس بممسك رياه إذ	يهدى لنا نفحاته من مائه
زمن الربيع جلبت أزكى متجر	وجلوت للرئين خير جلائه
فكانه هذا الرئيس إذا بدا	في خلقه وصفائه وعطائه
بجى أعز محجر وندى أغر	نحجل في خلقه ووفائه
يعشوا اليه المختوى والمجتدى	والمحتوى هو هارب بدمائه
ما البحر في ترخاره والغيث في	إمطاره والحو في أنوائه
بأجل منه مواهباً وרגائباً	لا زال هذا المجد حالف فئائه
والسادة الباقون سادة عصرهم	متمدحون بمدحه وشائنه

فقال أبو بكر تسعة أبيات قد غابت عن حفظنا لكنه جمع فيها بين إقواء وإكفاء ،
وإبطاء ، فرددنا عليه بعد ذلك عشرين رداً ونقدنا عليه فيها كذا نقسدا ، ثم قلت لمن حضر
من وزير ورئيس وفتية وأديب : أرأيتم لو أن رجلاً حلف بالطلاق الثلاث لا أنشد شعراً
قط ثم أنشد هذه الأبيات فقط هل كنتم تطلقون أمراته عليه ؟ ! فقالت الجماعة : لا يقع
بهذا طلاق ! ثم قلت : آتقد على فيما نظمت ، وأحكم عليه كما حكمت . فأخذ الأبيات وقال :
لا يقال نظرت لكذا وإنما يقال : نظرت إليه ، فكفتني الجماعة إجابته ، ثم قال : شبهت الطير

(١) تهكم يذكر بقول الشاعر :

أكان أحوج ذا الكمال إلى عيب يوقيه من العسين

بالمحصنات وأى شبه بينهما؟ فقلت : يا رقيع ، إذا جاء الربيع ، كانت شواذى الأطيّار ،
تحت ورق الأشجار، فيكنّ كأنهنّ المخدرات تحت الأستار . ثم قال لى : لم قلت مثل المحصنات
مثل المغنى، فقلت : هن فى الخدر كالمحصنات وكالمغنى فى ترجيع الأصوات . ثم قال : لم قلت
زمن الربيع جلبت أزكى متجر وهلا قلت أريج متجر؟ فقلت : ليس الربيع بتاجر يجلب
البضائع المربحة . ثم قال : ما معنى قولك الغيث فى إمطاره والغيث هو المطر نفسه فكيف يكون
له مطر؟ فقلت : لا سقى الله الغيث أدبياً لا يعرف الغيث ! وقلت له : إن الغيث هو المطر وهو
السحاب كما أن السماء هو المطر وهو السحاب . وقال الجماعة : قد علمنا أى الرجلين أشعر ،
وأى الخصمين أقدر، وأى البديهتين أسرع ، وأى الرويتين أصنع . فقال أبو بكر : فأسقونى
على الظفر . فقالوا : كفالك ما سقاك ! ثم ملنا الى الترسل ، فقلت : اقترح على غاية ما فى طوقك ،
ونهاية ما فى وسعك ، وأختر ما تبلغه بذرعك حتى أقترح عليك أربعمائة صنف فى الترسل
فإن سرت فيها برجلين ولم أطر ببحاحين ، بل إن أجسنت القيام بواحد من هذه الأصناف
ولم تخاف كل الإخلاف فلك يد السبق وقصبه ومثال ذلك أن قول لك : اكتب كتاباً يقرأ
منه جوابه هل يمكنك أن تكتب؟ أو أقول لك : اكتب كتاباً على المعنى الذى أقترح لك وأنظم
شعراً فى المعنى الذى أقترح وأفرغ منهما فراغاً واحداً ، هل كنت تمد له ساعداً؟ أو أقول لك
اكتب كتاباً فى المعنى الذى أقول وأنص عليه ، وأنشد من القصائد ما أريده من غير تناقل
ولا تغايل حتى إذا كتبت ذلك قرئ من آخره الى أوله وانتظمت معانيه إذا قرئ من أسفله ،
هل كنت تفوق لهذا الغرض سهماً ، أو تجيل قدحاً ، أو تصيب نجحاً؟ أو قلت لك : اكتب
كتاباً إذا قرئ من أوله الى آخره كان كتاباً ، فإن عكست سطره مخالفة كان جواباً . هل كنت
فى هذا العمل وارى الزند ، قاصد القصد؟ أو قلت لك : اكتب كتاباً فى المعنى الذى يقترح
ولا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدم الكلمة أو دال ينفصل عن الكلمة بديهة ولا يجم
فيها قلبك ، هل كنت تفعل؟ أو قلت لك : اكتب كتاباً خالياً من الألف واللام تصب
معانيه على قالب ألفاظه ولا تخرجه عن جهة أغراضه ، هل كنت تقف من ذلك موقفاً
مدوحاً أو يبعثك ربك مقاماً محموداً؟ أو قلت لك : اكتب كتاباً يخلو من الحروف العواطل ،

هل كنت تحظى منه بطائل ، أو تبلى لمالك بناطل؟ أو قلت لك : اكتب كتابا أوائل سطورده كلها ميم وآخرها جيم ، على المعنى الذى يقترح ، هل كنت تغلوفى قوسه غلوة ، أو تخطو فى أرضه خطوة؟ أو أقول لك : اكتب كتابا إذا قرئ معرجا وسرد معوجا كان شعرا هل كنت تقطع فى ذلك شعرا؟ بلى والله تصيب ولكن من بدئك ، وتقطع ولكن من ذقك! أو أقول لك : اكتب كتابا إذا فسر على وجه كان مدحا وإذا فسر على وجه كان قدحا . هل كنت تخرج من هذه العهدة؟ أو قلت لك : اكتب كتابا إذا كتبه تكون قد حفظته ، من دون أن لحظته ، هل كنت تثق من نفسك به الى مالا أطاولك بعده ، بل آست البائن أعلم؟! فقال أبو بكر هذه الأبواب شعبة ، فقالت : وهذا القول طرمدة! فما الذى تحسن أنت من الكتابة وفنونها ، حتى أباحثك على مكنونها ، وأكاثرك بمخزونها ، وأشبر فيها قلبك ، وأسبر فيها لسانك وفك ، فقال : الكتابة التى يتعاطاها أهل الزمان المتعارفة بين الناس ، فقلت أليس لا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة وهذا النوع الواحد المتداول لكل قلم ، المتناول بكل يد وفم ، ولا تحسن هذه الشعبة؟ فقال نعم . فقلت : هات الآن حتى أطاولك بهذا الحبل وأناضلك بهذا النبيل ، ثم تقاس ألفاظى بألفاظك ، ويعارض إنشأى بإنشائك . وأقترح كتاب يكتب فى النقود وفسادها والتجارات ووقوفها والبضاعات وأنقطاعها والأسعار وغلاتها .

فكتب أبو بكر بما نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم

” الدرهم والدينار ثمن الدنيا والآخرة ، بهما يتوصل الى جنات النعيم ، ويخلد فى نار الجحيم ، قال الله تبارك وتعالى : خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم . وقد بلغنا من فساد النقود ما أكبرناه أشد الإكبار ، وأنكرناه أعظم الإنكار ، لما نراه من الصلاح للعباد ، وننويه من الخير للبلاد ، وتعرفنا فى ذلك ما يرجح للناس فى الزرع والضرع ، ويعود اليه أمر الضر والنفع “ .

الى كلمات لم تعلق بحفظنا .

فقلت : إن الإبحار والإنكار والعباد والبلاد وجنات النعيم ونار الجحيم والزرع والضرع
أشجاع قد نبئت في المعد ، ولم تزل في اليد ، وقد كتبت وكتبت ، ولا أطالبك بمثل
ما أنشأت فأقرأ ولك اليد . وناولته الرقعة فبقي وبقيت الجماعة وبهت وبهتت الكافة وقالوا لي :
اقرأ ، بغللت أقرؤه منكوسا وأسرده معكوسا والعيون تزرق وتحار وكانت نسخة ما أنشأناه .

بسم الله الرحمن الرحيم

• الله شاء إن المحاضر ، صدور بها وتملأ المنابر ، ظهور لها وتفرع الدفاتر ، وجوه بها
وتمشق المحابر ، بطون لها ترشق ، آثارا كانت فيه آمالنا مقتضى على أياديه ، في تأييده الله أدام
الأمير جرى فإذا المسامحين ظهور عن الثقل ، هذا ويرفع الدين ، أهل عن الكل ، هذا يحيط أن
في اليه نتضرع ونحن واقفة ، والتجارب زائفة ، والنقود صيارفة ، أجمع الناس صار فقد كريما
نظرا لينظر شيه ، مصاب وانجبنا كرمه ، بارقة وشمناهمه على آمالنا رقاب وعلقنا أموالنا ،
وجوده وكشفنا آمالنا وفود اليه بعثنا فقد نظره بجمل يتداركنا أن ونعماءه تأييده وأدام بقاءه الله
أطال الجليل الأمير رأى إن وصلى الله على محمد وآله الأخيار^(١) .

فلما فرغت من قراءتها انقطع ظهر أحد الخصمين وقال الناس قد عرفنا الترسل أيضا
فلما إلى اللغة ، فقلت : يا أبا بكر هذه اللغة التي هددتنا بها وحدثنا عنها وهذى كتبها وتلك
مؤلفاتها نخذ غريب المصنف إن شئت وإصلاح المنطق إن أردت والفاظ ابن السكيت إن
نشئت ومجل اللغة إن اخترت فهو ألف ورقة وأدب الكاتب إن أردت ، وأقترح على أي

(١) هذا الخطاب في ظاهره مقلد ، ولكنه يقرأ من عكسه بسهولة فيقال :

« إن رأى الأمير أطال الله بقاءه ، وأدام تأييده ونعماءه ، أن يتداركنا بجمل نظره ، فقد بعثنا إليه وفود آمالنا ،
وكشفنا له وجوده أحوالنا ، وعلقنا رقاب آمالنا على همه ، وشمنا بارقة كرمه ، وانجبنا مصاب شيه ، لينظر نظرا كريما ،
فقد صار الناس أجمع صيارفة ، والنقود زائفة ، والتجارب واقفة ، ونحن نتضرع اليه في أن يحيط هذا الكل عن أهل
الدين ويرفع هذا الثقل عن ظهور المسلمين ، فإذا جرى الأمير أدام الله تأييده في أياديه ، على مقتضى آمالنا فيه ،
كانت آثارا ترشق لها بطون المحابر ، وتمشق بها وجوه الدفاتر ، وتفرع لها ظهور المنابر ، وتملأ بها صدور المحاضر
إن شاء الله . »

باب شئت من هذه الكتب حتى أجعله لك نقدا، وأسرده عليك سردا ، فقال : اقرأ من غريب المصنف رجل ماس ، خفيف على مثال مال وما أساءه ! فاندفعت في الباب حتى قرأته فلم أتردد فيه ، وأتيت على الباب الذي يليه ثم قلت أقترح غيره ، فقالوا : كفى ذلك فقلت له : اقرأ الآن باب المصادر من أخبار فصيح الكلام ولا أطلبك بسواه ولا أسالك عما عداه ، فوقف حماره ، وحمدت ناره ، وقال الناس اللغة مسلمة لك أيضا فهاتوا غيره ، فقلت : يا أبا بكر هات العروض فهو أحد أبواب الأدب وسردت منه خمسة أبحر بألقابها وأبياتها وعلمائها وزحافها ، فقلت : هات الآن فاسرده كما سردته فلما برد ضجر الناس وقاموا عن المجلس يفدونني بالأهتات والأب ، ويشيعونه باللعن والسب ، وقام أبو بكر فغشي عليه وقمت اليه فقلت :

يعز عليّ في الميدان أنى قتلت ماسي جلدًا وقهرا
ولكن رمت شيئا لم يرمه سواك فلم أطق ياليت صبرا

وقبلت عينيه ومسحت وجهه وقلت : أشهد أن الغلبة له فهلا يا أبا بكر جئتنا من باب الخلطة وفي باب العشرة ؟ وتفرق الناس وحبسنا للطعام ، مع أفاضل ذلك المقام ، ولما حلقتنا على الخوان ، كرعت في الجفان ، وأسرعت الى الرغفان ، وأمعنت في الألوان ، وجعل هذا الفاضل يتناول الطعام بأطراف الأظفار ، فلا يأكل إلا قضمًا ، ولا ينال إلا شما ، وهو مع ذلك ينطق عن كبد حرّى ويفيض عن نفس ملاى ، فقلت : يا أبا بكر بقيت لك منة وفيك مسكة :

يا قوم انى أرى الأموات قد نشروا والأرض تلفظ موتاكم إذا قبروا

فأخبرني يا أبا بكر لم غشّى عليك ؟ فقال : لحى الطبع وحى الفرو ، فقلت : أين أنت من السجع ، هلا قلت حى الطبع وحى الصفع ! وقال السيد أبو القاسم : أيها الأستاذ أنت مع الجد والهلزل تغلبه ، فقلت : لا تظلموه ولا تطعموه طعاما يصير في بطنه مغصا ، وفي عينه رمصا ، وفي جلده برصا ، وفي حلقه غصصا ! فقال أبو بكر : هذه أسجاع كنت حفظتها فقل كما أقوله : يصير في عينك قذى ، وفي حلقك أذى ، وفي صدرك شبي ! فقلت : يا أبا بكر على

الألف تريد؟ خذ الآن: بفيك البراء، وعلى حامك الثرى، ولا أطعمك الخ... إلا من وراء، كما ترى فقال: أيها الأستاذ السكوت أولى بك ومالوا الي وقالوا:- ملكت فأصبح! فأبى أبو بكر أن يبقى لنفسه حمة لم ينفضها، أو يدخر علينا كلمة لم يعرضها، فقال: والله لأتركك بين الميآت، فقلت: ما معنى الميآت؟ فقال: بين مهزوم ومهذوم ومهشوم ومغموم ومحموم ومرجوم، فقلت، وأتركك بين الميآت أيضا بين الهيام والصدام والجذام والحمام والزكام والسام والبرسام والحمام والسقام وبين السيئات فقد علمتنا طريقة بين منحوس منخوس منكوس معكوس متعوس محسوس معروس وبين الخلاآت فقد فتحت علينا بابا بين مطبوخ مشدوخ منسوخ مسوخ مفسوخ وبين البآآت فقد علمتني الطعن وكنت ناسيا بين مغلوب ومسلوب ومرعوب ومصلوب ومركوب ومنكوب ومنهوب ومغضوب. وإن شئنا كلنا بهذا الصاع، وطاولنا بهذا الذراع، وعرضنا عليك من هذا المتاع، وكأثرناك بهذه الأنواع، ثم خرجت واحتجرت فقد كان اجتمع الناس وغلث الكروش، ولما خرجت لم يلقوني إلا بالشفاه تقييلا، وبالأفواه تجييلا، وانتظروا خروجه الى أن غابت الشمس ولم يظهر أبو بكر حتى حضره الليل بجنوده وخلع الظلام عليه فروته.

فهذا ما علقناه عن المجلس وأديناه، والسيد أطلال الله بقاءه يقف عليه إن شاء الله.

١٦ - نمر بديع الزمان

١ - أول ميزة لبديع الزمان أنه يشعرك بفهمه للحياة ، فهو يتحدث عن أشجان وأغراض هي في جميعها ألوان للنفوس الانسانية . وإذا كان هناك كتاب يخاطبك بما لا تفهم لأنهم يتحدثون عن نفس بعيدة عن نفسك ، وقلب أجنبي عن قلبك ، فإن بديع الزمان يطالعك بطائفة من الأزمات النفسية والروحانية هي أزماتك أنت لو درست نفسك وتطلعت الى وجدانك ، وهذا هو السر في أن بديع الزمان لا يزال أديبه حيا ، ولا تزال آراؤه وأفكاره قريبة منا على بعد العهد وتعاقب الأجيال . ومن العجب أننا نتقبل منه الزهو والخيلاء لأننا نشعر أنه في زهوه وخیلائه لا يكذب ولا يمين . ولننظر كيف يقول :

”فاني وإن كنت في مقتبل السن والعمر ، قد حلبت شطرى الدهر ، وركبت ظهري البحر ، ولقيت وفدى الخير والشر ، وصاغت يدي النفع والضر ، وضربت إبطى العسر واليسر ، وبلوت طعمي الحلو والمر ، ورضعت ضرعى العرف والنكر ، فما تكاد الأيام تريني من أفعالها غريبا ، أو تسمعي من أحوالها عجيبا . ولقيت الأفراد ، وطرحت الآحاد ، فما رأيت أحدا إلا ملأت حافتي سمعه وبصره ، وشغلت حيزي فكره ونظره“ .^(١)

٢ - وهذه الفقرة تمثل شعوره بأرزاء الدهر ونكبات الحياة ، وتمثل حرصه على أن يشغل البارزين من معاصريه . وقد كانت لبديع الزمان غضبات تظهر فيها فورات نفسه وهي مضطربة متأججة ، فترى في كتاباته صورة نفسه وهي تتوذب كما تتوذب ألسنة الجحيم ، كقولہ في خليفة أبي نصر الميكالى بهراة :

«وحدثت عن هذا الخليفة ، بل الجيفة ، أنه قال : قضيت لفلان خمسين حاجة منذ ورد ، هذا البلد ، وليس يقنع ، فما أصنع ؟ فقلت يا أحق إن آستطعت أن ترانى محتاجا فاستطع

أن أراك محتاجا إليك، أف لقولك وفعلك ، ولدهر أحوج لمثلک ! » ولتأمل التأسرئ
« ان استطعت أن ترانى محتاجا فاستطع أن أراك محتاجا إليك » فانه غاية فى التهمك اللذاع .

وفى مثل هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

« هذا الخليفة يزعم أنى طعام ، فلا والله إن لحمى حرام ، وفيه عروق وعظام ، ولو كنت
طعاما لكنت الأكلة التى تمنع الأكلات ... ومن شتمنى من خلف ، بخراؤه مائة ألف ، وإذا
انتهت الدعوة الى فقد عزل عزرائيل ، ولم يبق فى ولايته إلا قليل ، والله ما يصلح لحمى للقديد ،
ولا يحسن فوق الثريد ، وإنه ليا بى فى المضغ ، وينشب فى الخلق ، ويقلق فى البطن ، ولا
يخرج من المعى إلا مع الأمعاء . وكانوا لا يصيدون ابن آوى ، وإن كانوا شهاوى » .^(٢)

٣ — وكان بدیع الزمان شديد الخقد على أبى بكر الخوارزمى ، وكان لذلك مغرما بالنيل
منه والوقوع فيه ، ومرض الخوارزمى ، فكتب أحد أصدقاء بدیع الزمان يهنئه بمرض عدوه
فغضب لذلك ورأى فى هذه التهئة لؤما لا يرضى عنه كرمه ، ولا يغفر مثله نباه ، وقذف
صديقه ذاك بالكلمة الآتية :

«الحر، أطل الله بقاءك، لا سيما اذا عرف الدهر معرفتى، ووصف أحواله صفتى،
اذا نظر علم أن نعم الدهر ما دامت معدومة فهى أمانى، فإن وجدت فهى عوارى، وأن
محن الزمان وإن مطلت فستند، وإن لم تصب فكأن قد، فكيف يشمت بالحنة من لا يأمنها
فى نفسه، ولا يعدمها فى جنسه؟ والشامت إن أفلت فليس يفوت، وإن لم يمت فسيموت،
وما أقيح الشامت، بمن أمن الإمامة، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة، وعقب كل لفظة.
والدهر غرثان طعمه الخیار، وضمان شربه الأحرار، فهل يشمت المرء بأنياب آكله، أم
يسر العاقل بسلاح قاتله؟ وهذا الفاضل شفاء الله وإن ظاهرناه بالعداوة قليلا، فقد باطناه
ودا جميلا، والحـر عند الحمية لا يصطاد، ولكنه عند الكرم يتقاد، وعند الشدائد تذهب

الأحقاد، فلا تتصور حالى إلا بصورتها من التوجع لعلته، والتحزن لمرسته، وقاد الله المكروه، ووقانى سماع السوء فيه، بحوله ولطفه» .

وهذه الرسالة من أعلى الرسائل فى أسلوبها، وموضوعها، وله رسالة تشبهها كتبها الى أبى حامر الضبي يعزیه فى بعض أقاربه وفيها يقول :

« أحسن ما فى الدهر عمومہ بالنوائب، وخصوصه بالרגائب، فهو يدعو الجفلى اذا ساء، ويختص بالنعمة اذا شاء، فلينظر الشامت فان كان أفلت، فله أن يشمت، ولينظر الانسان فى الدهر وصروفه، والموت وصنوفه، من فاتحة أمره، الى خاتمة عمره، هل يجد لنفسه، أثرا فى نفسه، أم لتدبيره، عوناً على تصويره، أم لعمله تقدماً لأمله، أم لحيله، تأخيراً لأجله ؟ كلا بل هو العبد لم يكن شيئاً مذكوراً، خلق مقهوراً، ورزق مقدوراً، فهو يحيا جبراً، ويملك صبراً . وليتأمل المرء كيف كان قبلاً، فان كان العدم أصلاً، والوجود فضلاً، فيعلم الموت عدلاً. والعاقل من رفع من حوائل الدهر ماساء ليذهب ماضر بما نفع، وإن أحب أن لا يحزن فلينظر يمينه، هل يرى إلا محنة، ثم يعطف يسرة، هل يرى إلا حسرة ؟ ومثل الشيخ الرئيس من تفتن لهذه الأسرار، وعرف هذه الدار، فأعد لتعيمها صدراً لا يملأه فرحاً، ولبؤسها قلباً لا يطيره جزعاً، وصحب الدهر برأى من يعلم أن للنعمة حداً، وللعارية رداً . ولقد نعى الى أبو قبيصة قدس الله روحه، وبرد ضريحه، فبرضت على آمال قعودا، وأمانى سودا، وبكيت والسخرى بما يملك، وضحكت وشر الشدائد ما يصحك، وعصفت الإصبع حتى أدبته، وذمت الموت حتى تمنيته، والموت خطب قد عظم حتى هان، وأمر قد خشن حتى لان، ونكر قد عم حتى عاد عرفاً، والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها، وجنت حتى صار أصغر ذنوبها وأضمرت حتى صار أيسر غيوبها، وأبهمت حتى صار أظهر عيوبها . انخ » .

٤ - وهذه الرسالة تعطينا صورة من نفس ذلك الرجل الحساس . فهو هنا يدرس قيمة الانسان وينتهى بالدرس الى أنه أثر ضئيل بين آثار الوجود، فقد خلق من حيث لا يريد، ورزق من حيث لا يحتسب . فهو بهذا العربة صغيرة فى يد القدر برفعها حين يشاء، ويرى بها فى الفناء حين يشاء .

ولا يقف بديع الزمان عند هذا الحد، وإنما يمضى فيدعوك الى سياسة نفسك، فيحدثك بأن من العقل أن تجسم حسنات الدهر لتضوّل بجانبها سيئاته، ويروضك على أن تنظر حواليك لترى أن لكل إنسان نصيبه من بأساء الحياة، ويدعوك الى أن تعد لنعم الدنيا صدرا لا يملؤه الفرح، وقلبا لا يطيره الجزع، وتلك هى السياسة الرشيدة عند من يفقهون .

وقد أعطانا البديع فى هذه الرسالة أجمل صورة للجزع عند فقد الأعزاء، فقد أضحكك الحزن وأبكاه، وحدثنا بأنه بكى لأن البكاء غاية ما يملك الحرفى رد العزيز المفقود، وأنه ضحك لأن الشدائد المرة ترمى المحزون بقهقهة المجانين . وقد وصل البديع الى قرار الحكمة حين حدثنا بأن الموت خطب قد عظم حتى هان، ووصل الى أسمى غايات الخيال حين حدثنا بأن الدنيا أبهمت حتى صار الموت أظهر مافيه من العيوب . وهو بهذا ينظر الى الوجود وكأنه عدو فاجر لا ينتهى ما لديه من الشؤم الميئى والشر المستطير .

هـ - لكن هذه السباحة النفسية ليست سمة غالبية فى بديع الزمان ، فهو فى أكثر الأحوال رجل ما كرخيى، ومقاماته تنهى الى فلسفة واحدة هى السخرية من العالم واقتناص ما يملكون بشتى الحيل والمداورات من غير تورع ولا استحياء . ففى المقامة الأصفهانية يحتال أبو الفتح الاسكندرى فيحتجز المصلين فى المسجد ولا يزال بهم حتى يملأ جيبه ثم يقول فى السحر من أولئك المتصدقين :

الناس حُمْرٌ بِفَوْزٍ وَأَبْرَزَ عَلَيْهِمُ وَبَرَزَ
حتى اذا نلت منهم ما تشتهيه ففروز

وفى المقامة المكفوفية ينشد أبو الفتح بعد أن يصل الى بغيته وقد تعامى طلبا لئال :

أنا أبو قلمون^(١) فى كل لون أكونُ

إختر من الكسب دونا فان دهرك دون

زج الزمان بمحق^(٢) إن الزمان زبون

(١) أبو قلمون ثوب ررمى من الأبريسم يظهر للعين فى ألوان مختلفة بصنائه . (٢) الزبون : الناقصة التى تدفع بثغرات رجلها عند الحلب .

لا تكذبن بعقل ما العقل إلا جنون

وفي المقامة القزوينية يعترف أبو الفتح بأن النسبة صورة من صور المنافع ويقول :

أنا حالي من الزمان كحالي من النسب

نسبي في يد الزمان إذا سامه أنقلب

أنا أمسى من النبى ط وأضحى من العرب

وفي المقامة الساسانية يقول :

هذا الزمان مشوم كما تراه غشوم

الحسق فيه مليح والعقل عيب ولوم

والمال طيف ولكن حول اللثام يحوم

وهذه الأبيات تمثل حقه على الأغنياء، ورميه إلى أن كل غنى لثيم، ومثل هذا قوله

في المقامة البصرية :

الفقر في زمن اللثام لكل ذى كرم علامة

رغب الكرام إلى اللثام م وتلك أشرار القيامة^(١)

٦ - والذي يتصفح رسائل بديع الزمان ومقاماته يراه في أكثرها يحارب معاصريه

من الكتاب والرؤساء، ولا يقع نظره على الجوانب الطيبة من حياة الناس إلا قليلا . ولا يمكن

أن تكون لبديع الزمان سياسة نفسية غير تلك الخطبة الصاخبة التي ألفها في حياته وهي العنف

المطبق في البحث عن أسباب الغنى والجاه . ومن دلائل حقه وبغيه أن واليا عزل

وكتب إليه بعد عزله يستميل فؤاده، فكتب إليه البديع يؤنبه ويصوره بصورة المعشوق الذي

انقضت أيام حسنه ولم تبق منه بقية يستميل معها الدلال . فمن تلك الرسالة قوله :

(١) وقد تهكم بديع الزمان بالأدب وأهله عيرمة . راجع ص ٣٩٦ حيث ترى أنه يرى الأدب واللغة والتفسير

ضروبا من الحسق « لا يبيع بها ذو عقل باقة بقل » وفي ص ٢٢٢ يرى أنه لا قرابة بين الأدب والذهب وأن الأدب

لا يمكن ثرده في قصعة ، ولا صرفه في ثمن سلعة ، الخ .

”تناسيت أيامك إذ تكلما نزرا، وتلحظنا تنزرا، وتجالس من حضر، ونسترق اليك النظر، ونهتر لكلامك، ونهش لسلامك . فأقصد الآن فانه سوق كسد، ومتاع فسد، ودوله عرضت، وأيام آنقضت :

وعهد نفاق مضى وخطب كساد نزل
وخد كان لم يكن وخط كان لم يزل

ويوم صار أمس، وحسرة بقيت في النفس، وثغر فاض مأؤه فلا يرشف، وريق خدع فلا ينشف، وتمايل لا يعجب، وتث لا يطرب، ومقلة لا تجرح الحاظها، وشفة لا تفتن ألقاظها! وقد بلغني الان ما أنت متعاطيه من تمويه يجوز بعد الفلق، في الذسق... وإفانك لتلك الشرعات حقا وحصا . وسيكفيها الدهر مؤونة الانكار عليك، بما يرف من بنات الشعر وأمهاته اليك .

ما يفعل الله باليهود ولا بعاد ولا ثمود
ولا بفرعون إذ عصاه ما يفعل الشعر بالحدود^(١)

وهي رسالة طويلة اكتفينا منها بهذه الفقرات، وقد تأثر بهذه الرسالة وحاكاها في أسلوبها وموضوعها جماعة من الكتاب أشهرهم في المتقدمين أبو المغيرة الوزير عبد الرحمن بن حزم الأندلسي^(٢) وأشهرهم في المتأخرين المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويز .

٧ -- ولو كان لبديع الزمان غرض يرمى اليه في مجموع كتاباته لوصل الى أبعد حد من حدود النجاح لأنه أبرع من حمل القلم بين أهل عصره، ولا نعرف كاتباً التزم السجع ووفق الى الدقة والرشاقة والعذوبة كما وفق بديع الزمان . والقاعدة التي اختارها أساساً لفلسفته وهي سوء الظن بالناس تلاشى أثرها في مقاماته لأنه أعطى لبطل تلك المقامات صورة مشوّهة هي صورة الاستجداء، ثم التزم منها واحداً لا يختلف إلا قليلاً بحيث لا يبدأ القارئ إلا وهو يعلم ما ستتهى اليه المقامة .

ومهما يكن من شيء فلن يمكن نكران ما وفق اليه بديع الزمان من نقد طائفة كبيرة من خصال اللؤم والنفاق والضعفة والإسفاف، وما الى ذلك من الهنات التي يوصم بها من تساعدهم الظروف على التغلب والاستعلاء، ثم لا يكونون في أنفسهم وفي سلوكهم إلا برحانا على فساد الحياة ونقص الأحياء .

١٧ - عبد العزيز بن يوسف

١ - كان أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف كما وصفه الثعالبي «أحد صدور المشرق»^(١) وفسان المنطق» وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه معدودا في وزرائه، وخواص ندمائه، وتقلد الوزارة بعده لأبنائه^(٢). وكان الصاحب بن عباد يقول: كتاب الدنيا أربعة: الأستاذ ابن العميد وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف وأبو إسحاق الصابى، ولو شئت لذكرت الرابع، يعنى نفسه^(٣).

وجملة أخباره تدل على أنه كان في زمانه من أعلام الكتاب.

٢ - ويظهر مما أثر من أخلاقه أنه كان رجلا كريم النفس. وقد شفع لأبي إسحاق الصابى عند عضد الدولة في ساعة غضب، وتفصيل ذلك أن قوما سعوا لإخراج الصابى من السجن فقال عضد الدولة «قد سوغته نفسه: فان عمل كتابا في مآثرنا وتاريخنا أطلقته» فشرع الصابى في محبسه في تأليف كتاب في أخبار بني بويه، وقيل إن بعض أصدقائه دخل عليه الحبس وهو في تبييض الكتاب وتسويده فسأله عما يعمل فقال: أباطيل أنعمتها، وأكاذيب ألقها» فخرج الرجل وأنهى ذلك إلى عضد الدولة - ودسأس الأصدقاء كثيرة يمانها الأحرار في جميع الأزمان! - فأمر عضد الدولة بإلقاء الصابى تحت أرجل الفيلة، فأكب أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ونصر بن شارون على الأرض قبلانها ويسفعون إليه في أمره حتى أمر^(٤) بأسنحيائه.

٣ - والظاهر أن صلبه بالصاحب والصابى كانت صلة ودا، ورسائله إلى الصاحب كثيرة، ولكن تغلب عليها صفة التودد المنسوب بالتملق. أما رسائله إلى الصابى فتفيض بالعطف والحنان.

١ (١) البيهقي ج ٢ ص ٧٦ (٢) البيهقي ج ١ ص ٨٧ (٣) ياقوت ج ١ ص ٣٢٨ (٤) ياقوت ج ١ ص ٣٢٥ (٥) راجع هذه الرسائل في البيهقي ج ٢ ص ٩٢ - ٩٤

وأنظر هذه الرسالة :

« وصل كتاب مولاي بما قرب الى جناده ، وبعد على مداه ، من محاسن لفظه ونظمه ، ومبازه التي ما يزال يؤثرني فيها بالغايب ، ويصفيني منها بالعقائل . فوقفت منه بين اعتبار واقتباس ، واعتدار وأغتراب ، وأستبصار في موضع الفضيلة ، وشكر لما جمع الله لي في وده من المنح الجزيلة ، ووجدت خطابه مفتتحا بشكوى الأيام في انحرافها ، ومكاره أحداثها ، فاستوحشت منها لاستيحاشه ، وأستعدت عليها لاستعداداته . وشايعت المهجين لاثارها ، والزارين على أحكامها ، لاعتراضها دون آماله ، وقدحها في أحواله ، ولم يستبق الجمال لنفسه والفضل لأهله ، دهر أناخ على مولاي بصرفه ، وأخترله دون واجب حقه » .

٤ — وتمتاز رسائله في الاخوانيات بترصيعها بحبات شعره ، فقد ابتدأ إحدى رسائله

الى صاحب بهذه الأبيات :

كتاب لو أن الليل يرمى بمثله لألقت يدا في حجرتيه ذكاء
تهادى بأبكار المعاني وعونها وأعيان لفظ ما هن كفاء
شواهد لولا أنهم أوالف ضرائر إلا أنهم سواء
لبسنا بها نعي وألبست الربا خمائل روض جادهن سماء
بنان ابن عباد تعلين نوءه وما صوبه إلا حيا وحياه

(٢)

وثلاث كتب تناظرت في الحسن والاحسان ، وتقابلت في البر والإنعام ، لا زالت أياديه

(٣)

قلائد الأعناق ، ومراميه مضامير السباق ، ولا آنفكت عين الله حامية له ، وكافلة به .

ويظهر أن الصابي كان كذلك يرصع رسائله بالشعر بدليل قول أبي القاسم من رسالة ثانية :

« وقفت على الابيات التي أتخفى بها سيدي ، وتكلفت لجوابها على ظلع في خاطري لطول

السفار ، وأتصال حالي بالحل والترحال . ومولاي يأخذ العفو ويرضى بالميسور ، ويعذر

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٩٤ (٢) معطوف على (حيا وحياه) وبذلك يتبين القارئ مهارة الكاتب في وصل

الشعر بالنثر في سياق واحد . (٣) اليتيمة ج ٢ ص ٩١

مستأنفا على التقصير في جواب ما يأتيني من أمثاله ، مادمننا في ملكة الذواجر، وتعب البكر^(١)
والأصائل» .

٥ — ومن الفنون البارزة عند أبي القاسم وصف الرسائل الاخوانية ؛ كقوله في وصف رسالة للصابي :

«عرفت كيف تنتظم فرق البلاغة ، وتلتقي طرف الخطابة ، وتترأى أشخاص البيان ،
وثمائل أعطاف الحسن ، والاحسان ، وقرأت لفظا جليبا ، حوى معنى خفيا ، وكلاما قريبا ،
رمى غرضا بعيدا ، وفصولا متباينة كساها الائتلاف صور المشاكلة ، ومنحها الامتراج صيغة
المضارعة ، ولحمة الموافقة ، فصارت لدلالة الأقول منها على الثاني ، وتعلق العجز فيها بالهادي ،
أولاد أرحام مبرورة ، وذوات قربي موصولة ، تتعاطف عيونها ، وتتناصف أبكاها وعونها» .^(٢)

٦ — وعند تأمل رسائله نجده يحسن الوصف . كقوله من كتاب له الى الصاحب في فتح عمان وإبادة الزنوج بها وما وصل الى عضد الدولة من المغائم :

« ... وكانت لأولئك الكفرة عادة أشتهرت منهم في استباحة الناس وأكل لحومهم ،
وبلغ من كلبهم على ذلك أنهم كانوا ينتقلون بينهم اذا شربوا بأكف الناس ، وسأل مولاى
عن هذا الثقل الغريب فحكى لى عنهم أنه لا شيء فى الانسان ألد من كفه وبنانه ، وكان
فى ذلك اليوم الذى شارف فيه طلائع العسكر المنصور باب عمان ثار من بعض المكامن
طوائف من أولئك الكلاب فكبأ ببعض العلمان دابته فأختاسوه وأقتسموه بينهم وأكلوه
فى الوقت ، وتعجب الناس من ضراوتهم وقساوتهم ، وقد أبادهم الله تعالى جده ، وطهر البر والبحر
من عيشهم ومعرتهم ، فأنقاد أهل جبال عمان باخعين بالطاعة ، معتمسين بذمة الجماعة ، وتمت
نعمة الله على مولانا فى هذا الفتح ، وجلت له مقام الأجر ، ووصل أمس غنائم تلك الناحية
وفىها فيل صغير بقت الفرس ما عرف ألطف ولا أظرف منه ، وفى الغنائم كل ما تشتهى

الأنفس وتلد الأعين . والله تعالى يحني مولانا ثمار الأرض برا وبحرا، وسهلا وجبلا،
بمنه وكرمه . آمين .“

٧ — وكانت له بحكم منصبه جولات في الرسائل السلطانية، تذكر منها قوله من كتاب
عن الطائع لله إلى ركن أسوة لما ورد عضد الدولة العراق :

”فأنت وعضد الدولة — كلاهما الله ! — يدا أمير المؤمنين فيما يأخذ ويذر ، وناظرهما
فيما يقرب ويبعد ، بكما أترش مهاد الملك بعد قضاءه ، ورفع منار الدين بعد انتفاضه ، فأبشرا
من الله تعالى بالحسن ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين“ .^(١)

ومن كتاب عن عضد الدولة في عود الطائع إلى بغداد والتقاءه معه :

”ولما ورد أمير المؤمنين بالنهر وان أتم بالاذن لنا في تنقيه على الماء ، فامتنناه وتقبلناه
وتتنا من عوائد كرمه ، ونفدت شيمه ، واختال الواعدة بجيمل آرائه ، وعواطف أنجائه ،
ورعاية ما كشتنا منه ، وشايعة عزده ، اني أن وصلنا إلى حضرته البهية ، في الجديدية ، التي
استقبلت منه بسيل الملك ، وقعيد الخلافة ، وسيد الأزم ، والمستنزل بوجهه در الغمام ، فتكفأت
علينا ظلال نوره وبشده ، وغرنا جيات تفضله وفضله ، وقرب علنا سن خدمته ، وأذلنا
شرف القعود بين يديه ، على كرسي امر بنصبه لنا عن يمينه ، وأمام دسته ، وأوسعنا من جميل
لقياده ، وكريم نجهاده ، ما يسيم بالعرز أغثال النعم ، ويضمن الشرف في النفس والعقب ، ويكفل
من التور في الدين والدنيا بغايات الأمل . وكان لنا في الوصول إليه ، والقعود بين يديه ،
في مواقع الحفاظه ، وموارد ألفاظه ، مراتب لم يعطيا أحد فيا سلف ، ولم تجد الأيام بمثلا
لمن تقدم“ .

٨ — وليس بين أيدينا من أخباره ورسائله ما يعطينا صورة صحيحة من نفسه
وأخلاقه ، والذي يمكن الجزم به أنه كان دقيق العبارة رصين الأسلوب ، وإلى القارئ هذه
الكلمات مقتبسة من رسائله القليلة التي أعثاها الزمان من الضياع .

”وأجنهم الليل فادرعوه مقتادين بخزائم أنوفهم، الى مصارع حتوفهم“ .

”سار الى سدة دار الخلافة والسعود تشايه، والميامن توابه، وطلائع الآمال تشرف عليه، وثغر الاسلام يتسم اليه“ .

”وقد كان الغضنفر بن حمدان حين نفضته المذاهب، ولفظته المهارب، وأقلقتة عن مجاثمه المكائد والكائب، تطوع الى بلاد الشام يتنقل بين مصارع يحسبها مراتع، ومجاهل يعدها معالم، يروم آتعاشا واجلد خاذله، ويبغى آتياشا والبغى طالبه“ .

”ولما ضاق عن هذا المخدول حملنا باتساع غوايته، ووعر الطريق الى أستبقائه، استخرنا الله تعالى في استرجاع ما ألبسناه من النعم“ .

”إن الله سائلك عن الخطرة والخطفة، والخطفة واللفظة“ .

”أدرع من ثوب عفافك، ما يشمل كافة أطرافك“ .

”أحذروا أن ينقلكم الله بأقدامكم، الى مصارع حمامكم“ .

”التقوى هى العدة الواقية، والجئنة الواقية، والتجارة الراجحة، والسعادة السانحة، والجلء للشبهة، والضياء للغمه“ .

”سيعيض الله من حرّ الهواجر برد الظلال، ومن قلق الركاب، نجيح الإياب“ .

”أيقظوا قلوبكم من سنة الخواطر، وأحبسوا ألباطم عن مشغور المناظر“ .

الفهرس الفصل

الباب الرابع كتاب النقد الأدبي

صفحة	صفحة
٢٢ أثر الخلقة الطبيعية	١ - أبو الحسن الجرجاني
٢٣ ما هو الجزل وما هو الرقيق	القاضي إنسان له عواطف وأهواء ... ٧
٢٤ إشارة إلى ما نقله عن السالفين من النقاد	وصف جرجان وما كان بها من نعيم ... ٨ ٧ ٨
٢٥ ٢٤ الفرق بين الشعر والدين	وفاء أبي الحسن لجرجان ... ٨
٢٥ رأى مؤلف هذا الكتاب في حدود	أسفاره وأعماله ... ٩
٢٥ الشاعرية	مؤلفاته في الأدب والفقه والتاريخ ... ١٠ ٩
٣ - ابن فارس	إبائوه وعزته ... ١٠
٢٧ مولد ابن فارس ومذهبه وأشيأه	نماذج من شعره في التصون والعفاف ... ١١
٣٠-٢٨ ما وقع بينه وبين تلميذه بديع الزمان	اعتذاره من الانقباض عن الناس ... ١٢
٣٠ منزلته الشعرية والثربة	تفريده على أفنان الجمال ... ١٣
٣١ نماذج من شعره	وصفه لنعيم الحواس ... ١٤
٣٢ كتاب الصاحبى	حنينه إلى ليالى بغداد ... ١٥
٣٢ حياته العقلية بين التجزؤ والجود	رقة الشوق ... ١٦
٣٣ إنكاره أن يكون للفلسفة شعر وإعراب	٢ - نقد آراء الجرجاني
٣٤ ٣٣ الجانب المشرق من حياته العقلية	كيف ألف كتاب الوساطة ... ١٧
٣٦ ٣٥ نماذج مما استجاده من شعر المحدثين	أخوة الأدب وحقوقها المفروضة ... ١٨ ١٧
آراء ابن فارس فى فقه اللغة	أغلاط الجاهليين ... ١٩ ١٨
٣٨ ٣٧ نقد رأى السنيور جويدي	التعسف فى الدفاع عن أشعار الجاهلية ٢١ ٢٠
٣٩ ٣٨ ما هو فقه اللغة فى رأى الثعالبي وابن فارس	أثر المكان والطبع فى رقة الشعر وجفائه ٢٢ ٢١

صفحة	موضوع
٤٠	رأى آبن سيدة وآبن جنى
٤٠	قول من كتب بالخط العربى
٤١	رأيه فى التوقيف والاصطلاح
٤٢	رسم المصحف
٤٢	رأيه فى نشأة العلوم العربية
٤٢، ٤٣	رأيه فيما جهل أصله من اعتبار
٤٥	نقد هذا الرأى
٤٥	لائفاظ المبهمة المدلول
٤٥، ٤٦	خصائص اللغة العربية
٤٦	تعليل ما عرف من كثرة المترادفات
٤٧	تأثير لغة فى اللغات
٤	٤ - النقد عند آبن شهيد
٤٨	الفرق بين البيان وبين النحو والتصرف
٤٩	التندير بالنحو والمعلمين
٤٩	كلمة الجاحظ فى معلم النحو ومعلم البيان
٥٠	نقد رأى الجاحظ وآبن شهيد
٥١	محوورة آبن شهيد لتلاميذه من العرب
٥١	واليهود
٥٢	الأنساب والقربات بين الحروف
٥٢	اختلاف البلاغة باختلاف أقدار مخاطبين
٥٣	الشعر الذى يوضع للجددين
٥٤، ٥٣	مثل فى مقدور كل بلغ أن يصل الى كل غرض
٥٤	البلاغة صرب من السياسة النفسية
٥٥	سر البلاغة يرجع الى الطبع
٥٦	حل الأجسام من صور النفوس ؟

صفحة	موضوع
٥٧	كيف حرم الجاحظ من شرف المنزلة وكيف سبقه آبن اثيرات وإبراهيم ابن العباس
٥٨	نقد رأى آبن شهيد فى ذلك
٥	٥ - أبو بكر الباقلانى
٥٩	حياته
٥٩	تصويره لما كان فى زمانه من أزمة عقلية
٦٠	موقفنا من درس إعجاز القرآن
٦١، ٦٠	الموازنة بين القرآن وبين غيره من الكلام
٦١	نتيجة هذا البحث
٦٢	نقد رأى الباقلانى
٦٣	الفرق بين القرآن وبين غيره من الكتب الربانية
٦٣	لماذا لم يصف الله التوراة والانجيل بالعجاز ؟
٦٤	شرح أسرار تفوق اللغة العربية
٦٤	نقد رأى الباقلانى ورأى المسيو مرسية
٦٥	بين اللغة العربية واللغات الأجنبية
٦٥	أثر الغرور القومى
٦٦	ليس القرآن من جنس كلام العرب
٦٦	نقد هذا الرأى
٦٧	رأينا فى الفوارق بين اللغات
٦٨-٧٠	سر البلاغة والنصاحة يرجع الى ما فى المعنى من قوة وروح
٧١	بين القديم والجديد
٧٢	نقد من كانوا يرون أن البلاغة لا ترجع الى المعانى

صفحة	
٩٢	تجنب البحترى للغريب
٩٣	السهو والغلط عند المتقدمين
٧	أبو هلال العسكري
٩٤	تحقيق تاريخ وفاته
٩٥٩٤	أبو أحمد العسكري
٩٦	إباء أبي هلال
٩٦	شعره في التوجع لحظ الأديب
٩٦	صلته بالصاحب بن عباد
٩٨٩٧	دفاعه عن أدب الصاحب
٩٩٩٨	تحامله على المتنبي
٩٩	نثر أبي هلال
١٠٠	نماذج من نثره
١٠١	نماذج من شعره
٨	كُتاب الصناعتين
١٠٣	الناية من علم البلاغة
١٠٤١٠٣	جوده كُتاب الصناعتين
١٠٥١٠٤	عذبة الأدب على هذا الكتاب
١٠٦	إعماله لأكثر أسماء الشعراء والكتاب
١٠٦	سرايا بلاغه عند أبي هلال
١٠٧	حسن اللفظ مؤدرف على جمال المعنى
١٠٧	السهل المنتع
١٠٨	الكلام بالجزل
١٠٩	المدار على إصابة المعنى
١١٠١٠٩	أطاييب من الأدب

صفحة	
٧٤٧٣	شواهد من القرآن بلاغتها في معانيها
٧٦-٧٤	شواهد من كلام العرب وأشعارهم
٧٦	مناقشة بعض السرقات الشعرية
٧٧٧٦	أهمية الألفاظ والأساليب
٧٧	الباقلافي ينفي السجع من القرآن
٧٩-٧٨	خطأ هذا الرأي
٨١٦٨٠	غلط في فهم السجع
٦	أبو القاسم الآمدي
٨٢	حياته ومذهبه في الأدب
٨٣	نماذج من شعره
٨٤	معرفة لنفسية أدعياء الأدب والبيان
٨٥	رأيه في الحاسة الفنية
٨٦	هل يمكن كسب الذوق بكثرة المران
٨٦	إيثار الشعر المطبوع على المصنوع
٨٦	يفتخر للأعراب ما لا يغتفر للشعراء
٨٧	المثقفين
٨٧	مسألة العمل والإغراب بإيثار وحش
٨٧	المعاني والألفاظ
٨٨	دخل هذا الاتجاه في
٨٩	الحن لا يعرى منه
٨٩	ين صاحب أبي تمام وصاحب البحترى
٨٩	اجتماع أبي تمام والبحترى لأول مرة
٩٠	التعليق والإسفاف عند هذين الشاعرين
٩٠	هل أبدع أبو تمام مذهب البديع
٩١	غربة شعر أبي تمام وحسد معاصريه

صفحة	صفحة
١٢٠ إشاره لمذهب المعتزلة	٩ - أبو على الحاتمي
١٢٠ تحامل معاصريه	حياته وأدبه ١١١
١٢١ مؤلفاته المختلفة	مثل القصيدة مثل الانسان في اتصال
١٢٢ عنايته بجمع أشعار الثقافة الأدبية	بعض أجزائه ببعض ١١٢
١٢٢ كتاب الموضح	أقدماء والمحدثون ١١٢
١٢٣ جمعه للتواخذات الشعرية	براعته في نقد الشعر ١١٣
١٢٤ تجنيه على أبي تمام	سفر في نحول الحاتمي هو صلفه وكبرياؤه
١٢٤-١٣٦ سوق المآخذ بدون تمحيص	صطدامه بالمتنبي ١١٤
١٢٧ وحدة البيت ووحدة القصيدة	بصفه لعطسة المتنبي ١١٥
١٢٨ دقة الوصف	لرسالة الحاتمية ١١٦
١٢٨ تقييد ما يؤثر عن أخلاق الشعراء	بناقته هذه الرسالة ١١٧-١١٩
١٢٩ ما يعيشون في فضائلهم أضعاف	١٠ - أبو عبد الله المرزباني
١٣٠ بعض الفكادات	حياته وإدماته على الشراب ١٢٠

الباب الخامس كتاب الآراء والمذاهب

صفحة	صفحة
١٣٨ شخصيته الفلسفية	١ - أبو حيان التوحيدى
١٣٩ رأيه في حياة أهل الجنة	أسرار العبقريّة ١٣٣
١٣٩ حياته الوجدانية	مولد التوحيدى ونحول نشأته ١٣٣
١٤٠ كتاب الصداقة والصدق	ثورته على الحياة والأحياء ١٣٤
١٤١ براعته في تصوير الصداقة والحب	اتصاله بالصاحب ونحوجه عليه ١٣٤
١٤١-١٤٢ تحليل العواطف والأهواء	ثورة نفسية ١٣٥
١٤٢-١٤٣ صورة فنية لمودة صديقين	إحراقه لكتبه وغضبه على الناس ١٣٦
١٤٣ رأيه في الشريعة والفلسفة	هجاؤه لمعاصريه ١٣٧
١٤٤ إخوان الصفاء	حديثه عن ابن مسكويه ١٣٧